أخبار اليوم
قطاع الثقافة
شرق وغرب



جون
شتاينبك

تورتيلا فلات



ترجمة
سيد جاد

خرجت هذه النسخة بتلك التقنية العالية والجودة الممتازة نتيجة مساعدة أحد الأخوة الأصدقاء الأفاضل من أسرة المنتدى
والذي أعتز بصداقته
وهو للأسف يرفض أن أذكر إسمه
وإليه أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالفضل
****
معرفتي



قطاع الثقافة والكتب والمكتبات

رئيس مجلس الإدارة :

محمد عهدي فضلي

تورتيلا فلات

تأليف : چون شتاينبك

ترجمة : سيد جاد

تصميم الغلاف
إسلام الشيخ

بطاقة فهرسة

شتاينبك ، جون أرنست ، ١٩٠٢ - ١٩٦٨
تورتيلافلات / جون شتاينبك ؛
ترجمة سيد جاد . - القاهرة : دار أخبار اليوم ،
قطاع الثقافة ، ٢٠٠٧
٢٠٠ ص ؛ ٢٠ سم ·- (شرق وغرب) تدمك
٩٧٧٠٨١٢٨٥٤
١ - القصص الإنجليزية
أ - جاد ، سيد (مترجم)
ب - العنوان
٢٣

تورتيلا فلات

تأليف
چون شتاينبك

ترجمة
سيد جاد

مقدمة

هذه قصة «دانى » وأصدقاء دانى ومنزل دانى. وهى تصور كيف أصبح الثلاثة شيئا واحدا، إلى حد أنك حينما تتحدث فى «تورتيلا فلات » عن منزل دانى فإنك لا تعنى مجرد بناء من الخشب تعلوه طبقة من البياض القديم، وتغطيه زهرة قشطالة غير مشذبة. لا، عندما تتحدث عن منزل دانى فهذا يعنى أنك تتحدث عن وحدة عناصرها من الرجال ينبعث منها عذوبة ومرح، وغيرة، وأخيراحزن صوفى، ذلك لأن منزل دانى لا يختلف عن «المائدة المستديرة »، وأصدقاء دانى لا يختلفون عن فرسانها، وهذه القصة تحكى كيف ظهرت هذه المجموعة إلى الوجود، وكيف ازدهرت وكبرت حتى أصبحت منظمة جميلة عاقلة. وتتناول هذه القصة مغامرات أصدقاء دانى، بما فعلوه من خير، بأفكارهم وأعمالهم، وأخيرا تقص علينا هذه القصة كيف احترقت التميمة وتفرق شمل الجماعة.

وهذه الأمور معروفة جيدا فى مونترى، تلك المدينة القديمة على ساحل كاليفورنيا، وتتردد على ألسنة الناس، وينالها شىء من التطوير فى بعض الأحيان. ومن الأفضل تسجيل هذه الحلقة على الورق حتى لا يقول الباحثون عنها، إذ يسمعون الأساطير فى المستقبل، كما يقولون عن آثر وعن رولان وعن روبين هود: لم يكن هناك دانى ولا أى مجموعة من

أصدقاء دانى ، ولا أى بيت، دانى إله طبيعة ورفاقه رموز بدائية للريح، والسماء، والشمس، وهذا التاريخ يهدف إلى حماية القصة - الآن وإلى الأبد - من السخرية التى قد تتردد على شفاة الأساتذة المحنكين.

تقع مونترى على منحدر تل، تحتها خليج أزرق اللون وخلفها غابة من أشجار الصنوبر الطويلة الداكنة، ويقطن الأجزاء المنخفضة من البلدة أمريكيون وإيطاليون وصيادو أسماك وعمال تعليب الأسماك. أما على التل حيث تتداخل الغابة مع المدينة، وحيث الشوارع براء من الأسفلت، وحيث تحررت الاركان من مصابيح النور، يتكتل سكان مونترى القدامى كما فعل البريطانيون القدامى فى ويلز وهؤلاء هم «البايزانوس»[1] أو الفلاحون المخلطون.

ويعيش هؤلاء البايزانوس فى بيوت خشبية قديمة أقيمت وسط أفنية معشوشبة، وحول هذه البيوت تنتصب أشجار صنوبر الغابة. ولا يهتم هؤلاء البايزانوس بأمر التجارة، كما أنهم متحررون من النظام المعقد للأعمال الأمريكية، ولا يوجد لديهم ما يمكن سرقته، أو استغلاله أو رهنه، ومن أجل هذا لم يتعرضوا لهجمات هذا النظام إلى حد كبير.

من هم البايزانوس ؟ انهم خليط من الدماء الأسبانية والهندية والمكسيكية والقوقازية وأسلافهم قد عاشوا منذ مائة أو مائتى سنة فى كاليفورنيا. وهم يتكلمون الإنجليزية بلهجة أسبانية ويتكلمون الأسبانية بلهجة إنجليزية. وعندما يسأل الواحد منهم عن جنسه يصر - بغيظ - على صفاء نسبه الأسبانى ويشمر كمه ليظهر البياض الذى فى باطن ذراعه. أما لون بشرتهم فإنه يشبه لون الغليون البنى الداكن، وهم يرجعون ذلك إلى أشعة الشمس. إنهم فلاحون يعيشون فى تلك المنطقة التى تقع أعلى التل فوق مدينة مونترى والتى تسمى تورتيلا فلات (أى

(١) البايزانوس : اسم يطلق على المهاجرين الفقراء الأسبانيين والإيطاليين والمكسيكيين وغيرهم كما سيتضح بعد قليل (المترجم) .

المسطحة)، رغم أنها ليست مسطحة على الإطلاق.

كان دانى أحد هؤلاء الفلاحين المخلصين، شب فى تورتيلا فلات وأحبه كل إنسان، لكنه لم يكن يصبر خاصة على صراخ الأطفال فى تورتيلا فلات. كانت تربطه صلة بكل شخص تقريبا فى «الفلات » سواء بالدم أو بالمغامرة. وكان جده رجلا ذا أهمية يمتلك منزلين ويحترمه الناس بسبب ثروته، وإذا كان دانى الشاب قد فضل النوم فى الغابة، والعمل فى مراعى الخيل والبقر، واغتصاب طعامه ونبيذه من عالم يرفضه، فليس ذلك لأنه يفتقر إلى أقارب من ذوى الحيثية والنفوذ. كان دانى دقيق الحجم أسمر اللون ذا عزيمة. وفى الخامسة والعشرين من عمره، أخذت ساقاه انحناءة الركوب الدائم على الجياد.

عندما كان دانى فى الخامسة والعشرين، أعلنت الحرب ضد ألمانيا. كان فى حوزته هو وصديقه بيلون جالونان من النبيذ عندما سمعا إعلان الحرب (بالمناسبة بيلون هو ما يضاف بعد إتمام الصفقة - فوق البيعة) ورأى بيج جو بورتاجى تألق الزجاجات بين أشجار الصنوبر فانضم إلى دانى وبيلون.

وكلما تناقصت الخمر فى الزجاجات، زادت ثورة الوطنية فى نفوس الرجال الثلاثة. حتى إذا ما اختفت الخمر هبطوا التل وذراع الواحد منهم فى ذراع الآخر من أجل الصداقة والأمن، ويمموا وجوههم شطر شوارع مونترى. وأمام أحد مراكز تسجيل المتطوعين هتفوا بصوت عال لأمريكا وتحدوا ألمانيا أن تفعل ما تشاء، وأخذوا يصيحون مهددين الامبراطورية الألمانية حتى استيقظ الجندى المكلف بالتسجيل، ارتدى سترته العسكرية وخرج إلى الشارع ليسكتهم، وتوقف لتسجيل أسمائهم.

طلب إليهم الجندى أن يصطفوا أمام مكتبه. واجتازوا كل شىء ما عدا اختبار الاتزان ثم شرع الشرطى يلقى أسئلته على بيلون :

- ما هو السلاح الذى تريد أن تلتحق به ؟

قال بيلون بمرح : - لا يهمنى. أى. سلاح

- أعتقد أننا فى حاجة إلى رجال مثلك فى المشاة.

هكذا سجل بيلون فى سلاح المشاة.

وتحول الجندى بعدئذ إلى بيج جو، وكان قد بدأ يسترد وعيه : أين تريد أن تذهب ؟ أجاب بيج جو فى تعاسة : أريد أن أذهب إلى البيت.

- سجله الجندى فى المشاة هو الآخر، وأخيرا واجه دانى، الذى كان نائما على قدميه : «أين تريد أن تذهب ؟ »

- هه ؟

- أقول، أى سلاح ؟

ماذا تعنى بكلمة (سلاح) ؟

ماذا يمكنك عمله ؟

- أنا ؟ أستطيع أن أفعل أى شىء.

- ما الذى كنت تعمله من قبل ؟

- أنا ؟ إننى أرعى البغال.

- أوه، هل أنت كذلك ؟ كم عدد البغال التى تستطيع أن ترعاها ؟

مال دانى إلى الأمام وسأل بدهاء ودربة : كم عدد ما لديكم؟

أجاب الجندى : حوالى ثلاثين ألفا .

لوح دانى بيده وقال : نربطهم معا !

وهكذا ذهب دانى إلى تكساس واهتم بالبغال أثناء فترة الحرب. وسار بيلون نحو أوريجون مع المشاة، أما بيج جو فقد ذهب إلى السجن كما سيتضح فيما بعد.



كيف وجد دانى نفسه وارثا، بعد عودته من الحرب، وكيف أقسم على حماية الضعيف

عندما عاد دانى من الجيش علم أنه أصبح وارثا ومالك عقار فقد مات جده العجوز تاركا له المنزلين الصغيرين فى تورتيلا فلات.

عندما سمع دانى ذلك ضاق بعض الشىء بمسئولية الملكية. وقبل أن يذهب لمشاهدة ما يملكه لأول مرة اشترى جالونا من النبيذ الأحمر. وشرب معظمه وحده وما لبث أن أنزاح عنه عبء المسئولية، وطفت إلى السطح طبيعته السيئة جدا. زعق، حطم بضعة مقاعد فى صالة قمار بشارع الفارادو، اشتبك فى مشاجرتين قصيرتين لكنهما رائعتان، لم يعره أحد التفاتا كبيرا. أخيرا قادته ساقاه المقوستان المهزوزتان إلى الميناء، فى هذه الساعة المبكرة من الصباح، وكان الصيادون الإيطاليون يسيرون فى أحذية من المطاط فى طريقهم إلى البحر.

وتغلبت روح المعاداة العنصرية على عقل دانى. توعد الصيادين أخذ يسبهم: «أيها الصقليون يا أولاد الحرام» و «يا حثالة الجزيرة السجينة» و «كلابا عن كلاب عن كلاب» وصاح (بالأسبانية) (لعن الله أمكم) ووضع إبهامه على أنفه وقام بحركات قبيحة أسفل خصره. ولم يكن من الصيادين سوى أن تهجموا وحركوا مجاديفهم وقالوا : هالوا، دانى. متى رجعت؟ تعالى الليلة. لدينا نبيذ جديد.

استشاط دانى غضبا. فزعق (بالأسبانية): ضعوا الأقذار فوق رءوسكم.

قالوا: إلى اللقاء يا دانى. نراك الليلة.

وقفزوا إلى قواربهم الصغيرة وراحوا يجدفون نحو الزوارق البخارية، ودارت آلاتهم وانطلقوا بعيدا.

لقد أهين دانى، عاد يمشى فى شارع الفارادو محطما النوافذ فى أثناء سيره، وعند الصف الثانى من العمارات قبض عليه الشرطى. وكان احترام دانى الكبير للقانون هو الذى جعله يمشى فى هدوء. ولو لم يكن قد سرح توا من الجيش بعد الانتصار على ألمانيا، لحكم عليه بستة أشهر، لكن الأمر كذلك، فقد حكم القاضى عليه بثلاثين يوما فقط.

هكذا أمضى دانى شهرا على سريره فى سجن مدينة مونترى. كان يرسم فى بعض الأحيان صورا قبيحة على الجران، وفى أحيان أخرى كان يفكر فى تاريخه العسكرى. وكان الوقت يمر ثقيلا بين يدى دانى هناك فى زنزانته بسجن المدينة. ومن وقت لآخر يتلقى السجن سكيرا لفترة الليل، ولكن الجريمة فى مونترى على وجه العموم كانت فى حالة خمول، وكان دانى وحيدا. وقد ضايقه البق قليلا فى بداية الأمر، ولكن عندما تعود البق على مذاقه وتعود هو على قرصه، عاشا معا فى سلام.

وبدأ يلعب لعبة ساخرة، فكان يمسك البقة ويفعصها فى الحائط، ويرسم دائرة حولها بالقلم الرصاص ويسميها «العمدة كلوف». ثم يمسك غيرها ويسميها على أسماء أعضاء مجلس المدينة وفى فترة قصيرة أصبح لديه حائط مزدان بالبق المفعوص وكل بقة عليها اسم أحد الأعيان المحليين. ورسم لها آذانا وذيولا، وأضاف إليها أنوفا كبيرة وشوارب. وقد صدم السجان تيتورالف، لكنه لم يقدم شكوى لأن دانى لم

يتعرض فى رسمه لقاضى الأمن الذى حكم عليه، ولا لأى شخص من قوة الشرطة. فقد كان يكن احتراما هائلا للقانون.

وذات ليلة، وكان السجن خاليا، دخل رالف إلى زنزانة دانى حاملا معه زجاجتين من الخمر. بعد ساعة خرج لإحضار المزيد من الخمر، وخرج معه دانى. فقد كان الجو كئيبا فى السجن. ذهبا إلى بيت توريللى، حيث اشتريا نبيذا، إلى أن طردهما توريللى، بعد ذلك ذهب دانى ونام بين أشجار الصنوبر، بينما عاد تيتو رالف متعثرا وأخطر عن هربه.

عندما أيقظت الشمس الساطعة دانى حوالى منتصف النهار، قرر أن يختبىء طول اليوم حتى يفلت من المطاردة. جرى وزاغ خلف الأدغال. وكان يظهر من بين الشجيرات مثل ثعلب مطارد. وفى المساء، خرج من مخبئه، بعد أن طبق قواعد الهاربين من السجن، وانصرف إلى عمله.

وكان عمل دانى مباشرا جدا. ذهب إلى الباب الخلفى لأحد المطاعم. وسأل الطباخ: هل أجد لديك لقمة جافة لكلبى؟ وبينما كان ذلك الرجل الطيب يلف الطعام، سرق دانى قطعتين من لحم الخنزير، وأربع بيضات، وقطعة من اللحم الضانى، ومضرب ذباب.

قال: سأدفع لك الثمن يوما ما.

- إنها بقايا لا تساوى شيئا. كنت سألقيها لو لم تأخذها.

عندما شعر دانى بمزيد من الارتياح بالنسبة للسرقة. إذا كان هذا هو شعورهم، فهو ليس مذنبا على ما يظهر. وعاد إلى بيت توريللى، وباع البيضات الأربع، وقطعة اللحم الضأن، ومضرب الذباب فى مقابل زجاجة خمر وانسحب إلى الغابة لإعداد عشائه.

كانت الليلة مظلمة مشبعة بالرطوبة. وكان الضباب عالقا مثل شبكة عرجاء بين أشجار الصنوبر الداكنة التى تحيط بحدود أراضى مونترى. أحنى دانى رأسه وأسرع يبحث عن مأوى فى الغابة وشعر بوجود شخص

آخر يمضى مسرعا أمامه، وعندما ضاقت المسافة بينهما، تعرف على مشية صديقه القديم بيلون السريعة. كان دانى رجلا كريما، ولكنه تذكر أنه باع جميع ما كان معه من طعام ما عدا قطعتى لحم الخنزير ولفة الخبز الجاف.

وقرر: سأتجاهل بيلون. إنه يمشى كرجل قد شبع من الديوك الرومى المحمرة وما شابه ذلك وفجأة، لاحظ دانى أن بيلون متشبث فى حرص بمعطفه عند موضع الصدر.

صاح دانى: أوه، بيلون. يارفيقى!

غير أن بيلون مضى بخطوات أسرع. وراح دانى يهرول وراءه: بيلون، يا صديقى الصغير! إلى أين تذهب بهذه السرعة؟

لم يجد بيلون مفرا من الوقوف والانتظار. واقترب دانى فى حذر، وان كانت لهجته مليئة بالحماسة. كنت أبحث عنك، يا أعز الأصدقاء الصغار، وذلك لأنى، كما ترى، لدى شريحتان كبيرتان من لحم الخنزير الرب، وزكيبة من الخبز الأبيض اللذيذ. شاركنى النعمة يا بيلون. يا عزيزى الصغير.

هز بيلون كتفيه. وهمهم بوحشية «وهو كذلك» ومشيا معا فى الغابة. كان بيلون متحيرا. أخيرا توقف وواجه صديقه. وسأله فى حزن: دانى. كيف عرفت أن فى معطفى زجاجة براندى؟

صاح دانى. براندى؟ أنت معك براندى؟ واستطرد فى براءة: ربما يكون من أجل إحدى الأمهات العجائز المريضات. وربما كنت تحتفظ به من أجل الرب يسوع عندما يظهر ثانية. من أنا وأنا لست سوى صديقك، لأحكم على الجهة التى سيذهب إليها هذا البراندى. بل إننى غير واثق من أن معك براندى، أضف إلى ذلك أنى لست ظمآنا. لن أمس هذا البراندى. ومرحبا بك على هذه القطعة الكبيرة من لحم الخنزير

المشوى، أما عن البراندى الذى معك فهذا شأنك الخاص.

أجـابه بيلون بحـدة: دانـى، لا يضـايقنى أن تشـاركنـى البـرانـدى أنت النصف وأنا النصف. ومن واجبى ألا أدعك تشربه كله.

عندئذ طرح دانى الموضوع جنبا: هنا فى هذا المكان الخالى سأطهو هذا الخنزير، بينما تحمر أنت الكعك الموجود هنا فى هذه الحقيبة. ضع البـراندى الذى معك هنا، يا بيلون. هـنا أفضل، حيث يمكننا أن نراه، وأن يرى أحدنا الآخر.

أشـعـلا نارا وقـاما بشـوى قطعـة لحم الخنزير وأكلا الخـبـز الجـاف وتناقص البـرانـدى بسـرعـة من الزجـاجة. بعد أن تناولا طعـامهما جلسا متـجاورين قـرب النار وراحا يرتشـفـان الخـمـر من الزجـاجة فى لذة مثل النحل المنهك. وهبط الضـبـاب عليـهمـا فـأضفت الرطوبة اللون الرمـادى على مـعطفـيـهمـا. وتنهـدت الريح فى أسـى خـلال أشـجـار الصنوبر التى تحيط بهما.

وبعـد فـتـرة، تمددت الوحـدة فـى قلب دانـى وبيلون. وفكر دانـى فى أصحابه المفقودين.

وتسـاءل دانى، وهو يقلب راحتيه إلى أعلى ويدفع ذراعيه إلـى الأمام: أين آرثر موراليس.

ثم أجاب نفسه، وهو يقلب راحتيه إلى أسفل، ويسـقط ذراعيه فى يأس: مـات فى فـرنسـا. مـات من أجل بلاده. مـات فى أرض أجنبـيـة. يمشـى الأجـانب بالقرب من قبـره دون أن يعـرفوا أن آرثر موراليس يرقد هناك.

ويرفع راحـتيه إلى أعلى مرة أخرى مستطردا: أين بابلو، ذلك الرجل الطيب.

أجـاب بيلون: فى السـجن، سـرق بابلو أوزة واختـفى فى الـغـابة هذه

الأوزة عضت بابلو فصرخ وهكذا امسكوه. وهو ينزل الآن فى السجن لمدة ستة شهور.

تنهد دانى وحول مجرى الحديث. فقد أدرك أنه كان مسرفا فى استغلال الشخص الوحيد من معارفه بطريقة تصلح للخطابة. لكن الوحدة ظلت ترهفه وتبتغى لها مخرجا.

أخيرا بدأ يقول: ها نحن أولاء نجلس هنا.

أضاف بيلون بطريقة منغمة: بقلوب محطمة.

قال دانى: لا، هذه ليست قصيدة. إننا نجلس هنا، بلا مأوى لقد بذلنا أرواحنا من أجل بلادنا، والآن لا نجد سقفا فوق رءوسنا.

وأضاف بيلون مؤيدا: ولم يكن لنا فى يوم من الأيام.

وراح دانى يشرب بطريقة حالمة حتى لمس بيلون كوعه وأخذ الزجاجة. قال دانى: «ذلك يذكرنى بقصة رجل كان يمتلك منزلين للبغاء
- وفغر فمه وصاح: بيلون بيلون! أيها البطة السمينة الصغيرة لصديق الطفولة. لقد نسيت! إننى وارث! إننى أملك منزلين.

سأله بيلون بأمل: منزلين للبغاء؟ واستطرد أنت كاذب مخمور.

- لا يا بيلون. إننى أقول الحق. لقد مات العجوز. أنا الوارث. أنا، الحفيد المفضل.

قال الواقعى بيلون: أنت لست الحفيد الوحيد، أين هى تلك المنازل؟

- هل تعرف بيت العجوز فى تورتيلا فلات يا بيلون؟

- هنا فى مونترى؟

- نعم، هنا فى تورتيلا فلات.

- وهل هى جيدة، تلك المنازل؟

استلقى دانى على ظهره، منهوكا من الانفعال:

- لا أدرى. لقد نسيت أنى أمتلكها.

جلس بيلون صامتا مستغرقا. واكتسى وجهه بالأسى، وألقى حفنة من عيدان الصنوبر الرفيعة فى النار، مراقبا اللهيب وهو يصعد بجنون بين هذه العيدان ثم يموت. ونظر فى وجه دانى مدة طويلة بقلق عميق، وتنهد بصوت مسموع، ثم تنهد مرة أخرى. وقال فى أسى: والآن انتهى الأمر. اليوم انتهت الأوقات السعيدة سيحزن الأصدقاء، ولكن حزنهم لن يفيد شيئا.

وضع دانى الزجاجة على الأرض، والتقطها بيلون ووضعها فى حجره.

سأله دانى: والآن ما هو الذى انتهى؟؟ ماذا تقصد؟

استطرد بيلون قائلا: ليست هذه هى المرة الأولى. عندما يكون الشخص فقيرا، يفكر: «لو كان معى نقود لأقتسمتها مع أصدقائى المخلصين» ولكن دع هذه النقود تأتى، عندئذ تطير نزعة الإحسان بعيدا. هكذا الأمر معك، يا من كنت صديقى فى يوم من الأيام لقد ارتفعت عن أصدقائك. أصبحت رجلا من ذوى الأملاك وسوف تنسى أصدقاءك الذين شاركوك كل شىء، حتى البراندى الذى يحتسونه.

انزعج دانى من كلمات بيلون. وصاح: لست أنا. لن أنساك أبدا يا بيلون.

فقال بيلون فى برود: هذا ما تقوله الآن. ولكن عندما تجد لديك منزلين تنام فيهما، وسوف ترى. سيصبح بيلون صعلوكا فقيرا، بينما تأكل أنت مع العمدة.

نهض دانى مترنجا، ثم شد قامته معتمدا إلى شجرة.

- أقسم لك، يا بيلون، أن ما أملكه هو ملكك. عندما يكون لى منزل،

يكون لك منزل. أعطنى جرعة.

قال بيلون بصوت متخاذل: «لا بد أن أرى ذلك حتى أصدقه لو حدث هذا لكان عالما عجيبا. سيأتى الناس آلاف الأميال لمشاهدته بالإضافة إلى أن الزجاجة قد فرغت.

٢ كيف تنازل بيلون عن ضيافة داني طمعا في شهوة المركز

غادرهما المحامى عند بوابة المنزل الثانى وقفز إلى سيارته الفورد ومضى يقعقع بها منحدرا إلى أسفل التل نحو مونترى.

وقف دانى وبيلون أمام السور غير المدهون الذى تظهر فيه الأوتاد وتطلعا إلى العقار فى إعجاب، كان عبارة عن منزل منخفض ذى خطوط من دهان أبيض قديم، ونوافذه فارغة مظلمة بلا ستائر. وكانت هناك فى الفراندة زهرة قشطالة عظيمة قرنفلية اللون كما نمت أزهار الجرانيوم وسط الأعشاب، فى الفناء الأمامى، وكان الجد قد زرعها.

قال بيلون: هذا أفضل المنزلين، إنه أكبر من الآخر.

كان دانى يمسك فى يده هيكل مفتاح جديد. وخطا على أصابع قدميه فوق الفناء الرخو وفتح الباب الخارجى. وجد الغرفة الرئيسية كما كانت تماما منذ كان يعيش فيها الرجل العجوز: نتيجة عام ١٩٠٦ ذات الوردة الحمراء، الراية الحريرية على الحائط، المحارب بواب ايفانز وسط مدمرة بحرية، حزمة الورد الأحمر - المصنوع من الورق - المعلقة، عيدان الثوم والفلل الأحمر التى يعلوها الغبار، الموقد المحكم، الكراسى الهزازة المتآكلة.

وتطلع بيلون إلى الشقة وقال فى انبهار: ثلاث غرف وسرير، وموقد،

سنكون سعيدين هنا يا دانى.

أخذ دانى يتحرك بحذر فى أرجاء البيت. كانت لديه ذكريات مريرة من أيام العجوز. وانطلق بيلون أمامه، واقتحم المطبخ. وصاح: حوض بصنبور وحرك مقبضه «لا يوجد ماء. دانى ينبغى أن تطلب من الشركة إمدادك بالمياه.»

وتوقفا وابتسم أحدهما إلى الآخر ولاحظ بيلون أن هموم الملكية قد ارتسمت على وجه دانى. لن يعود ذلك الوجه إلى التحرر من الهم بعد ذلك أبدا. لن يعود دانى إلى تحطيم النوافذ الآن بعد أن أصبح لديه نوافذ خاصة يمكن تحطيمها. كان بيلون على حق - لقد ارتفع دانى من بين أصدقائه. واستقامت كتفاه لتتحملا تعقيد الحياة. ولكن أفلتت منه صيحة ألم قبل أن يترك إلى الأبد حياته القديمة البسيطة.

قال فى حزن: بيلون، أتمنى لو كنت أنت المالك وأن أكون أنا الذى يجيء للعيش معك.

وبينما ذهب دانى إلى مونترى ليطلب توصيل المياه، راح بيلون يتجول فى الفناء الخلفى الذى يعج بالأعشاب الشيطانية المتشابكة. كانت هناك أشجار فاكهة، صارت بفعل الزمن عجفاء. سوداء. وامتلأت بالعقد وتكسرت من الإهمال. وكان بين النباتات الشيطانية بضع عشش على شكل خيام، وكومة من طارات البراميل الصدئة، وكومة من الرماد ومرتبة مبتلة. ونظر بيلون من فوق السور إلى حظيرة السيدة موراليس، وبعد لحظة تفكير فتح فى السور بضع فتحات صغيرة للدجاج، وفكر فى طيبة: «سيروق لها أن تبنى أعشاشا بين النباتات الطويلة، ثم أخذ يفكر كيف يصنع فخا فى شكل الرقم أربعة فى حالة ما إذا جاءت الديوك أيضا وضايقت الدجاج وأبعدتها عن أعشاشها، وفكر مرة أخرى. «سنعيش عيشة سعيدة».

عاد دانى من مونترى ساخطا. قال: «تلك الشركة تريد تأمينا».

- تأمين؟

- نعم. إنهم يطلبون ثلاثة دولارات قبل قيامهم بتوصيل المياه.

فقال بيلون فى حدة: ثلاثة دولارات يعنى ثلاثة جالونات من الخمر. وعندما ينفد النبيذ، فى مقدورنا أن نستعير جردل مياه من السيدة موراليس بالمنزل المجاور.

- ولكننا لا نملك هذه الدولارات الثلاثة.

قال بيلون: أعرف هذا. ربما يكون فى مقدورنا أن نستعير قليلا من الخمر من السيدة موراليس.

وانقضت الساعات الأخيرة من النهار. وأعلن دانى: «غدا سنستقر. غدا نقوم بالتنظيف والمسح. وسوف تقوم أنت يا بيلون بقطع النباتات الشيطانية وإلقاء القمامة فى المصرف.

صاح بيلون فى ذعر: الحشائش؟ لا لن أقطع هذه الحشائش وراح يشرح نظريته الخاصة فى دواجن السيدة موراليس.

وافق دانى على الفور. وقال: يا صديقى، إننى سعيد بمجيئك للعيش معى. والآن ، بينما أجمع أنا بعض الأخشاب، عليك أن تحصل على شيء ما للعشاء.

فكر بيلون. وقد تذكر البراندى، إن هذا ليس عدلا. وقال لنفسه بمرارة: سوف أصبح مدينا له. ستنتهى حريتى. لن ألبث أن أصبح عبدا بسبب منزل هذا اليهودى. غير أنه خرج فعلا للبحث عن عشاء.

على بعد ناصيتين، بالقرب من حافة غابة الصنوبر، وظهر أمامه ديك متوسط الحجم من نوع البلايموث روك كان ينبش فى الطريق. لقد بلغ الديك تلك السن المراهقة حيث يخشوشن صوته وتتعرى ساقاه وعنقه وصدره. وربما كان تفكير بيلون فى دجاج السيدة موراليس بطريقة كريمة هو الذى جذب اهتمامه إلى هذا الديك الصغير. ومشى

بيلون ببطء نحو غابات الصنوبر المظلمة وجرى الديك أمامه.

وفكر بيلون: أيها الديك الصغير المسكين العارى. كم يكون الجو باردا بالنسبة لك فى الصباح الباكر، عندما يسقط الندى، ويزداد الهواء برودة مع الفجر، أليس الله الرءوف بعباده رءوفا دوما بالحيوانات الصغيرة؟ ثم فكر: هأنتذا تلعب هنا فى الشارع، أيها الكتكوت، وفى يوم ما ستدهمك سيارة. وإذا قتلتك، فإن هذا أهون ما يمكن حدوثه، إنها قد تكسر ساقك أو جناحك، فتعيش بقية حياتك فى محنة تجرجر نفسك. كم هى شاقة هذه الحياة بالنسبة لك، أيها الطائر الصغير.

وتحرك ببطء وحذر. كان الديك يحاول أحيانا العودة من حيث أتى، لكن بيلون كان هناك دائما فى المكان الذى يريد الديك أن يتجه إليه. وأخيرا اختفى الديك فى غابة الصنوبر، وتلكأ بيلون خلفه.

ولنبل روح الكتكوت يمكن أن يقال إن صرخة واحدة لم تخرج منه. فهذا الكتكوت الذى كان بيلون يتنبأ له بحياة مؤلمة، مات فى سلام، أو على الأقل فى هدوء. وهذا يرجع إلى حد كبير إلى التكنيك الذى أتبعه بيلون معه.

بعد عشر دقائق خرج من الغابة وعاد إلى منزل دانى. وكان الديك الصغير موزعا على جيوبه، بعد أن نتف ريشه وقطعه إلى أجزاء. وإذا كانت هناك قاعدة للسلوك أقوى فى نظر بيلون من أى قاعدة أخرى لكانت هذه: لا تحضر إلى البيت أبدا ومعك الريش أو الرأس أو الأرجل لأن هذه الأشياء هى التى يمكن عن طريقها معرفة شخصية الكتكوت.

فى المساء أشعلا نارا فى الموقد. وزمجر اللهيب فى المدخنة وبعد أن شبعا جيدا، جلسا على الكراسى الهزازة يتأرجحان إلى الأمام وإلى الخلف، فى دفء وسعادة، أشعلا شمعة صغيرة فى ساعة العشاء، أما الآن فإن الضوء الوحيد الذى يبدد ظلام الغرفة هو نار الموقد. حتى يكتمل الأمر، أخذ المطر يتساقط على السقف. ولم يتسرب سوى القليل

من المطر خلال السطح. وكان ذلك على أية حال فوق الأماكن التى لا يرغب أحد الجلوس فيها.

قال بيلون: هذا رائع. هل تذكر الليالى التى نمناها فى البرد؟ هذه هى الحياة التى ينبغى أن نحياها.

قال دانى: نعم، وإنه لأمر غريب. لم يكن لى بيت منذ سنوات. واليوم هأنذا أملك بيتين. أنا لا أستطيع أن أنام فى منزلين.

وانتهز بيلون الفرصة وكان لا يحب تبديد الوقت. قال: كان هذا الموضوع نفسه يشغل تفكيرى. ثم أضاف مقترحا: لماذا لا تؤجر المنزل الآخر؟

ارتطمت قدما دانى على الأرضية بشدة. وصاح: - بيلون لماذا لم أفكر فى هذا الأمر ! وزادت الفكرة ألفة فى ذهنه: ولكن من يستأجره يا بيلون؟

أجاب بيلون: أنا أستأجره. سأدفع لك إيجارا شهريا مقداره عشرة دولارات.

رد عليه دانى فى إصرار: خمسة عشر. إنه منزل ممتاز ويستحق خمسة عشر دولارا شهريا.

وافق بيلون فى تذمر. والواقع أنه كان سيوافق على أكثر من ذلك، بعد أن لمس بنفسه مدى النشوة التى تنتاب الشخص الذى يعيش فى مسكنه الخاص، وكان بيلون يتوق إلى الإحساس بهذه النشوة.

اختتم دانى كلامه قائلا: اتفقنا إذن. ستستأجر أنت منزلى أوه، سأكون مالكا طيبا، يا بيلون. لن أضايقك.

ولم يكن بيلون يملك فى يوم من الأيام خمسة عشر دولاراً باستثناء العام الذى قضاه فى الجيش. ولكنه، قال لنفسه، إنه لابد من مضى شهر قبل أن يستحق عليه الإيجار، ومَنْ يدرى ما قد يحدث خلال الشهر.

وجعلا يتأرجحان فى رضا أمام النار، وبعد فترة خرج دانى للحظات قصار وعاد ببعض ثمار التفاح. وقال مبررا: كان المطر سيفسدها على أية حال.

ونهض بيلون، حتى لا يكون مقصرا، واشعل الشمعة، وذهب إلى غرفة النوم وعاد بعد لحظات بوعاء غسيل وجرة، وفازتين من الزجاج الأحمر وباقة من ريش النعام. وقال: ليس من الخير وجود أشياء قابلة للكسر بهذه الكثرة حولنا، كيلا نحزن إذا تحطمت. الأفضل ألا تكون فى حوزتنا مثل هذه الأشياء، ثم التقط الزهور الورقية من الحائط وقال مفسرا وهو يخرج من الباب: تحية إلى السنيورة توريللى.

وعاد بعد قليل، مبتلا من المطر، ولكن كان يبدو عليه الانتصار، وقد امسك فى يده إناء ممتلئا بالنبيذ الأحمر.

اشتبكا فى جدال حاد بعد ذلك، ولكن لم يهتم أحد منهما بمن تغلب فى الجدل، فقد كانا مرهقين بأحداث اليوم المثيرة.

وكانت الخمر قد بعثت فيهما النعاس، وسرعان ما ناما على الأرضية. وخمدت النار، وهبطت حرارة الموقد عندما برد. وانقلبت الشمعة فى زيتها الخاص وانتهت بلهيب صغير أزرق متمرد. وغرق المنزل فى الظلام والهدوء والسلام.



كيف سرى سم التملك فى نفس بيلون وكيف انتصر الشر عليه بعض الوقت

فى اليوم التالى ذهب بيلون ليقيم فى المنزل الآخر. كان يشبه بيت دانى تماما، غير أنه كان أصغر حجما. وكانت له أيضا أزهار قشطالة قرنفلية تغطى الفراندة. وكان له فناؤه المغطى بالأعشاب الطويلة، وأشجار الفاكهة العارية العجوز، وأزهار الجرانيوم الحمراء - وبجواره عشة دجاج السيدة سوتو.

لقد أصبح دانى رجلا عظيما، يملك منزلا للإيجار، كما أن بيلون قد صعد السلم الاجتماعى باستئجاره منزلا.

يصعب القول بما إذا كان فى ذهن دانى أن يقبض أى إيجار، أو كان فى نية بيلون أن يدفع أى شىء. ولو كان كذلك، لأصيب كلاهما بخيبة أمل. فالواقع أن دانى لم يطلب إيجاراً أبداً، كما أن بيلون لم يعرض عليه أية نقود أطلاقا.

كان الصديقان يعيشان معا فى أغلب الأحيان، دع بيلون يحصل على دن من الخمر أو قطعة من اللحم، فلا يلبث دانى أن يهبط لزيارته بكل تأكيد. وإذا كان دانى محظوظا أو ماكرا بنفس الطريقة، فإن بيلون يقضى معه ليلة صاخبة. وربما دفع بيلون المسكين النقود إذا حدث وكان معه شىء منها - لكن ذلك لم يحدث أبدا، إذ لم تبق معه النقود فترة طويلة حتى يلتقى بدانى، وكان بيلون رجلا أمينا. كان يقلقه أحيانا

التفكير فى طيبة دانى وفى فقره هو.

ذات ليلة كان معه دولار، حصل عليه بطريقة غريبة جدا إلى حد أنه حاول أن ينساها على الفور خشية أن يصاب بالجنون من ذكرها. فقد وضع رجل أمام فندق سان كارلوس الدولار فى يده، قائلا: أسرع وأحضر أربع زجاجات من بيرة الجنزيل. لقد نفدت من الفندق. ورأى بيلون أن مثل هذه الأمور تكاد تكون من المعجزات. ينبغى أن يأخذها المرء على محمل الثقة، فلا يقلق ولا يهتم بتحليلها. هكذا أخذ الدولار وذهب ليعطيه لدانى، لكنه أشترى فى الطريق جالونا من النبيذ، بالإضافة إلى أنه أغوى بالخمر فتاتين ممتلئتين وأصطحبهما معه إلى البيت.

وسمع دانى الضجة أثناء عبوره بجوار المنزل فدخل فرحانا. واندفع بيلون بين ذراعى دانى ووضع كل شىء تحت امرته. وفيما بعد - بعد أن أستطاع دانى أن يستمتع بإحدى الفتاتين وبنصف النبيذ - حدثت معركة رائعة حقا بينهما. فقد فيها دانى أحد أسنانه، وتمزق قميص بيلون. ووقفت الفتاتان تتفرجان على المعركة وهما تصرخان وترفصان مَنْ يقع منهما على الأرض. وأخيرا نهض دانى من فوق الأرض وضرب برأسه إحدى الفتاتين فى بطنها، فاندفعت خارج الغرفة فى نقيق كالضفدعة، أما الفتاة الأخرى فقد سرقت وعاءين من أوعية المطبخ وأسرعت فى أعقاب زميلتها.

بكى دانى لحظة على غدر النساء.

قال دانى فى رزانة: أنت لاتعرف ما هن النساء العاهرات.

أجاب بيلون: أنا أعرف.

- أنت لا تعرف .

- أنا أعرف.

- كاذب.

وهكذا نشبت معركة أخرى، لكنها لم تكن معركة رائعة.

بعد ذلك شعر بيلون بشيء من الاطمئنان من جهة الإيجار غير المدفوع. ألم يستضف مالك بيته؟

ومرت عدة شهور. وبدأ بيلون يقلق من جديد بسبب الإيجار وكما مرت الأيام أصبح القلق لا يطاق. وفى النهاية، وفى لحظة يأس ، اشتغل يوماً كاملاً فى تنظيف أسماك تشين كى وخرج من ذلك بدولارين. وفى المساء ربط منديله الأحمر حول عنقه، ووضع على رأسه قبعة والده الوقور وراح يصعد التل ليدفع لدانى الدولارين تحت الحساب.

ولكنه اشترى أثناء الطريق جالونين من النبيذ. قال لنفسه: هذا أفضل. لأنى لو أعطيت صديقى نقودا، فأنها لن تعبر عن مدى المودة التى أشعر بها نحوه. لكنها الهدية الآن. وسوف أخبره بأن قيمة الجالونين خمسة دولارات، كان هذا سخيفا. وكان بيلون يعرف ذلك، ولكنه تساهل مع نفسه. فلم يكن هناك فى مونترى من هو أكثر دراية بأسعار الخمر من دانى.

كان بيلون يتقدم فى سعادة. لقد استقر رأيه، واتجهت أنفه مباشرة نحو منزل دانى. كانت قدماه تتحركان، فى بطء ولكن فى حزم، فى الاتجاه السليم. وقد حمل تحت كل ذراع حقيبة من الورق، وفى كل حقيبة جالون من النبيذ.

كان ذلك فى غبشة المساء الأرجوانية، تلك الفترة العذبة حيث ينتهى نعاس النهار، بينما لم تبدأ بعد أمسية المتعة والحديث. كانت أشجار الصنوبر داكنة جدا فى مواجهة السماء وكانت كل الأشياء على الأرض متسربلة بالظلام، بينما السماء ساطعة فى أسى كالذكرى، وكانت طيور النورس تطير فى كسل عائدة إلى صخور البحر بعد قيامها أثناء النهار بزيارة مصانع تعليب السمك فى مونترى.

كان بيلون يعشق الجمال، وكان صوفيا. رفع وجهه إلى السماء وطارت روحه من جسده لتجرى وراء الغسق. لم يكن هذا الذى يدب فى بطء هو بيلون نفسه ، الذى يتآمر ويتشاجر ، الذى يسكر ويسب ويلعن، لكنه

بيلون المتأمل المتفتح الذى ذهب إلى النوارس البحرية حيث تستحم بأجنحتها الحساسة فى المساء. كان هذا بيلون جميلا، لاتشوب أفكاره أنانية أو شهوة. ومن الجدير معرفة أفكاره.

كان يفكر هكذا: أبانا فى السماء. هذه الطيور تطير عبر جبهة الأب. أيتها الطيور العزيزة، أيتها النوارس العزيزة، كم أحبك جميعا. إن أجنحتك البطيئة تهدهد قلبى، كما تهدهد يد المسيح رءوس الأطفال الصغار. أيتها الطيور العزيزة. طيرى إلى مولاتنا ذات الأحزان العذبة مع قلبى المفتوح. ثم قال أجمل ما كان يعرف من كلمات «بالأسبانية» إلى اللقاء يا مريم، شكرا جزيلا.

توقفت قدما بيلون الشرير عن الحركة، والحق أن بيلون الشرير قد توقف عن الوجود فى هذه اللحظة. (فلتسمع هذا، أيها الملك الذى تحصى عليه سكناته) لم يكن ولا كان ولن يكون هناك نفس أكثر نقاء من نفس بيلون فى تلك اللحظة. وتقدم كلب جالفت البولدج الشرس نحو ساقى بيلون المتباعدتين، وكان يقف وحده فى الظلام وتشمم الكلب بيلون ثم ابتعد دون أن يعض ساقيه.

إن النفس التى اغتسلت وانقذت يكون تعرضها للخطر مضاعفا و لأن كل شىء فى العالم يتآمر ضد مثل هذه النفس. يقول القديس أوغسطين: «حتى القش الذى تحت ركبتى يزعق لينتزعنى من الصلاة.»

وكانت نفس بيلون سريعة التأثر حتى من ذكرياته الخاصة، فبينما كان يراقب الطيور، تذكر أن السيدة باستانو تستخدم أحيانا طيور النورس البحرى فى عمل طبق التامال المكسيكى اللذيذ الطعم، وأثارت هذه الذكرى الجوع فى نفسه، وأسقط الجوع روحه من السماء، وتقدم بيلون، أصبح مرة أخرى مزيجا ماكرا من الخير والشر، والتفت إليه كلب جالفت البولدج الشرير وراح يعوى متجها نحوه، آسفا على أنه أفلت تلك الفرصة الذهبية لعض ساقى بيلون.

وأسند بيلون ذراعيه إلى ظهره ليخفف من ثقل الزجاجات.

من الحقائق المؤكدة المسجلة فى كثير من التواريخ أن النفس القادرة على أعظم خير تكون أيضا قادرة على أكبر شر. إذ مَنْ هو أكثر إلحادا من قسيس ارتد عن دينه؟ ومَنْ هى أكثر شهوانية ممن كانت عذراء إلى وقت قريب؟ على أية حال ربما كان هذا أمرا يتعلق بالمظهر.

ما أن عاد بيلون من السماء حتى أصبح - دون أن يدرى - يدرك كل همسة ريح عاتية، ويستجيب لكل مؤثر شرير يعج به الليل الذى يحيط به. حقا أن قدميه ظلتا تتحركان نحو بيت دانى، ولكن كانت تنقصهما الإرادة واليقين. كانتا تنتظران أدنى إشارة لتنكصا على عقبيهما. وما لبث بيلون أن فكر: كم يكون فى مقدوره أن يسكر سكرا مذهلا لو شرب الجالونين من الخمر، وأكثر من هذا، المدى الذى يستطيع أن يظل خلاله ثملا.

والآن.. كانت الدنيا قد أظلمت تقريبا. لم يعد الطريق القذر واضحا، ولا الحفرات التى على جانبيه. ليس هناك نتيجة أخلاقية تستنتج من حقيقة إنه فى هذه اللحظة، عندما تأرجحت دوافع بيلون كالريشة، بين الكرم والأنانية، تصادف أن بابلو سانشيت كان جالسا فى الحفرة التى بجانب الطريق يحلم بسيجارة وزجاجة خمر.

آه، كيف أن صلوات الملايين لابد أن تتصارع ويدمر بعضها بعضا وهى فى طريقها إلى عرش الله.

شعر بابلو فى أول الأمر بخطوات، ثم رأى شبحا ضبابيا ثم تعرف فيه على بيلون. صاح فى حماسة: أى صديقى، ما هذا الحمل الثقيل الذى تحمله؟

تجمد بيلون فى مكانه وواجه الحفرة. قال فى حدة: ظننت أنك فى السجن سمعت عن حكاية الأوزة.

قال بابلو مازحا: كنت هناك يا بيلون. لكنى لم استقبل استقبالا حسنا. قال القاضى إن الحكم لن يفيدنى، وقالت الشرطة إنى أكلت أكثر من الكمية المقررة لثلاثة رجال. ثم أنهى كلامه فى فخر: وهكذا تجدنى

مطلق السراح بكلمة شرف.

لقد أنقذ بيلون من الأنانية. صحيح أنه لم يأخذ الخمر إلى بيت دانى، ولكنه دعا بابلو فى الحال ليشاركه الشراب فى المنزل المستأجر. فإذا كان هناك طريقان للكرم يتفرعان من طريق الحياة العام، وليس فى الأمكان أتباع سوى طريق واحد، فمَنْ ذا الذى يحكم أيهما الأفضل.

ودخل بيلون وبابلو المنزل الصغير فى مرح. أشعل بيلون شمعة وقدم أناءين من أوانى الفاكهة لاستخدامهما كأقداح.

قال بابلو: فى صحتك!

رد بيلون «بالأسبانية»: فى صحتك!

وبعد دقائق معدودة قال بابلو «بالأسبانية»: فى صحتك.

قال بيلون: الوحل فى عينيك.

واستراحا قليلا. وقال بيلون بالأسبانية: خادمك.

رد بابلو: فى جحر الفأر.

إن جالونين مقدار هائل من الخمر، حتى بالنسبة لاثنين من الفلاحين. ومن الناحية الروحية يمكن أن يتدرج أثر أوعية الخمر كما يلى: تحت عنق الزجاجة الأولى تماما، محادثات جادة ومركزة، وعند

أخريات، أفكار عن الغرميات القديمة الممتعة. بوصة أخرى أفكار عن الغراميات القديمة المريرة. فإذا ما تناقصت الخمر حتى قاع الإناء الأول، كان الحزن العام الذى لا يسير فى خط معين. عند عنق الزجاجة الثانية، قنوط أسود غير مقدس. أصبعين إلى أسفل، أغنية موت أو اشتياق. أصبح إبهامى أى أغنية أخرى يعرفها كل منهما. وعند هذا الحد

لأنه عند هذه المرحلة قام بيلون بتوجيه ضربته ، قال: بابلو، ألم تتعب أبدا من النوم فى الحفرات، مشردا فى الرطوبة، وحيدا بلا أصدقاء؟

أجاب بابلو: لا.

رق صوت بيلون محاولا اقناعه: هكذا كنت اعتقد، يا صديقى، عندما كنت شريدا قذرا، كنت أنا أيضا راضيا، لأنى لم أكن أعرف مدى الجمال فى بيت صغير، وسقف، وحديقة. آه يا بابلو هذه هى الحياة حقا.

وافق بابلو قائلا: هذا رائع جدا.

وهنا انقض بيلون: اسمع يا بابلو، هل تحب أن تستأجر جزءا من منزلى؟ لن تشعر بالأرض الباردة بعد ذلك، ولا بالرمل الخشن تحت مرسى السفن حيث تدخل الكابوريا إلى حذائك، أتحب أن تعيش معى هنا؟.

أجاب بابلو: بالتأكيد.

أسمع، سوف تدفع خمسة عشر دولارا فقط فى الشهر! وسوف تستغل المنزل كله ما عدا سريرى، وكل الحديقة. فكر فى الموضوع، يا بابلو! وإذا شاء أحد أن يكتب لك خطابا سوف يجد العنوان الذى يرسل إليه الخطاب.

أجاب بابلو: بالتأكيد. هذا رائع.

تنهد بيلون بارتياح. لم يكن يعرف كيف كان الإيجار المستحق لدانى يثقل كتفيه. أما الحقيقة التى كان على يقين تام منها وهى أن بابلو لن يدفع إيجارا أبدا فإنها لم تخفف من حدة انتصاره. لو حدث أن طالب دانى بالإيجار، يستطيع بيلون أن يقول له: سأدفع لك عندما يدفع بابلو.

وهكذا انتقلا إلى المرحلة الثانية من السكر. وتذكر بيلون كم كان سعيدا عندما كان طفلا صغيرا، لم تكن هناك مسئولية آنذاك، يا بابلو. لم أكن أعرف الخطيئة. كنت سعيدا جدا.

وقال بابلو مؤيدا فى حزن: لم نشعر بطعم السعادة أبدا منذ ذلك الحين.



٤

كيف أصبح يسوع ماريا كوركوران الرجل الطيب، مطية للشر رغم أنفه

مضت حياة بيلون وبابلو فى يسر. فى الصباح عندما تصعد الشمس وتتجلى من بين أشجار الصنوبر، وعندما تترقرق مياه الخيلج الأزرق وتتلألأ تحت هذه الأشجار، وينهضان من سريريهما فى بطء وتأمل.

الصباح المشمس، انه الفرح الهادىء، حيث يكون الندى اللامع على نبات الخبيزة، كل ورقة تحوى جوهرة جميلة إن لم تكن غالية. ليس هذا وقت السرعة أو اللغط، لأن الأفكار فى الصباح تكون بطيئة عميقة ذهبية.

وفى زمالة مشى بابلو وبيلون فى سرواليهما وقميصيهما الأزرقين نحو المصرف الذى خلف البيت، وبعد قليل عادا للجلوس فى الشمس فى الفراندة الأمامية، لينصتا إلى أبواق مصانع السمك فى شوارع مونترى، وليناقشا فى صوت ناعس متمهل ما يجرى فى منطقة تورتيلا فلات، لأن هناك فى تورتيلا فلات ألف مشكلة فى كل يوم تمر بالعالم.

كانا يجلسان فى سلام فى الفراندة، وكانت أصابع أقدامهما هى فقط التى تتحرك على الخشب الدافىء عندما يحط الذباب عليها.

قال بابلو: لو كان كل الندى من الماس، لأصبحنا أغنياء جدا. كنا نظل سكارى طوال حياتنا.

غير أن بيلون الذى حلت عليه لعنة الواقعية بلا رحمة أضاف قائلا: سيحصل كل إنسان عندئذ على الكثير من الماس. وبذلك لا يصبح له

قيمة، بينما النبيذ يكلف مالا دائما، لو كانت السماء تمطر خمرا فقط لمدة يوم، الآن، وكان لدينا خزان نملؤه من هذا المطر.

واعترض بابلو قائلا: على أن يكون نبيذا جيدا، وليس نبيذا رديئا كالذى جلبته فى آخر مرة.

قال بيلون: لم أدفع مقابله شيئا. كان أحدهم يخفيه بين الأعشاب بالقرب من صالة الرقص. ماذا تتوقع من نبيذ تجده بهذه الطريقة؟.

كانا جالسين وأيديهما تتحركان فى ضيق نحو الذباب. قال بيلون: مزقت كورنيليا رويث المكسيكى الأسود أمس.

رفع بابلو عينيه فى شىء من الاهتمام وسأل: معركة؟؟

- أوه لا، لم يكن الرجل الأسود يعرف أن كورنيليا قد جلبت أمس رجلا جديدا، وحاول أن يدخل. وهكذا مزقته كورنيليا.

قال بابلو بدافع من الفضيلة: كان ينبغى أن يعلم.

- كان قد نزل إلى المدينة عندما جلب كورنيليا رجلها الجديد. لم يفعل الرجل الأسود سوى أنه حاول الدخول من النافذة عندما أغلقت الباب.

قال بابلو: الرجل الأسود أحمق. هل مات؟

- أوه، لا. لقد جرحته فقط جرحا بسيطا فى ذراعيه، لم تكن كورنيليا غاضبة. كانت فقط لا ترغب فى دخول الأسود.

قال بابلو: ليست كورنيليا امرأة رصينة تماما. لكن لا يزال لديها أناس يرتلون الترانيم القدسية من أجل والدها، الذى مات منذ عشر سنوات.

وعقب عليه بيلون: سوف يحتاج إلى هذه الترانيم. فقد كان رجلا سيئا لم يدخل السجن أبدا عقابا على ما ارتكبه، كما أنه لم يذهب مطلقا للكنيسة للاعتراف. عندما كان رويث العجوز يحتضر، حضر القسيس لمواساته، فاعترف رويث. وتقول كورنيليا إن لون القسيس عندما خرج من حجرة المريض كان أبيض فى لون جلد الغزال. ولكن ذلك القسيس قال فيما بعد: إنه لم يصدق نصف الاعترافات التى نطق بها رويث.

قتل بابلو ذبابة حطت على ركبته بضربة كضربة مخلب القط. وقال: كان رويث يكذب دائما. ستحتاج تلك الروح إلى كثير من الترانيم القدسية. ولكن هل تعتقد أن الترنيمة تكون صالحة إذا كانت النقود التى دفعت فيها قد انتزعت من جيوب الرجال وهم غارقون فى الخمر فى بيت كورنيليا؟

أجاب بيلون: الترنيمة هى الترنيمة. ان الرجل الذى يبيع لك الخمر لا يهمه من أين حصلت على النقود. كذلك الرب لا يهمه كيف جاءت الترنيمة. إنه يحبها فقط، كما تحب أنت الخمر. لقد اعتاد الأب مورفى أن يذهب لصيد السمك طول الوقت مما جعل مذاق العشاء الربانى المقدس يشبه مذاق السمك عدة شهور، ولكن هذا لم يجعله أقل قدسية. إن تفسير هذه الأمور من شأن القسس. وهى لا تهمنا فى شيء ترى من أين نستطيع أن نحصل على بعض البيض؟ لعل من المستحسن أن نأكل بيضة الآن.

أمال بابلو قبعته على عينيه حتى لا تضايقه الشمس وقال اخبرنى شارلى ميلر أن دانى مع روزا مارتن، تلك الفتاة البورتاجية.

اعتدل بيلون فى جلسته منزعجا: ربما تريد هذه البنت أن تتزوج دانى، هؤلاء البورتاجيات يردن الزواج دائما، ويعشقن النقود. ومن الجائز أن يضايقنا دانى بسبب الايجار بعد زواجهما. ستطلب روزا ملابس جديدة. هذا ما تفعله كل النساء. إننى اعرفهن.

بدأ الضيق أيضا على وجه بابلو. وقال مقترحا: ربما لو ذهبنا إلى دانى وتحدثنا معه.

قال بيلون: ربما وجدنا لديه بعض البيض. تلك الدجاجات التى تملكها السيدة موراليس تبيض جيدا.

وانتعلا حذاءيهما وسارا فى بطء نحو بيت دانى.

انحنى بيلون على الأرض والتقط غطاء زجاجة بيرة ثم ألقاه وهو يلعنه. وقال: لقد ألقاه هناك شخص شرير ليخدع الناس به.

رد عليه بابلو: لقد خدعت به الليلة الماضية ونظر إلى فناء نضجت

فيه سنابل القمح الخضراء، وأبدى ملاحظة عقلية على نضوجها.

ووجدا دانى جالسا فى الفراندة الأمامية وراء تعريشة الورد، محركا أصابع قدميه ليطرد عنه الذباب حياهما فى فتور: أهلا، أيها الصديقان.

جلسا بجواره وخلعا قبعتيهما وحذاءيهما. أخرج دانى علبة دخان وبعض الورق وناولهما لبيلون، وقد بدأ على بيلون شيء من الدهشة، ولكنه لم يعلق بشيء.

قال بيلون: مزقت كورنيليا رويث المكسيكى الأسود.

رد دانى: سمعت بذلك.

وتكلم بابلو فى حدة: هؤلاء النسوة، لم تعد فيهن فضيلة.

أضاف بيلون: إن من الخطر مضاجعتهن. سمعت أن فتاة بورتاجية شابة هنا فى منطقة فلات وهى تمنح الشخص شيئا ما يذكره بها، إذا كلف نفسه بالحصول عليها.

أصدر بابلو بلسانه أصواتا معترضة. ومد يديه أمامه وتساءل: ماذا يفعل المرء، أليس هناك أحد يوثق به؟

كان بيلون وبابلو يراقبان وجه دانى، لم يلحظا عليه أى إنزعاج.

قال بيلون: اسم الفتاة هو روزا. لا أذكر بقية اسمها.

أجاب دانى بشيء من اللامبالاة: أوه، تقصد روزا مارتن، حسن، ما الذى تستطيع أن تنتظره من بورتاجية؟

تنهد بابلو وبيلون فى ارتياح.

وسأل بيلون بطريقة عرضية: كيف حال دجاج السيدة موراليس؟

هز دانى رأسه فى حزن: لقد ماتت جميعها. وضعت السيدة موراليس بعض اللوبيا فى جرار، وكسرت هذه الجرار وأكلت الدواجن اللوبيا، فماتت كلها.

وسأل بابلو: اين تلك الدواجن الآن؟

حرك دانى أصبعين إلى الخلف وإلى الأمام مستنكرا نصح شخص ما

السيدة موراليس بعدم أكل تلك الدواجن وإلا أصابها المرض، ولكننا استخرجنا الأجزاء السليمة وبعناها للجزار.

سأل بابلو: وهل مات أحد؟

- لا، إننى أخمن أن كل هذه الدواجن سليمة.

قال بيلون موحيا: ربما اشتريت بعض النبيذ بالنقود التى حصلت عليها من تلك الدواجن؟

ابتسم له دانى بخبث وقال: هذا ما فعلته السيدة موراليس، وذهبت أنا إلى بيتها الليلة الماضية. إنها سيدة جميلة من بعض الوجوه، كما أنها ليست عجوزا جدا.

عاد الإحساس بالانزعاج يستولى على بيلون وبابلو.

قال بيلون منفعلا: (ويلى) ابن عمى يقول إنها فى الخمسين من عمرها.

مد دانى يديه وأجاب متفلسفا: ماذا يعنى ما بلغته من العمر؟ إنها مليئة بالحياة تلك المرأة. وهى تملك منزلها كما تملك مائتى دولار فى البنك وهنا بدأ على دانى شىء من الحرج وهو يقول: إننى أود أن أقدم هدية إلى السيدة موراليس.

نظر بيلون وبابلو إلى موضع أقدامهما، وحاولا أن يتجنبا بمجهود عقلى شديد النتيجة المترتبة على ذلك، ولكن جهودهما ذهبت سدى.

وقال دانى: لو كان لدى شىء من النقود. كنت أشترى لها علبة من الحلوى الغالية ثم نظر - نظرة لها مغزى - إلى مستأجريه. لكن أحدا منهما لم يرد عليه. فاستطرد قائلا: إننى فى حاجة إلى دولارين فقط.

أجاب بيلون: إن شين كى يجفف السمك. ربما تستطيع أن تعمل نصف يوم فى تقطيع السمك لديه.

وتكلم دانى بطريقة مباشرة: لا يبدو من اللائق أن يعمل رجل يمتلك منزلين فى تقطيع الأسماك. ولكن ربما لو حدث وتلقيت إيجارا بسيطا...

هب بيلون واقفا فى حنق وصاح: الإيجار دائما. تريد أن تدفع بنا إلى الشارع - إلى القنوات، بينما تنام أنت فى سريرك الناعم ثم أضاف فى

غضب: تعال يا بابلو، سوف نجلب المال لهذا السيد، لهذا اليهودى.

خرج الرجلان فى بطء وكبرياء.

سأل بابلو: من أين نحصل على النقود؟

أجاب بيلون: لا أدرى. ربما لا يطالبنا مرة أخرى لكن المطالبة غير الإنسانية تركت أثرا عميقا على صفائهما الذهنى.

قال بيلون: سوف نطلق عليه اليهودى العجوز عندما نراه نحن أصدقاؤه منذ عدة أعوام. عندما كان محتاجا، أطعمناه.، عندما كان عاريا، كسيناه.

سأل بابلو: ومتى كان ذلك؟

- حسن، كنا نفعل ذلك، لو احتاج إلى شىء نملكه. لقد كانت صداقتنا له على هذا النحو. والآن يسحق صداقتنا فى الأرض من أجل علبة من الحلو الغالية يريد منحها لامرأة عجوز ممتلئة.

قال بابلو: الحلوى تضر الناس.

وانهكت كثرة الانفعال بيلون، فجلس فى حفرة بجانب الطريق ووضع ذقنه بين يديه وقد ارتسمت على وجهه الكآبة.

جلس بابلو هو الآخر، ولكنه فعل ذلك ليستريح فقط لأن صداقته لدانى لم تكن قديمة جميلة كصداقة بيلون له.

كان قاع الحفرة مليئا بالأعشاب والنباتات الجافة. وبينما كان بيلون يحدق إلى أسفل فى حزن وحنق، شاهد ذراعا بشرية بارزة من تحت شجيرة. ووجد بجوار الذراع زجاجة بها نصف جالون من الخمر، وتشبثت يده بذراع بابلو وهو يشير.

حملق بابلو: ربما كان ميتا، يا بيلون.

استعاد بيلون أنفاسه ورؤيته الواضحة الجميلة مرة أخرى: لو كان ميتا، فإن الخمر لن تنفعه. إنه لا يستطيع أن يدفن معها.

وتحركت الذراع، فأزاحت عنها النباتات المتشابكة، وكشفت عن وجه يسوع ماريا كور كوران المغبر وعن لحيته المختلطة ببقايا نبات الحنطة.

وقال بطريقة غائمة: أهلا بيلون، أهلا بابلو ماذا تريدان؟

قفز بيلون إليه: صديقى يسوع ماريا! هل بك شىء!

ابتسم يسوع ماريا بعذوبة وهمهم وهو ينهض على ركبتيه: ثمل فقط، أقبلا أيها الصديقان واشربا، اشربا بعمق. فهناك المزيد من النبيذ.

أمال بيلون الزجاجة على مرفقه. وابتلع أربع جرعات حتى أنه لم يترك فى الزجاجة سوى القليل. وعندئذ أخذ بابلو منه الزجاجة، ولعب بها بابلو كما يلعب القط بالريشة. ومسح فم الزجاجة بكمه، وشم النبيذ. وأخذ ثلاث أو أربع رشفات استطلاعية تاركا بضع قطرات تنسال حول فمه، ليغرى نفسه. ثم قال أخيرا بالأسبانية: يا أم الآلهة ياله من نبيذ! ورفع الزجاجة وكركر النبيذ الأحمر بسعادة داخل حلقه.

وامتدت يد بيلون قبل أن يستعيد بابلو أنفاسه بزمن وتحول بيلون إلى صديقه يسوع ماريا بوجه ينم عن الرضا والإعجاب. وسأله: هل اكتشفت كنزا فى الغابة؟ هل مات أحد الرجال العظماء، وذكر اسمك فى وصيته، ياصديقى العزيز؟

كان يسوع ماريا رجلا محبا للإنسانية، ميالا للكرم دائما. تجشأ ليجلو صوته وبصق. قال: أعطنى جرعة، حلقى جاف. سأخبرك كيف حدث الأمر. وراح يشرب بطريقة حالمة، كرجل يملك الكثير من الخمر إلى حد أنه يستطيع أن يستغرق فى شرابه ما شاء من الوقت، بل يستطيع حتى أن يريق شيئا منه دون ندم. قال: كنت نائما على الشاطئ بجوار البحر منذ يومين. وفى الليل جرفت الأمواج الصغيرة قاربا إلى الشاطئ.. أوه قارب صغير جميل، وكان به مجدافان. صعدت إليه ورحت أجدف نحو مونترى وكان هذا القارب ببساطة يساوى عشرين دولارا، ولكن الأمر لم يكن على ما يرام، لذا حصلت على سبعة دولارات فقط.

سأل بيلون منفعلا: أليست معك بقية النقود؟

أجاب يسوع ماريا بشىء من الاعتداد: هأنذا أقص عليك ما حدث.

اشـتـريت جـالـونين من النـبـيـذ وأحـضـرتـهـمـا إلى الـغـابـة هنا، ثم ذهبت لاصطحـاب أرابيـلا جـروس. اشـتـريت لـهـا زوجـا من الملابس الـداخليـة الحريرية من مونترى. وعقد أعجبت هـى بهما - كانا ناعمين جدا لونهما قـرنفلى زاه. ثم اشـتـريت قليـلا من الوسكى لأرابيـلا، وبعد لحظة التقينا ببعض الجنود فذهب أرابيلا معهم.

صاح بيلون فى فزع: أوه، سارقة نقود الرجل الطيب!

قـال يسوع مـاريا حـالما: لا، كان مـيعـاد ذهـابها قـد حـان على أية حـال. وبعدئذ حضرت إلى هنا ونمت.

- إذن ليس معك نقود أخرى؟

أجـاب يسـوع مـاريا: لا أدرى. سـوف أرى. وفتـش فـى جـيـبـه فـأخـرج أوراقا مالية متجمدة قيمتها ثلاثة دولارات ونصف.

قال: سـأشترى الليلة لأرابيـلا جروس أحد تلك الأشـيـاء الصغيرة التى تحيط بأعلى الجسم.

- تقصد الأكياس الحريرية المربوطة كل اثنين معا بشريط.

أجـاب يسوع مـاريا: نعم، وليس صـغيـرا كما قد تتصـور. وسعل ليجلو صوته.

شعـر بيلون فجأة بالقلق عليه وقال: إنه هواء الليل. ليس من الخير أن تنام فى العـراء. بابلو، تعـالى سوف نصطحبه معنا إلى بيتنا ونعالجه من هذا البرد. إن مرض الصدر يكون بسيطا فى بداية الأمر، لكننا سنشفيه منه.

قال يسوع ماريا: ما الذى تتكلم عنه؟ إننى بخير.

رد بيلـون: هكذا تظـن. وهكذا كـان رودلـفـو ؛ كـيلنـج يظن وقـد ذهبت أنت بنفسك إلى جنازته منذ شـهر، وهكذا كـانت انجلينا فـاسكويث تظن. وقد ماتت الأسبوع الماضى.

ارتعد يسوع ماريا: ماذا تظن فى الأمر؟

أجاب بيلون بحكمة: لن تتحمل رئتاك النوم فى العراء ليلا.

لف بابلو زجاجة النبيذ فى بعض الأعشاب ليخفى حقيقتها عن الأنظار بحيث لو رآها عابر لأنهكه التفكير قبل التوصل إلى معرفة ما تحتويه هذه اللفة من الأعشاب.

مشى بيلون إلى جوار يسوع ماريا، يتحسسه تحت مرفقه بين لحظة وأخرى ليذكره أنه ليس على مايرام. وأخذاه إلى منزلهما ووضعاه على سرير، وبالرغم من أن اليوم كان دافئا، فقد وضعا عليه ملاءة سرير قديمة. وتحدث بابلو بطريقة مؤثرة عن أولئك الفقراء الذين يتعذبون ويقاسون من مرض الصدر. وبعدئذ أضفى بيلون العذوبة على صوته وهو يتحدث باحترام عن متعة العيش فى منزل صغير. وعندما مضى أغلب الليل، وعندما انتهت كل الأحاديث والخمر، وتعلق الضباب فى الخارج بالأرض كاشباح ديدان ضخمة عندئذ لم يخرج أحد لينام فى رطوبة المصرف التى تبعث المرض لا، إنما ذهب كل منهم إلى سرير دافىء ناعم وثير ونام كطفل صغير.

قام يسوع ماريا عند هذه النقطة. وكان على بابلو وبيلون أن يوقظاه ويعطياه جرعة من الشراب، ثم تكلم بيلون بطريقة مؤثرة عما يحدث فى الصباح عندما يظل المرء راقدا فى عشه الدافىء حتى تعلو الشمس وتكون ذات فائدة - ولا يضطر المرء إلى التجول مرتجفا فى الفجر، ويعض يديه حتى لا تتجمدا.

فى النهاية تقدم بيلون وبابلو نحو يسوع ماريا كما يلتقى كلبان من كلاب الصيد حول ضحيتهما. وعرضا عليه استغلال منزلهما بإيجار مقداره خمسة عشر دولارا فى الشهر. ووافق يسوع على ذلك فى سعادة. وتصافحوا جميعا. وخرجت زجاجة الخمر من بين الأعشاب التى كانت تلفها. شرب بيلون بعمق. فقد كان يعلم أن أمامه الآن أشق مهمة، عرض الأمر برقة بالغة وبطريقة عرضية بينما كان يسوع ماريا يشرب من الزجاجة

- وستدفع الآن ثلاثة دولارات فقط تحت الحساب.

أنزل يسوع ماريا الزجاجة عن فمه ونظر إليه فى رعب. وانفجر قائلا: لا. لقد وعدت أرابيلا جروس أن أشترى لها أحد تلك الأشياء الصغيرة. سأدفع الإيجار عندما يحين أجله.

أدرك بيلون أنه قد أخطأ «عندما رقدت على ذلك الشاطىء بجوار البحر. بعث الله إليك القارب الصغير. هل تعتقد أن الرب المبارك قد فعل ذلك لتتمكن أنت من شراء ملابس داخلية حريرية لامرأة قذرة من نساء تعليب الأسماك؟ لا! لقد فعل الله ذلك حتى لا تموت من النوم على الأرض فى العراء. هل تظن أن الله مهتم بنهدى أرابيلا؟» واستطرد قائلا: أضف إلى ذلك أننا سنأخذ دولارين كتأمين. لأنك تستطيع أن تحصل بدولار على شىء من تلك الأشياء الكبيرة التى تكفى لرفع ثديى بقرة.

لكن يسوع ماريا ظل يعترض.

استطرد بيلون: سأخبرك. ما لم ندفع لدانى دولارين سوف نلقى جميعا فى عرض الطريق، وستكون غلطتك أنت. ستحمل ضميرك غلطة نومنا فى الحفرات.

وتحت كل هذه الضربات، التى انهالت من كل ناحية، استسلم يسوع ماريا كوركوران. وأعطى بيلون ورقتين مجعدتين كل منهما بدولار.

والآن ذهبت حدة الانفعال من الحجرة. وحلت محلها زمالة عميقة كلها سلام وهدوء ودفء. واسترخى بيلون، وأعاد بابلو الملاءة إلى سريره، وانطلقت بينهم الأحاديث.

- ينبغى أن نعطى هذه النقود لدانى.

كانت شهيتهم الأولى قد ضاعت، فراحوا يرشفون الآن الخمر من أوانى الفاكهة.

سأل يسوع ماريا: ما هى حاجة دانى الملحة إلى الدولارين؟

شعر بيلون بمزيد من الثقة. تحركت يداه على شكل فراشتين، لا يقيدهما عن الطيران إلى الخارج سوى معصميه وذراعيه. «صديقنا

دانى مشغول بالسيدة موراليس. أوه، لا تظنّ أن دانى أحمق. أن السيدة موراليس تملك مائتى دولار فى البنك. ويريد دانى أن يشترى علبة من الحلوى الغالية للسيدة موراليس».

أبدى بابلو ملاحظته: الحلوى تضر الناس. إنها تصيب أسنانهم بالألم.

قال يسوع ماريا: هذا الأمر متروك لدانى، إذا كان يريد أن يؤلم أسنان السيدة موراليس. فهذا شأنه. ما الذى يعنينا من أسنان السيدة موراليس؟

واستقرت سحابة قلق على وجه بيلون. واعترض بحدة:

- ولكن إذا كان صديقنا دانى سيأخذ حلوى غالية. إلى السيدة موراليس، فإنه سوف يأكل منها أيضا. إذن فهى أسنان صديقنا التى ستصاب بالألم.

هز بابلو رأسه فى قلق: انه لأمر سيىء أن يقوم أصدقاء دانى، الذين يعتمد هو عليهم، بالعمل على إصابة أسنانه بالألم.

سأل يسوع ماريا: ماذا نعمل إذن؟ وبالرغم من أنه يعرف تماما هو وكل شخص ما الذى سيفعلونه فإنهم صمتوا جميعا فى أدب، كل منهم ينتظر أن يتقدم الآخر بالاقتراح المحتوم، وامتد الصمت، شعر بيلون وبابلو أن الاقتراح لا ينبغى أن يصدر من جانبهما، لأنه ربما يؤول هذا، بشىء من المنطق، على أنهما صاحبا المصلحة فى الأمر.

وظل يسوع ماريا صامتا عملا بالواجب نحو مضيفيه، ولكن عندما جعله صمتهما يدرك ما هو مطلوب منه، قام فى الحال بسد الثغرة. اقترح بصوت ملىء بالتأمل: ان جالونا من النبيذ يعد هدية رائعة لسيدة.

واندهش بيلون وبابلو لذكائه..

- فى مقدورنا أن نخبر دانى أنه قد يكون من الأفضل بالنسبة لأسنانه أن يشترى الخمر.

- ولكن ربما لا يعير دانى أهمية لتحذيرنا إياه، لو أعطيت النقود

لدانى هذا، فلن تستطيع أن تعرف ما سوف يفعل بها. ربما اشترى حلوى رغم كل شىء، وعندئذ يذهب سدى كل مابذلناه من وقت واهتمام به.

لقد جعلا من يسوع ماريا منبع خططهما، وفاتح المواقف الصعبة. قال مقترحا: لو اشترينا الخمر بأنفسنا وأعطيناها لدانى، ربما لا يكون هناك ضرر.

صاح بيلون: هذا هو الحل، لقد توصلت إليه الآن.

ابتسم يسوع ماريا فى تواضع إذ أصبح رأيه موضع ثقتهما. وشعر بأن هذا المبدأ كان من الممكن أن يعلنه شخص ما فى الغرفة إن آجلا أو عاجلا.

صب بابلو آخر قطرة خمر فى أوانى الفاكهة وراحوا يشربون فى تعب بعد المجهود الذى بذلوه. شعروا بالفخر إذ توصلوا إلى هذه الفكرة بهذا المنطق، وبمثل هذا الدافع الإنسانى الخيرى.

قال بابلو: أنا جوعان الآن.

نهض بيلون وذهب إلى الباب وتطلع إلى الشمس وقال: إننا الآن بعد الظهر. سنذهب بابلو وأنا إلى حانة توريللى لجلب الخمر، بينما تذهب أنت يا يسوع ماريا إلى مونترى للحصول على شىء من الخبز من مكان ما.

- أفضل الذهاب معكما. هكذا أجاب يسوع ماريا وقد شعر بأن ثمة فكرة قد بدأت تنمو فى ذهنى صديقيه، بنفس المنطق، وبنفس الطريقة المحتومة.

ردا عليه فى إصرار: لا، يا يسوع ماريا، الساعة الآن الثانية تقريبا، وبعد ساعة تكون الثالثة، حينئذ سنلتقى بك هنا. ويكون لدينا شىء ما للأكل. وربما زجاجة صغيرة من الخمر بجانبه.

مشى يسوع ماريا متجها نحو مونترى فى تردد شديد، بينما مضى بابلو وبيلون فى سعادة يهبطان التل فى طريقهما إلى حانة توريللى.



كيف قلب القديس فرانسيس الأمور وأنزل على بيلون وبابلو ويسوع ماريا عقابا خفيفا

هبط الأصيل فى خفة كما يهبط العمر على رجل سعيد، واكتسى ضوء الشمس بظل من الذهب. وزادت زرقة الخليج وترقرقت مياهه، وتماوجت برياح الشاطىء. وغادر الصخور أولئك الصيادون الفرادى الذين يعتقدون أن السمك يأتى مع المد، واحتل أمكنتهم آخرون يعتقدون أن السمك يأتى مع الجزر.

فى الساعة الثالثة دوارت الريح وهبت فى هدوء من ناحية الخليج، حاملة معها روائح أعشاب البحر بأنواعها العطرة. ووضع العمال الذين يصلحون الشباك فى الأماكن الخالية من مونترى مغازلهم جانبا وأخذوا يلفون السجائر، وراحت السيدات السمينات، اللاتى يبدو فى عيونهن الضجر والحكمة التى غالبا ما يراها المرء فى عيون الخنازير، يتدحرجن خلال شوارع البلدة فى عربات منهوكة فى اتجاه البحر كما بدأت كئوس الجن تفور فى فندق ديل مونتى. وفى شارع الفارادو وضع هوجر ماشادو الترزى لافتة على باب دكانه كتب عليها: سأعود فى ظرف خمس دقائق. وذهب إلى البيت طول اليوم، وتماوجت أشجار الصنوبر فى بطء ودلال. وانبعثت أصوات الدجاج الوديعة فى مئات الحظائر تشكو من سوء مصيرها.

جلس بيلون وبابلو تحت شجرة ورد القشطالة القرنفلى فى فناء توريللى، وراحا يشربان الخمر فى هدوء تاركين الأصيل ينمو عليهما فى

بطء أشبه بنمو الشعر شيئا فشيئا.

قال بيلون: جميل أننا لم نأخذ جالونين من النبيذ إلى دانى فهو رجل لا يعرف التحكم فى شرابه.

وافق بابلو قائلا: إن دانى تبدو عليه الصحة. بينما يوجد هناك مثل أولئك الناس الذين نسمع بموتهم كل يوم. انظر إلى رودلفو كيلنج. انظر إلى إنجلينا فاسكويث.

وطفت واقعية بيلون إلى السطح بهدوء فعلق بشىء من اللوم الوادع: لقد سقط رودلفو فى المحجر فوق «باسيفيك جروف»، أما إنجلينا فقد تناولت علبة سمك فاسد. ثم أضاف برقة: ولكننى أدرك ماذا تعنى. ولقد مات كثير من الناس بسبب عدم اعتدالهم فى شرب الخمر.

بدأت مونترى كلها تتأهب شيئا فشيئا لمواجهة الليل باستعدادات غريزية. أضاف روبرت هوجان بائع المشروبات الروحية الماء إلى الجن ووضع جانبا لتقديمه بعد منتصف الليل، كما وضع قليلا من الفلفل فى ويسكى أول المساء. وفى صالة رقص آل باسيو فتحت بوليت روزيندال علبة الكارتون التى بها أدوات الزينة ورتبتها فى شريط سميك بنى اللون على لوحات الترحيب الكبيرة. ورفعت شركة الأدوية الخيمة التى تحجب الشمس. أما المجموعة الصغيرة من الرجال التى أمضت فترة بعد الظهر أمام مكتب البريد، تحمى أصدقاءها، فقد تحركت نحو المحطة لمشاهدة أكسبريس ديل مونتى القادم من سان فرانسسكو. وطارت النوارس البحرية المتاخمة من شاطىء تعليب السمك متجهة نحو صخور البحر.وتزاحمت صفوف من البجع فى إصرار فوق المياه حينما ذهبت لقضاء الليل. وعلى قوارب الصيد الصغيرة نشر الإيطاليون شباكهم فوق الاسطونات الكبيرة. أما الآنسة الصغيرة ألما الفاريث، التى تبلغ التسعين من عمرها، فقد حملت باقة الجرانيوم اليومية إلى العذراء بالحائط الخارجى لكنيسة سان كارلوس. والتقى أعضاء جمعية و. س. ت. ى. فى قرية باسيفيك جروف المجاورة المتدينة، لشرب الشاى وتبادل الرأى،

والإنصات إلى سيدة صغيرة تصف الرذيلة والبغاء فى مونترى بحيوية وإثارة. كانت تعتقد أنه ينبغى أن تقوم لجنة بزيارة تلك البؤر لتكون على بينة بمدى ماوصلت إليه الأحوال من تدهور. حقا كثيرا ما سمعوا عن هذه الحالة ولكنهم كانوا فى حاجة إلى حقائق جديدة.

اتجهت الشمس نحو الغرب وقد اكتست باللون البرتقالى الأزرق. وتحت تعريشة الورد فى فناء توريللى انتهى بيلون وبابلو من شرب الجالون الأول من النبيذ. خرج توريللى من منزله ومر بالفناء دون أن يرى الزبونين اللذين كانا لديه من قبل. انتظر بيلون وبابلو حتى اختفى توريللى عن البصر فى طريقه إلى مونترى ودخلا المنزل، واستطاعا من خلال خبرتهما الواعية بفنهما أن يحتالا على السيدة توريللى من أجل طعام العشاء. ضرباها على ردفيها وقالا عنها إنها «بطة سمينة» وسمحا لنفسيهما بشىء من حرية التغزل فيها، وأخيرا تركاها، منتفخة بالاطراء وقد انقلب كيانها بعض الشىء.

والآن حان المساء فى مونترى، وأضيئت الأنوار. ولمعت النوافذ فى هدوء. وبدأ مسرح مونترى يضىء بكلمات: «أطفال الجحيم» المرة تلو المرة. وعلى صخور البحر الباردة وقفت مجموعة رجال صغيرة وإن كانت متحمسة ممن يعتقدون أن الأسماك تأتى فى المساء فوق صخور البحر الباردة. وطافت قطعة ضباب صغيرة خلال الشوارع وتعلقت بالمداخن، وعبق الجو برائحة زكية لخشب صنوبر يحترق.

عاد بابلو وبيلون إلى تعريشة الورد وجلسا على الأرض، لكنهما لم يكونا سعيدين كما كانا من قبل، قال بيلون: الجو بارد هنا. وتناول جرعة من النبيذ ليدفىء نفسه.

قال بابلو: ينبغى أن نذهب إلى بيتنا حيث الدفء.

- ولكن ليس هناك حطب للموقد.

قال بابلو: حسن، لو أخذت أنت النبيذ، سوف ألحق بك عند ناصية الشارع، وقام بذلك فعلا، فى حوالى نصف ساعة.

انتظر بيلون فى صبر نافد، كان يعلم أن هناك بعض الأمور التى لا يملك حتى الأصدقاء شيئا إزاءها. وبينما كان بيلون ينتظر، ظلت عيناه متيقظتان على الطريق الذى اتخذه توريللى، فقد كان توريللى رجلا عنيفا لا تنفع معه الإيضاحات، مهما كانت متقنة وجميلة التعبير. كان بيلون يعرف، بالإضافة إلى ذلك، أن توريللى يعتنق المثالية المغامرة التى تتسم بها العلاقات الزوجية الإيطالية المبالغ فيها. لم تسفر مراقبة بيلون عن شىء. لم يعد توريللى إلى البيت فى وحشية، وبعد قليل لحق بابلو ببيلون، ولاحظ بيلون فى إعجاب ورضا أنه يحمل حزمة خشب صنوبر استولى عليها من كومة حطب توريللى.

لم يعلق بابلو بشىء على مغامرته الأخيرة حتى بلغا منزلهما. وعندئذ ردد كلمات دانى: ممتلئة بالحياة، تلك البطة السمينة.

أومأ بيلون برأسه فى الظلام وتكلم بفلسفة هادئة: من النادر أن يجد المرء كل الأشياء مجتمعة فى سوق واحد - خمر، طعام، حب، حطب، ينبغى أن نذكر توريللى يا بابلو يا صديقى. فهو رجل جدير بالمعرفة. ينبغى أن نأخذ له هدية بسيطة يوما ما.

أشعل بيلون نارا متأججة فى الموقد المصنوع من حديد الزهر. اقترب الصديقان بمقعديهما وأمسكا بوعاءى الفاكهة بالقرب من النار حتى يسرى الدفء قليلا فى الخمر. كان الضوء فى هذه الليلة مقدسا، لأن بابلو اشترى شمعة ليوقدها من أجل سان فرانسسكو. غير أن شيئا ما قد استولى على تفكيره فشغله عن تنفيذ هذه الفكرة المقدسة. والآن تحترق فتيلة الشمعة الصغيرة بروعة فى قوقعة بحرية، فتلقى بظلام بابلو وبيلون على الحائط وتجعلها تتراقص.

قال بيلون: ترى أين ذهب ذلك اليسوع ماريا؟

قال بابلو: لقد وعد أنه سيعود منذ زمن طويل. لا أدرى إذا كان من الممكن الثقة بمثل هذا الرجل أم لا؟

- ربما حدث له أمر ما بسيط عطله، يا بابلو. إن يسوع ماريا، بتلك

اللحية الحمراء وذلك القلب الطيب يكاد يقع دائما فى ورطة ما مع السيدات.

قال بابلو: إنه فى عقل الجرادة. فهو يغنى ويلعب ويقفز وليس فيه جدية.

لم يكن أمامهما وقت للانتظار. وما كادا يشرعان فى شرب قنينة الخمر الثانية حتى دخل يسوع ماريا مترنحا. تعلق بجانبى الباب ليمسك نفسه عن الوقوع. كان قميصه ممزقا ووجهه غارقا فى الدم. وبدت إحدى عينيه سوداء بشعة على ضوء الشمعة المتراقص.

اندفع بابلو وبيلون نحوه: صديقنا. لقد أصابه مكروه. لقد سقط من فوق صخرة. لقد دهمه قطار!. لم يكن فى كلامهما أدنى سخرية، ولكن يسوع ماريا شعر بأن كلامهما يتضمن أقسى أنواع التهكم والسخرية. وحدق فيهما بعينه التى لا يزال بها بعض التبصر بأمثال هذه الأمور.

وقال: إن أميكما بقرتان بلا ضروع.

ارتد بيلون وبابلو فى رعب إلى الخلف من سوقية هذه الشتيمة.

- صديقنا حدث له شىء فى عقله.

- تحطمت عظمة رأسه.

- صب عليه قليلا من الخمر يا بابلو.

جلس يسوع ماريا عابسا بالقرب من النار وربت على قنينة الخمر، بينما انتظر صديقاه بصبر نافد تفسيرا للفاجعة غير أن يسوع ماريا بدأ كما لو كان يجد لذة فى تلهف صديقيه إلى معرفة محنته فتركهما ينتظران طويلا. وبالرغم من أن بيلون تتحنح ليجلو صوته عدة مرات، وبالرغم من أن بابلو تطلع إلى يسوع ماريا بعينين فيهما الاستعداد للتعاطف والإدراك، جلس يسوع ماريا عابسا يحملق فى الموقد والخمر والشمعة المقدسة، حتى دفع صمته السمج بيلون إلى أن يقابله فى نهاية الأمر بإهانة مماثلة. ولم يعرف فيما بعد كيف كان فى مقدوره أن يفعل ذلك.

أخيرا سأل: أهم أولئك الجنود مرة أخرى؟

زمجر يسوع ماريا: نعم. حضروا فى هذه المرة سريعا جدا.

- لابد أنه كان هناك عشرون منهم ليفعلوا كل هذا بك. هكذا علق بابلو، ليرفع من روح صديقه المعنوية. واستطرد قائلا: الجميع يعرفون أنك شجاع فى العراك.

فبدأ على يسوع ماريا حينئذ شىء من السرور.

قال: كانوا أربعة. وساعدتهم أرابيلا جروس أيضا. ضربتنى على رأسى بقطعة من الصخر.

شعر بيلون بموجة من الحنق الأخلاقى تثور فى نفسه. وقال فى حدة: لن أذكرك كيف حذرك أصدقاؤك من هذه المرأة المنحلة. وتساءل عما إذا كان قد حذر يسوع ماريا فعلا، وبدا أنه قد تذكر أنه فعل ذلك.

وانفجر بابلو: هاته النسوة البيضاوات الرخيصات شريرات، يا صديقى. ولكن هل أعطيتها ذلك الشىء الصغير الذى يحيط بصدر المرأة.

دفع يسوع ماريا يده فى جيبه وأخرج سوتيانا مجعدا من القماش الخفيف القرنفلى اللون. وقال: لم يكن الوقت قد حان. كنت على وشك أن أصل إلى هذه النقطة، أضف إلى هذا. إننا لم نكن قد وصلنا بعد إلى الغابة.

واستنشق بيلون الهواء بشدة وهز رأسه، بشىء من الصبر وسأل: أكنت تشرب ويسكى.؟

أومأ يسوع ماريا برأسه.

- ومن أين حصلت على هذا الويسكى؟

أجاب يسوع ماريا: من أولئك الجنود. كانوا يخفونه تحت الأرض وكانت أرابيلا تعرف مكانه فأخبرتنى به - ولكن أولئك الجنود شاهدونا والزجاجة فى أيدينا.

بدأت القصة تتخذ لها شكلا شيئا فشيئا، وكان بيلون يميل إلى القصة التى تأتى على هذا النحو. إن القصة التى تكشف لك عن نفسها مرة واحدة تفقد لونها. بينما تجد القصة الجيدة فى الأحداث التى

تروى نصفها ويترك النصف الآخر يكمله السامع من واقع تجربته الخاصة. وتناول بيلون السوتيان من حجر يسوع ماريا، ومرر عليه أصابعه، وسرحت عيناه. ولكن لم تلبثا أن توهجتا بالفرحة. وصاح: لقد عرفت. سوف نعطى هذا الشىء لدانى يقدمه هدية للسيدة موراليس.

وصفق الكل للفكرة ماعدا يسوع ماريا الذى شعر فى يأس بأنهما لم يقيما له وزنا. وقام بابلو بدافع من تعاطف رقيق مع المهزوم، بملء قنينة يسوع ماريا بالخمر.

ولم يمض بعض الوقت، حتى بدأ الرجال الثلاثة يبتسمون. حكى لهما بيلون قصة مضحكة حدثت لوالده. وعادت الروح المرحة تسود المجموعة. وغنوا، وقام يسوع ماريا بمحاولة للرقص ليثبت أنه لم يصب بأذى كبير. وراح النبيذ يتناقص ويتناقص فى الوعاء. ولكن الأصدقاء الثلاثة ناموا قبل أن ينتهى النبيذ. ترنح بيلون وبابلو نحو السرير، ورقد يسوع ماريا فى ارتياح على الأرض، بجوار الموقد.

خمدت النار. وتردد فى المنزل غطيط عميق. وفى الحجرة الأمامية تحرك شىء واحد فقط. فقد وجهت الشمعة المباركة لهيبها الصغير الذى يشبه الرمح المدبب إلى أعلى وإلى أسفل بسرعة جنونية.

استفاد بيلون وبابلو ويسوع ماريا من هذه الشمعة الصغيرة بعض الدروس الأخلاقية فيما بعد. قضيب صغير من الشمع فى وسطه فتيلة. قد تقول عن مثل هذا الشىء إنه يخضع لقوانين معينة فى علم الطبيعة، وإنه لا يتبع غيرها. وقد تظن أن حركة الشمعة تسير وفق مبادئ معينة فى الحرارة والاشتعال. فأنت تشعل الفتيلة، فينصهر الشمع الذى فوق الفتيلة، وتشتعل الشمعة عدة ساعات، وتتلاشى، هذا هو كل ما فى الأمر. وينتهى الحدث. وفى لحظة قصيرة تنسى الشمعة، وبعدئذ لن توجد أبدا بطبيعة الحال.

ولكن هل نسيتم أن تلك الشمعة كانت مباركة؟ وأن بابلو كان قد نذرها للقديس سان فرانسسكو فى لحظة ضمير أو ربما فى لحظة من

نشوة دينية خالصة؟ إليكم المبدأ الذى انحرف بالقضيب الشمعى عن قوانين الطبيعيات.

وجهت الشمعة رمح ضوئها نحو السماء، كفنان يحترق من أجل الخلود، وراحت الشمعة تقصر شيئا فشيئا. وهبت ريح فى الخارج وتسللت خلال شقوق الحائط، وتأرجحت الشمعة على جوانبها، كانت هناك نتيجة حائط حريرية تحمل وجه فتاة حلوة تنظر من قلب وردة أمريكية جميلة، طارت بعيدا عن الحائط قليلا. تعرضت لرمح اللهب. اندلعت النار فى الحرير وأسرعت نحو السقف. وأمسكت النار بقطعة من ورق الحائط غير ملتصقة فسقطت مشتعلة فوق حزمة من الصحف.

فى السماء، نظر القديسون والشهداء بوجوه غير متسامحة. كانت الشمعة مباركة. كانت من حق القديس فرانسيس. سوف يكون للقديس فرانسيس شمعة كبيرة محلها الليلة.

لو كان من الممكن قياس عمق النوم، لأمكن القول حقا إن بابلو، الذى كان بعمله الخاطىء مسئولا عن النار، كان نائما نوما أكثر عمقا من صديقيه. ولكن بما أنه يوجد مقياس، لذا يمكن القول فقط إنه نام نوما عميقا جدا جدا.

واندلع اللهيب فى الجدران ووجد ثقوبا صغيرة فى السقف فتسرب منها إلى الليل. وامتلأ البيت بزئير النار. تقلب يسوع ماريا فى قلق. وبدأ، فى نومه، يخلع معطفه. وعندئذ سقطت قطعة خشب مشتعلة على وجهه. قفز صارخا، ووقف مذهولا للنار التى تئز من حوله.

وصرخ: بيلون! بابلو!. وجرى إلى الحجرة الأخرى، وجذب صديقيه من فراشهما ودفعهما إلى الخارج. كانت أصابع بيلون لا تزال متشبثة بالسوتيان القرنفلى.

وقفوا خارج البيت المشتعل، ونظروا خلال النار التى حجبت الباب المفتوح. كان فى مقدورهم أن يشاهدوا وعاء الخمر على المنضدة ولا يزال به مقدار بوصتين بديعتين من النبيذ.

شعر بيلون بما يجرى فى نفس يسوع ماريا من بطولة بدائية متوحشة فصاح : لا تفعلها . ينبغى أن تلتهمها النار عقابا لنا على تركها .

وبلغتهم أصوات صفارات، وزئير لوريات وهى تصعد التل بالقرب من المطافىء فى مونترى. واقتربت سيارات المطافىء الحمراء وتراقصت أضواؤها الكاشفة بين جذوع أشجار الصنوبر.

وتحول بيلون بسرعة إلى يسوع ماريا : أسرع وأخبر دانى باحتراق منزله . اجر بسرعة يايسوع ماريا .

- لم لا تذهب أنت؟

قال بيلون: اسمع. دانى لا يعرف أنك أحد مستأجرى منزله. ربما يصبح أكثر غضبا لو ذهبت إليه أنا أو بابلو.

اقتنع يسوع ماريا بهذا المنطق وأسرع نحو منزل دانى. كان المنزل مظلما صاح يسوع ماريا : دانى، دانى. بيتك يحترق!.

لم يجبه أحد . صاح مرة أخرى: دانى!.

وفتحت نافذة فى منزل السيدة موراليس المجاور. وتردد صوت دانى فى ضيق: ماذا تريد بحق جهنم؟

- بيتك الآخر يحترق، بيتك الذى يسكنه بابلو وبيلون.

لم يجب دانى لحظة، ثم سأل: هل إدارة المطافئ هناك!

صاح يسوع ماريا : نعم!

كانت السماء قد أضيئت كلها الآن. وكان من الممكن سماع تشقق الخشب المشتعل. قال دانى: حسن، إذا كانت المطافىء لا تستطيع أن تفعل شيئا إزاء ذلك، ماذا ينتظر بيلون منى أن أفعله؟

وسمع ماريا النافذة تنصفق بشدة، فاستدار وعاد يهرول نحو الطريق، كان يعلم أن الوقت لم يكن مناسبا لاستدعاء دانى، ولكن أنى له أن يعرف؟ لو فاته مشهد الحريق، ربما يغضب. كان يسوع ماريا سعيدا لأنه أخبره بالأمر على أية حال. والمسئولية الآن إنما تقع على عاتق السيدة موراليس.

كان منزلا صغيرا، وكان تيار الهواء شديدا، والجدران جافة تماما. وربما لم تشتعل نيران منذ حريق «تشينا تاون» القديمة بمثل هذه السرعة والقوة. ألقى رجال المطافىء نظرة على الجدران المتوهجة ثم أخذوا يرشون المياه على الأجمة والأشجار والمنازل المجاورة. وفى أقل من ساعة كان المنزل قد انتهى تماما. وعندئذ فقط تحركت الخراطيم فوق الرماد لتطفىء الفحم والشرر.

وقف بيلون وبابلو ويسوع ماريا وأكتفاهم متجاورة يرقبون كل شىء. ووقف فى سعادة نصف سكان مونترى وكل سكان تورتيلا فلات، ماعدا دانى والسيدة موراليس، يرقبون النار. وأخيرا عندما انتهى كل شىء عندما انبعثت سحابة بخار من الكومة السوداء، استدار بيلون وابتعد فى صمت.

سأل بابلو: إلى أين تذهب؟

أجاب بيلون: سأذهب إلى الغابة لأنام. وأنصحكما بالمجىء أنتما أيضا. لعل من الأفضل ألا يرانا دانى لبعض الوقت.

وأومأ بابلو ويسوع ماريا برأسيهما فى وقار وتبعاه إلى غابة الصنوبر.

قال بيلون: إنه درس لنا. لقد تعلمنا منه ألا نترك الخمر أبدا داخل البيت بالليل.

قال بابلو فى يأس: فى المرة القادمة سنأخذ قنينة الخمر إلى الخارج فيسرقها شخص ما!

٦

كيف توصل ثلاثة رجال خاطئون إلى راحة النفس، بالندم، وكيف أقسم رفاق دانى يمين الولاء

حين ظهرت الشمس فوق أشجار الصنوبر. وسرى الدفء فى الأرض، وجف ندى الليل على أوراق الجرانيوم، خرج دانى ليجلس فى «الفراندة» فى الشمس وليتأمل فى الدفء بعض الأحداث. خلع حذاءه وفرك أصابع قدميه على الألواح الخشبية الدفئة التى بالفراندة. وكان قد مشى فى الصباح المبكر وشاهد كومة الرماد الأسود والمواسير الملتوية التى كانت عبارة عن منزله الآخر، وانتابه غضب تقليدى بسيط ضد رفاقه المهملين، وناح لحظة على صفة التغير فى الملكية الأرضية هذه الصفة التى تجعل الملكية الروحية أكثر قيمة منها. وفكر فى منزلته التى تحطمت باعتباره يمتلك منزلا للإيجار، وفى عبء العواطف الضرورية المهذبة التى كان عليه اشباعها وكيف انتهت ضرورتها، لقد انزلق أخيرا نحو شعوره الحقيقى، إن أحد أسباب ارتياحه على الأقل هو زوال هذا العبء عن عاتقه.

قال لنفسه: لو كان ذلك المنزل مازال موجودا، لصرت رجلا طامعا فى الإيجار. لقد عاملنى أصدقائى ببرود لأنهم مدينون لى. والآن نستطيع أن نكون أحرارا وسعداء مرة أخرى.

غير أن دانى كان يعلم أنه ينبغى عليه أن يؤدب رفاقه قليلا، وإلا اعتبروه رجلا لينا لذلك راح، أثناء جلوسه فى الفراندة يطرد عنه الذباب بيده فى

حـركة تحـذير أكثـر منهـا تهديد ويفكر فى الكلمات التى ينبغـى أن يقـولها لأصدقائه قبل أن يسمح لهم بالعودة إلى حظيـرة محبته. ينبغى أن يظهر لهم أنه ليس الرجل الذى يفرضون أنفسهم عليه. ولكنه يتوق إلى أن ينتهى سريعا من هذا الأمـر ليـصبح مـرة أخرى دانى الـذى يحبـه كل شـخص، دانى الذى يبحث عنه الناس عندما يكون معهم جالون من النبيذ أو قطعـة من اللحم. لقد اعتبر غنيا لأنه كان يمتلك منزلين، فضاعت منه فرص جميلة للغذاء.

نام بيلون وبابلو ويسوع مـاريا كوركـوران فـتـرة طويلة فى الغـابة على أعـواد الصنوبر كـانت لـيلة مليـئـة بالاضطراب الهـائل، وكـانوا مـرهقـين، ولكن الشـمس سطعت أخيـرا فى وجوههم مع حـرارة الظهر ومشى النمل فـوقـهم، كمـا وقف على الأرض بالقـرب منهم طائران من طيـور أبو زريق الزرقاء، يناديانهم بكل أنواع النعوت الحادة.

غـيـر أن نومـهم لم ينقطع إلا على صـوت جمـاعـة متنزهين اسـتـقـروا على الجـانب الآخـر من الأجـمة وفـتـحـوا سلة غـذاء كـبيـرة تحـركت منهـا روائح منطلقـة نحـو بيلون وبابلو ويســوع مـاريا. وهـكذا اسـتـيـقـظوا، واعتدلوا، وعندئذ شعروا بشناعة موقفهم.

سأل بابلو فى حزن: كيف بدأ الحريق؟. ولم يكن هناك من يعلم.

قـال يسـوع مـاريا: ربمـا كـان من الأفـضل أن نـذهب إلى بلدة أخـرى بعض الوقت - واطسون فيا أو سـاليناس - فهمـا مدينتان رائعتان.

جـذب بيلـون السـوتيان من جيبـه وأجـرى أصـابعـه تتـحـسس نعـومـتـه القرنفلية. وعرضه لضوء الشمس ونظر من خلاله.

وقـرر: لـن يفلح ذلك إلا فـى تأخـيــر الأمـور. أظن أن من الأفـضـل أن نذهب إلى دانـى ونعترف بغلطتنا، كمـا يفعل الأطفال مع والدهم. وعندئذ لن يستطيع أن يقـول شـيـئا دون أن يندم عليـه. بالإضـافـة إلى ذلك أليس معنا هديته للسيدة موراليس؟!

أومأ رفيقاه برأسيهما موافقين. وشردت عينا بيلون خلال الأجمة الكثيفة إلى المتنزهين، خاصة إلى سلة الطعام الكبيرة التى تنطلق منها روائح البيض النفاذة. وتجعد أنف بيلون، مثل الأرنب. وابتسم فى شرود: سأذهب لأتمشى أيها الرفاق. بعد قليل التقى بكما عند المحجر، لا تحضرا السلة إذا كان فى مقدوركما ذلك.

أخذ يراقبان بيلون فى حزن وهو ينهض ويبتعد، خلال الأشجار، فى الزاوية التى إلى يمين السلة والمتنزهين. لم يدهش بابلو ويسوع ماريا بعد دقائق عندما سمعا عواء كلب، وصياح ديك، وضحكة عالية مجلجلة، ونونوة قطة برية، ثم صرخة قصيرة حادة وصيحة للنجدة، لكن الدهشة أخذت بألباب جماعة المتنزهين - ترك الرجلان والسيدتان سلتهم وأسرعوا فى اتجاه هذه الأصوات المختلطة.

أطاع بابلو ويسوع ماريا بيلون. لم يأخذا السلة، ولكن قميصيهما وقبعتيهما ظلت بعد ذلك تحمل آثار البيض.

وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر مشى الثلاثة التائبون فى بطء متجهين نحو منزل دانى. كانت أيديهم محملة بالعطايا تمهيدا للصلح: برتقال وتفاح وموز، زجاجات زيتون ومخللات، وسندويتشات بيض، زجاجات صودا، ورقة كارتون بها سلطة بطاطس، نسخة من «سترادى ايفننج بوست».

رآهم دانى وهم قادمون، فوقف وحاول تذكر الكلمات التى ينبغى أن يقولها لهم. اصطفوا أمامه، رءوسهم مدلاة.

صاح فيهم دانى: «كلاب أولاد كلاب» و «سارقو منزل رجل شريف» و«سلالة الأسماك»، ونعت أمهاتهم بأنهن أبقار وآباءهم بأنهم قطيع عجوز.

وفتح بيلون الحقيبة التى يحملها وأخرج سندويتشات اللحم. وقال لدانى إنه لن تكون له ثقة بعد ذلك فى أصدقائه، وأن ثقته قد أصيبت

بالتجمد وإنه قد خدع فى صداقته، وبعدئذ بدأ ذاكرته تضطرب، حين أخرج بابلو بيضتين من صدره، ولكن دانى عاد إلى الجيل الأسبق لهم وطعن فى فضيلة نسائه وفى رجولة رجاله.

جذب بيلون السوتيان القرنفلى من جيبه وتركه يتدلى بإهمال من بين أصابعه.

وهنا نسى دانى كل شىء. جلس فى «الفراندة» وجلس أصدقاؤه من حوله، وتم فتح اللفائف. أكلوا إلى حد التعب. وبعد ساعة، بينما كانوا متمددين على راحتهم فى «الفراندة»، لا يكاد يشغل تفكيرهم سوى هضم الطعام، سأل دانى بطريقة عارضة كما لو كان يسأل عن شىء بعيد ليس لهم به صلة: كيف بدأ الحريق؟

أجاب بيلون موضحا: لا ندرى، ذهبنا للنوم، وعندئذ اندلعت النار. ربما يكون لنا أعداء.

قال بابلو بإخلاص: ربما. وربما كان للرب دخل فى هذا .

وأضاف يسوع ماريا: أنى لنا أن نعرف لماذا يتصرف الرب الرحيم على هذا النحو؟

عندما ناول بيلون السوتيان لدانى وأوضح له كيف أنه كان هدية إلى السيدة موراليس ظل دانى صامتا. كان ينظر إلى السوتيان فى شىء من التشكك. شعر أن أصدقاءه يتملقون السيدة موراليس وأخيرا قال: ليست هذه السيدة التى تقدم إليها الهدايا كثيرا ما نرتبط بالنساء بالجوارب الحريرية التى نعطيها لهن. لم يكن فى مقدوره أن يوضح لأصدقائه الفتور الذى طرأ على علاقته بالسيدة موراليس بعد أن أصبح لا يملك سوى منزل واحد وليس فى مقدوره أيضا، مجاملة السيدة موراليس، أن يصف فرحته الخاصة بهذا الفتور. وقال سأضع هذا الشىء الصغير جانبا لعله فى يوم ما يكون ذا فائدة لأحد منا.

عندما هبط المساء، وحل الظلام، دخلوا المنزل وأشعلوا نارا فى الموقد من كيزان الصنوبر. أحضر دانى ربع «جرابا» ليشاركه أصدقاؤه فى التمتع بحرارته، مبرهنا بذلك على تسامحه.

استقروا بسهولة فى الحياة الجديدة. قال بيلون: من أسوأ الأمور أن تموت دواجن السيدة موراليس كلها.

ولكن حتى بالنسبة لهذا الأمر لم يكن هناك ما يعكر صفو سعادتهم. قال دانى: إنها سوف تشترى دستتين جديدتين يوم الاثنين.

ابتسم بيلون فى رضا وقال: لم تكن جيدة تلك الدجاجات التى تملكها السيدة سوتو. ولقد أخبرت السيدة سوتو أن الدجاجات فى حاجة إلى محار، لكنها لم تصغ لى.

شربوا الربع «جرابا»، وكان هناك ما يكفى لتدعيم الزمالة العذبة.

قال دانى: من الجميل أن يكون للمرء أصدقاء. كم يكون المرء وحيدا فى العالم عندما لا يكون له أصدقاء يجلسون معه ويشاركونه فى تناول شراب الجرابا.

وأضاف بيلون بسرعة: أو فى سندويتشاته.

لكن ندم بابلو لم يكن قد انتهى، فقد شعر بالشك فى حقيقة السياسة السماوية التى أدت إلى احتراق المنزل: لا يوجد فى جميع أنحاء العالم سوى قلة من الأصدقاء مثلك، يا دانى. لم يحظ الكثيرون بمثل هذا العزاء.

وقبل أن يغرق دانى تماما فى لجة الصداقة، أصدر تحذيرا واحدا. فقد أمرهم قائلا: أريد منكم جميعا ألا تقتربوا من سريرى. فهذا هو الشىء الوحيد الذى ينبغى أن أحتفظ به لنفسى.

ورغم أن أحدا منهم لم يذكر شيئا، إلا أنهم جميعا كانوا يعرفون أنهم

سوف يعيشون فى بيت دانى.

تنهد بيلون فى سرور. لقد اختفى عبء الإيجار: واختفت مسئولية الدين. لم يعد مستأجرا، وإنما ضيفا. وشعر فى داخله بارتياح لاحتراق المنزل الآخر.

قال: سنكون جميعا سعداء هنا يا دانى. سنجلس فى الأمسيات بالقرب من النار وسيأتى الأصدقاء لزيارتنا. وربما يكون لدينا فى بعض الأحيان زجاجة نبيذ نشربها فى صحة الصداقة.

وعندئذ اندفع يسوع ماريا، فى حمى الامتنان، فأصدر وعدا متهورا. كانت «الجرابا» هى التى دفعته إلى ذلك، وليلة الحريق، والبيض الذى تناوله. كان قد شعر بأنه تلقى هبات كثيرة وأراد أن يوزع هبة. فأعلن: سيكون من واجبنا ومسئوليتنا أن نعمل على أن يكون هناك طعام دائم فى المنزل من أجل دانى. لن يجوع صديقنا أبدا.

نظر إليه بيلون وبابلو فى انزعاج، ولكن الوعد كان قد قيل. وعد جميل وكريم. لا يستطيع أحد أن ينقضه دون لوم. حتى يسوع ماريا أدرك بعدما تكلم، جسامة ماتنطوى عليه عبارته. ولم يعد فى مقدورهم سوى أن يأملوا أن ينسى دانى هذا الوعد.

- لأنه «كذلك فكر بيلون» لو نفذ هذا الوعد، سوف يكون العبء أسوأ من عبء الإيجار. لسوف يكون عبودية.

قال: نقسم على ذلك يا دانى!

جلسوا حول الموقد والدموع فى عيونهم ؛ لم يستطيعوا أن يملكوا أنفسهم من فرط الحب الذى شعر به كل منهم إزاء الآخر.

مسح بابلو عينيه المبللتين بظهر يده، وردد ملاحظة بيلون قائلا: سوف نكون سعداء جدا بالعيش هنا.



كيف أصبح أصدقاء دانى قوة للخير كيف مدوا أيديهم لمعاونة القرصان المسكين

كان كثير من الناس يشاهدون القرصان كل يوم، بعضهم يسخر منه، وبعضهم يشفق عليه، ولكن أحدا لم يكن يعرفه معرفة وثيقة أو يتدخل فى أمره. كان ضخما عريضا ذا لحية كثيفة سوداء هائلة. وكان يرتدى «البلوجينز» وقميصا أزرق، ولا يضع فوق رأسه قبعة، وينتعل حذاء وهو يخترق شوارع المدينة. وكانت عيناه تجفلان فى مواجهة أى شخص كبير، وتبدو فيهما تلك النظرة المستترة التى تلوح فى عينى الحيوان الذى يود أن يهرب لو جرؤ على أن يدير ظهره بسرعة. ومن هنا، من خلال هذا التعبير، أدرك أهالى مونترى أن رأس القرصان لم تكبر مع بقية جسمه. وقد أطلقوا عليه اسم القرصان بسبب لحيته. وكان الناس يشاهدونه كل يوم يدفع أمامه عربته الصغيرة المحملة بالحطب خلال الشوارع إلى أن ينتهى من بيع حمولته. وكانت كلابه الخمسة، جميعها، تسير فى أعقابه.

كان انريك أقرب إلى كلاب الصيد فى مظهره، وإن كان ذيله مليئا بالشعر. وكان «باخاريتو» بنى اللون أجعد الشعر، وهذان هما المظهران الوحيدان اللذان تميزهما فيه العين. أما «رودلف» فكان من النوع الذى يقول عنه العابرون: إنه كلب أمريكانى. وكان «فلاف» من النوع الأفطس الأنف. أما السنيور «اليك تومبسون» فقد كان يبدو أنه من نوع كلاب الصيد الضخمة: وكانت هذه الكلاب تسير فى فصيلة خلف القرصان، فى

احترام كبير له، مهتمة جدا بسعادته. وعندما كان يجلس ليستريح من جر عربته، تحاول جميع الكلاب أن تجلس فى حجره حتى يهرش آذانها.

شاهد بعض الناس القرصان فى الصباح الباكر فى شارع الفارادو، شاهده بعضهم يقطع الخشب، وعرف بعضهم أنه يبيع الحطب، ولكن لم يكن هناك أحد سوى بيلون يعرف كل شىء يعمله القرصان. كان بيلون يعرف كل شخص ويعرف كل شىء حول كل شخص.

كان القرصان يعيش فى عشة دجاج مهجورة فى فناء منزل مهجور فى تورتيلا فلات. وربما كان يعتقد أن من الوقاحة أن يقيم فى المنزل نفسه. كانت الكلاب تعيش من حوله ومن فوقه، وكان القرصان يحب ذلك، لأن كلابه تبعث فيه الدفء فى الليالى القارسة البرد، إذا كانت قدماه باردتين فليس عليه سوى أن يضعهما على بطن السنيور اليك تومبسون الدفيئة. وكانت عشة الدجاج منخفضة جدا مما يضطر القرصان إلى الزحف على يديه وركبتيه.

فى الصباح الباكر من كل يوم، أو بالأحرى قبل طلوع النهار. كان القرصان يزحف خارجا من عشة الدجاج، تتبعه الكلاب، منتفضة الشعر، عاطسة فى الهواء البارد. ثم تذهب هذه العصبة إلى مونترى وتشق طريقها فى إحدى الحارات. وكانت هناك أربعة أو خمسة مطاعم تفتح أبوابها الخلفية على هذه الحارة. وكان القرصان يدخل كلا منها، يدخل إلى مطبخ المطعم، حيث الدفء ورائحة الطعام. وفى كل مكان يضع الطباخون المتذمرون لفة بقايا الطعام بين يديه. دون أن يعرفوا لماذا يفعلون ذلك.

وعندما ينتهى القرصان من زيارة هذه الأبواب الخلفية وتمتلىء ذراعاه باللفائف، يعود صاعدا التل نحو شارع مونرو حيث يجلس على ربوة خالية، وتتجمع حوله الكلاب فى انفعال، وعندئذ يفتح ما معه من لفائف ويطعم الكلاب. وكان يأخذ لنفسه لقمة وقطعة من اللحم من كل

لفة، لكنه لم يكن ينتقى لنفسه أفضلها. كانت الكلاب تجلس حوله، تلعق شفاهها فى عصبية، وتحرك أقدامها فى انتظار الطعام. لم تتعارك أبدا من أجل الطعام، وهذا أمر غريب حقا. لم تكن كلاب القرصان تتشاجر بعضها مع بعض ولكنها كانت تتشاجر مع أى مخلوق آخر يتجول على أربع أرجل فى شوارع مونترى. كان من الجميل أن ترى عصبة الكلاب الخمسة، وهى تطارد كلاب صيد الثعالب والكلاب الصغيرة ذات الشعر الطويل التى تجرى أمامها كالأرانب.

ظهر نور النهار فى الوقت الذى انتهت فيه الوجبة. جلس القرصان على الأرض يرقب لون السماء وهو يتحول إلى الزرقة مع مقدم الصباح. وشاهد المراكب وهى تقلع فى البحر محملة بالأخشاب. وسمع الجرس العائم يرن بعذوبة عند الهضبة الصينية البارزة. وجلست الكلاب حوله تقرض العظام. وبدا على القرصان أنه ينصت إلى النهار أكثر من أنه يشاهده، فقد كان يبدو عليه الانتباه، بينما عيناه لا تتحركان. وكانت يداه الكبيرتان ممدوتين للكلاب بلا وعى وأصابعه تتحرك خلال الشعر الخشن فى ملاطفة وبعد حوالى نصف ساعة، تقدم القرصان نحو ركن فى الربوة الخالية، وألقى الزكائب التى يغطى بها عربته الصغيرة، واستخرج بلطته من الأرض حيث يدفنها كل مساء، ثم راح يدفع العربة صاعدا فى التل، ثم فى الغابات، إلى أن وجد شجرة ساقطة. فى الظهيرة كان لديه حمل من الحطب الجيد، وعندئذ، مشى فى الشوارع، وظلت كلابه تتبعه، إلى أن باع الحمولة مقابل خمسة وعشرين سنتا.

كان من الممكن ملاحظة هذا كله، ولكن ما الذى كان يفعله بربع الدولار، لا أحد يستطيع أن يجيب. وهو لم ينفقه أبدا. كان يذهب فى الليل إلى الغابة، تحميه كلابه من الخطر، ويخفى ربع الدولار اليومى مع مئات أخرى من أرباع الدولارات. كان يمتلك كنزا عظيما من النقود فى مكان ما.

على أن بيلون، ذلك الرجل الذكى، الذى لم تكن تخفى عليه خافية

فى حياة أصحابه، والذى كان يبتهج ابتهاجا مضاعفا لاطلاعه على تلك الأسرار المكنونة فى أعماق عقول معارفه، اكتشف كنز القرصان بطريقة منطقية. فقد ناقش الموضوع مع نفسه على النحو التالى: فى كل يوم يحصل هذا القرصان على ربع دولار. وإذا كان ما يحصل عليه قطعتين من ذات العشرة سنتات وقطعة من ذات الخمسة سنتات، فإنه يذهب بها إلى متجر ويستبدلها بقطعة من فئة خمسة وعشرين سنتا. ثم هو لا ينفق أبدا أى نقود. إذن لابد أنه يخفيها.

حاول بيلون أن يحسب قيمة ما يحتوية الكنز. لقد عاش القرصان بهذه الطريقة سنوات. كان يقطع الخشب ستة أيام وفى أيام الآحاد يذهب إلى الكنيسة. كان يحصل على ملابسه من الأبواب الخلفية للمنازل، وعلى طعامه من الأبواب الخلفية للمطاعم. واحتار بيلون لحظة أمام الأرقام الكبيرة، ثم تخلى عن الحاسب. وفكر: أن القرصان لابد أن يكون معه على الأقل مائة دولار.

كان بيلون قد فكر فى هذه الأمور منذ فترة طويلة. ولكن فكرة كنز القرصان لم تكتسب مغزى شخصيا بالنسبة لبيلون إلا بعد وعده الحماسى الأحمق لدانى أن يمده بكل ما يحتاجونه من طعام.

وقبل أن يتناول بيلون الموضوع، راح يعد فى ذهنه ترتيبات طويلة مدهشة. شعر بالحزن الشديد من أجل القرصان. وقال لنفسه: هذا الصغير المسكين الناقص النمو. أن الله لم يمنحه كل العقل الذى ينبغى أن يكون له. ليس فى مقدور هذا القرصان الصغير المسكين أن يعتنى بأمر نفسه، لأنه، كما هو واضح، يعيش فى عشة دجاج قديمة قذرة، ويتغذى بفتات الطعام الذى لا يصلح إلا للكلاب، ويرتدى ملابس خفيفة مهترئة. ولأن عقله غير ناضج، فإنه يقوم بإخفاء نقوده.

والآن، بعد أن وضع بيلون للموضوع أساسا من الشفقة، أخذ يمضى نحو الحل. فكر، أليس من قبيل الفعل المحمود أن يؤدى المرء له هذه

الأمور التى لا يستطيع هو أن يؤديها لنفسه؟ مثل شراء ملابس ثقيلة له، تغذيته بطعام يليق بالإنسان؟. ثم قال لنفسه. وقد تذكر: ولكن ليس معى نقود لأفعل هذه الأمور، بالرغم من أنها تتحرك داخل قلبى. كيف يمكن إنجاز هذه الأعمال الخيرة؟

لقد بلغ الآن موضعا ما. وهنا كان قد تأهب لوثبته، كالقط الذى انتظر طويلا لينقض على عصفور. صاح عقله: وجدتها؟! إن القرصان لديه نقود، ولكنه لا يملك العقل الذى يجعله يستفيد بها وأنا لدى مثل هذا العقل إذن سأقدم له عقلى حتى يستفيد بنقوده. سأقدم عقلى مختارا بلا مقابل. سيكون هذا عملى الخير نحو هذا الرجل الصغير المسكين الناقص النضج.

وكان ذلك من أبرع الانشاءات التى بناها عقل بيلون طوال حياته. وسيطرت عليه حاجة الفنان إلى عرض انتاجه على الجمهور. وقال لنفسه: سأحكيها لبابلو. ولكنه عاد يتساءل عما إذا كان يجرؤ على عمل مثل هذا الأمر. هل بابلو أمين أمانة تامة؟ ألن يرغب فى تحويل بعض هذه النقود من أجل مصالحه الخاصة؟ وقرر بيلون عدم المجازفة بإخطار بابلو حاليا.

من الغريب أن تجد الخير فى قلب الشر والبياض الناصع فى قلب الظلام الأسود. ومن المحزن أن نكتشف الجذام فى الأجزاء الخافية من الملائكة. المجد والسلام لبيلون، لأنه عرف كيف يكشف للعالم الخير الذى يكمن فى كل ما هو شر. كما أنه كان يختلف عن كثير من القديسين، كان قادرا على رؤية الشر فى كل ما هو خير. ينبغى الاعتراف - بأسى - بأن بيلون لم يكن يتصف بالغباء، ولا بالعناد فى الرأى ولا بالطمع فى جزاء أبدا كى يكون قديسا يكفى بيلون أن يفعل الخير وأن يجازى عليه بدفء الاخوة الإنسانية التى تتحقق على يديه.

فى نفس تلك الليلة قام بزيارة إلى عشة الدجاج حيث يعيش

القرصان مع كلابه. وكان دانى وبابلو ويسوع ماريا يجلسون بجوار الموقد ولاحظوا خروجه ولم يعلقوا. فقد مر بهم خاطر رقيق: إما أن نسمة من الحب قد هبت على بيلون وإما أنه عرف من أين يستطيع الحصول على بعض النبيذ. وفى الحالتين ليس الأمر من شأنهم حتى يطلعهم عليه.

كان الظلام قد هبط تماما، لكنه كان يحمل شمعة فى جيبه، فقد رأى أن من المستحسن مراقبة تعبيرات وجه القرصان أثناء حديثه معه. مع بيلون كعكة مستديرة كبيرة بالسكر فى حقيبة، وكانت سوزى فرانسيسكو، التى تعمل فى المخبز، قد أعطتها له فى مقابل وصفة للوصول إلى قلب شارلى جوزمان. وكان شارلى يعمل ساعى بريد وتلغراف، ويركب دراجة بخارية، وكان لدى سوزى قبعة رجالى ستزحلقها على رأسها فى حالة ما إذا طلب منها شارلى يوما أن تركب معه. وفكر بيلون أن القرصان ربما يحب الكعكة الحلوة.

كانت الليلة حالكة الظلام. شق بيلون طريقه خلال شارع ضيق تحيطه بقع خالية من الأرض ونباتات شيطانية طويلة، وحدائق مهملة.

خرج الكلب البولدج الشرس الذى يملكه جالفث من فناء صاحبه مزمجرا، وراح بيلون يحدثه مزجيا إليه المديح اللطيف. قال له فى رقة. أيها الكلب الرائع.. وأيها الكلب الجميل وكلاهما كذب واضح. غير أن الكلب تأثر بهما، وتراجع إلى فناء جالفث.

أخيرا وصل بيلون إلى العقار المهجور حيث يعيش القرصان. وكان يدرك أنه لابد أن يكون حذرا الآن، فقد كان من المعروف أن كلاب القرصان، لو توقعت شرا من أى شخص إزاء سيدها، تنقلب إلى جنيات هائجات تدافع عنه. وما كاد بيلون يخطو فى الفناء حتى سمع زمجرة عميقة مليئة بالتهديد منبعثة من عشة الدجاج.

صاح ياقرصان. أنا بيلون صديقك المخلص، تعال لأتكلم معك.

مرت لحظة صمت انقطعت فيها الكلاب عن الزمجرة.

- أيها القرصان، أنا بيلون. لا يوجد سواى هنا.

أجابه صوت عميق واثق: أذهب بعيدا. إننى أنام الآن. والكلاب تنام. الدنيا ظلام، يا بيلون. أذهب إلى فراشك.

صاح بيلون: فى جيبى شمعة. سينبعث منها ضوء ساطع كالنهار فى بيتك المظلم. كما أنى أحضرت لك كعكة كبيرة بالسكر.

حدثت حركة خفيفة فى عشة الدجاج. وقال القرصان: تعالى إذن. سأخبر الكلاب أن كل شيء على ما يرام.

وبينما كان بيلون يتقدم خلال النباتات البرية، سمع القرصان يتحدث بهدوء إلى كلابه، شارحا لها أن ذلك ليس سوى بيلون، وأنه لا يبغى شرا. وانحنى بيلون أمام المدخل المظلم وحك عود كبريت، وأشعل الشمعة.

كان القرصان يجلس على الأرض القذرة، وقد رقدت من حوله جميع كلابه. وزام انريك، كان فى حاجة إلى مزيد من التأكيد. قال القرصان فى سرور: ليس هذا الكلب عاقلا كالآخرين وكانت عيناه تشعان بالسعادة والرضا كالطفل السعيد. وعندما ابتسم لمعت أسنانه الكبيرة البيضاء فى ضوء الشمعة.

ورفع بيلون الحقيبة وقال هذه كعكة رائعة من أجلك تناول القرصان الحقيبة ونظر فى داخلها، ثم ابتسم فى ابتهاج وأخرج الكعكة. وزاغت الكلاب جميعها وواجهته، وحركت أقدامها ولعقت شفاهها. وقطع القرصان كعكته إلى سبعة أجزاء. أعطى الجزء الأول لبيلون، الذى أصبح ضيفه ثم قال: والآن، انريك. وأنت يافلاف. وأنت يا سنيور اليك تومبسون تلقى كل كلب قطعته وابتلعها ووقف ينتظر المزيد. وفى النهاية، أكل القرصان نصيبه ورفع يديه إلى الكلاب، قائلا لها: لم يبق شيء، كما ترون. وفى الحال رقدت الكلاب من حوله.

جلس بيلون على الأرض وثبت الشمعة أمامه، وبدأ التساؤل المتعثر

على وجه القرصان ومن خلال عينيه. وظل بيلون صامتا، تاركا الفرصة لكثير من الأسئلة كى تخطر على رأس القرصان. ثم قال أخيرا: إنك تسبب القلق لأصدقائك.

امتلأت عينا القرصان بالدهشة: أنا؟ أصدقائى؟ أى أصدقاء؟

أضفى بيلون على صوته مسحة من رقة وقال: لديك أصدقاء كثيرون يفكرون فيك. وهم لا يأتون لزيارتك لأنك متكبر . وهم يعتقدون أنه ربما يجرح كرامتك أن يروك وأنت تعيش فى هذه العشة، وترتدى الملابس المهترئة، وتأكل فضلات الطعام مع كلابك ولكن هؤلاء الأصدقاء فى قلق عليك لأنهم يخشون أن تصيبك هذه الحياة السيئة بالمرض.

كان القرصان يتتبع كلماته بدهشة لاهثة، وكان ذهنه يحاول أن يستجلى هذه الأمور الجديدة التى يسمعها. ولم يخطر له أن يشك فيها، لأن بيلون هو الذى قالها. ثم قال فى تعجب : ألدى كل هؤلاء الأصقاء؟ وأنا لا أعرف ذلك؟ وهؤلاء الأصدقاء قلقون من أجلى أنا؟ لم أكن أعرف ذلك يا بيلون، لم أكن أسبب لهم هذا القلق لو كنت أعرف ذلك. وابتلع ريقه لتصفو حنجرته من أثر الانفعال: كما ترى، يا بيلون، أن الكلاب تحب هذا المكان. وأنا أحبه من أجلها. لم أكن أعتقد أنى أهم أصدقائى. وطفرت الدموع من عينى القرصان.

قال بيلون: ومع ذلك فإن طريقتك فى العيش تجعل جميع أصدقائك فى قلق.

وشخص القرصان ببصره إلى الأرض وحاول أن يفكر بوضوح، لكن حدث ما يحدث دائما عندما يحاول أن يفكر فى مشكلة من المشاكل، فالضباب يغلف ذهنه ولايسعفه التفكير، كل ما يستشعره هو ذلك الاحساس بالعجز. وتلفت إلى كلابه يطلب منها الحماية لكنها كانت قد عادت إلى النوم، فذلك أمر لا يهمها. فما كان منه إلا أن تطلع إلى عينى بيلون فى حماس. بيلون - عليك أن تشير علىَّ بما يجب عمله. أنا لا

أصدق هذه الأمور.

كان الأمر بالغ البساطة، وشعر بيلون بشىء من الخجل وهو يمضى فى الموضوع بهذه البساطة، وتردد، وكاد يتخلى عن الفكرة، ولكنه علم حينئذ أنه سوف يثور على نفسه لو فعل ذلك فاستطرد : أصدقاؤك فقراء كانوا يودون مساعدتك، ولكن ليس معهم نقود. إذا كانت لديك نقود مخبأة، أخرجها علانية، واشتر لنفسك بعض الملابس. تناول طعاما لا يكون من بقايا طعام الآخرين. أحضر نقودك من مخبئها، أيها القرصان.

كان بيلون، وهو يتحدث، ينظر إلى وجه القرصان عن كثب. ولاحظ عينى القرصان ترتخيان فى شك ثم فى كآبة. وأدرك بيلون فى هذه اللحظة أمرين على وجه التأكيد، أولا أن القرصان فى حوزته نقود مخبأة، ثانيا أنه لن يكون من السهل التوصل إليها. وسرته هذه الحقيقة الأخيرة. لقد أصبح القرصان مشكلة فى التكتيك وكانت مثل هذه الصعوبات تستحوذ على اهتمام بيلون.

ونظر القرصان إليه مرة أخرى، وفى عينيه مكر، وفوق هذا كله ذكاء عميق. وقال: ليس لدى نقود فى أى مكان.

- ولكننى أراك كل يوم، يا صديقى تحصل على ربع دولار مقابل الحطب، ولم يحدث أن أنفقت هذه النقود أبدا.

غير أن القرصان قد أسعفه عقله فى هذه المرة: إننى أعطيها لامرأة عجوز فقيرة. ليس لدى نقود فى أى مكان وأغلق بلهجته باب الحديث فى هذا الموضوع أغلاقا تاما.

وفكر بيلون، لابد أن يتم الأمر بالحيلة. وعلى هذا كان لابد من ايقاظ مواهبه الهائلة. وقف ورفع شمعته وقال منتقدا : لقد أردت فقط أن أخبرك بمدى قلق أصدقائك عليك. إذا لم تحاول المساعدة، فلن يكون فى مقدورى أن أفعل شيئا من أجلك.

وعادت العذوبة إلى عينى القرصان مرة أخرى. قال متوسلا: قل لهم إننى بصحة جيدة. أطلب من أصدقائى أن يجيئوا لزيارتى لن أكون متكبرا جدا، سأكون سعيدا برؤيتهم فى أى وقت. هل تخبرهم بالنيابة عنى، يا بيلون؟

قال بيلون بطريقة جافة: سأخبرهم. ولكن أصدقاءك لن يشعروا بالسعادة عندما يعرفون أنك لم تفعل شيئا يزيل قلقهم عليك. وأطفأ بيلون شمعته ومضى فى الظلام، لقد عرف أن القرصان لن ينبئ أبدا بمكان الكنز. لابد من العثور عليه عن طريق التلصص، والاستيلاء عليه، رغما عن القرصان من أجل منحه كل الأشياء الجميلة التى يحتاج إليها. وهذه هى الطريقة الوحيدة.

هكذا هيأ بيلون نفسه لمراقبة القرصان. تعقبه فى الغابة أثناء ذهابه لقطع الأحطاب. ورقد منتظرا خارج عشة الدجاج فى الليل. تكلم معه طويلا وبحماسة دون أن يخرج بشىء. ظل الكنز بعيدا عن الاكتشاف كما كان من قبل. إما أنه مدفون فى عشة الدجاج وإما أنه مخبأ فى أعماق الغابة ولا يزوره القرصان إلا فى الليل.

وذهبت اليقظة الطويلة اللامجدية بصبر بيلون. وأدرك أنه لابد من اللجوء إلى المساعدة والنصيحة. ومن يستطيع أن يسديها أفضل من أولئك الرفاق، دانى، وبابلو، ويسوع ماريا؟ من مقدوره أن يكون فى مثل تلصصهم ومكرهم؟ من يستطيع أن يستجيب للشفقة فى سرعة أكثر منهم؟

هكذا أولى بيلون ثقته لهؤلاء الرفاق، ولكنه قام أولا بتهيئتهم للأمر، كما هيأ نفسه: فقر القرصان، عجزه، وأخيرا - الحل. وعندما وصل إلى الحل، كان أصدقاؤه فى حالة حماسة شديدة للعمل الخيرى الإنسانى. صفقوا له. وتألقت وجوههم بالحنان. وكان بابلو يعتقد أنه ربما يزيد ما فى الكنز على مائة دولار.

عندما تحول سرورهم إلى حماسة للعمل، أخذوا فى رسم الخطط.

قال بابلو: ينبغى أن نراقبه.

ناقش بيلون هذا الرأى قائلا: ولكنى راقبته. لابد أنه يزحف خارجا أثناء الليل، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يتبعه عن قرب، لأن كلابه تحرسه كالشياطين. لن يكون الأمر بهذه البساطة.

سأل دانى: يبدو أنك بحثت كل وسيلة؟

- نعم، كل وسيلة.

وفى النهاية كان يسوع ماريا، ذلك الرجل الخير، هو الذى اهتدى إلى الحل. قال: الأمر صعب طالما كان القرصان يعيش فى عشة الدجاج. ولكن، ماذا لو عاش هنا معنا؟ فإما أن صمته يذوب تحت تأثير عطفنا، وإما توصلنا فى سهولة إلى معرفة الوقت الذى يخرج فيه بالليل.

اهتم الأصدقاء كثيرا بهذا الاقتراح. وفكر بابلو: فى بعض الأحيان تكون الأشياء التى يحصل عليها القرصان من المطاعم طازجة تقريبا. لقد شاهدته يوما ومعه شريحة لحم لا ينقص منها سوى القليل.

قال بيلون: ربما تكون ثروته كبيرة تبلغ مائتى دولار.

واعترض دانى: ولكن هذه الكلاب - سوف يحضر كلابه معه.

قال بيلون: إنها كلاب ممتازة. وهى تطيعه طاعة عمياء. يمكنك أن ترسم خطا حول أحد الأركان وتقول: احتفظ بالكلاب فى حدود هذا الخط. وسوف يخبرهم، وستظل تلك الكلاب داخل الخط.

قال بابلو: شاهدت القرصان ذات صباح، وكان معه نصف فطيرة تقريبا، وكانت فقط مبللة قليلا بالقهوة.

وانتهى الموضوع إلى حل. فقد قرر أهل المنزل جميعا تكوين لجنة من أنفسهم، وقامت اللجنة بزيارة القرصان.

ازدحمت عشة الدجاج عندما أصبحوا جميعا بالداخل. حاول القرصان أن يخفى سعادته باصطناع لهجة خشنة. قال بطريقة

اجتماعية: كان الجو رديئا. تصوروا أنى وجدت قرادة كبيرة فى حجم بيضة الحمام على عنق رودلف. إنه تحدث باستهانة عن منزله، شأن المضيف. قال: إنه ضيق جدا، ولا يليق لاستقبال الأصدقاء، ولكنه مريح دافىء، خاصة بالنسبة للكلاب.

عندئذ تكلم بيلون. أخبر القرصان أن القلق عليه يقتل أصدقاءه، ولكنه لو ذهب للعيش معهم، عندئذ يرتاح بالهم ويكون فى مقدورهم أن يناموا ثانية.

شعر القرصان بهزة كبيرة. نظر إلى يديه. ونظر إلى كلابه باحثا عن عزاء، لكنها لم تبادله النظرات. وأخيرا مسح السعادة من عينيه بظهر يده، ومسح يده فى لحيته الطويلة السوداء.

وسأل فى رقة: والكلاب؟ هل تريدون الكلاب أيضا؟ هل انتم أصدقاء للكلاب.

أومأ بيلون برأسه موافقا: نعم، الكلاب، أيضا. سنخصص ركنا بأكمله للكلاب.

وكان القرصان يتصف بقدر كبير من الكبرياء. وكان يخشى ألا يتصرف كما ينبغى. فقال متوسلا: اذهبوا الآن. عودوا إلى بيتكم الآن. سأحضر غدا.

وأدرك الأصدقاء مشاعره. فزحفوا خارجين من الباب وتركوه وحيدا.

قال يسوع ماريا: سيكون سعيدا معنا، ذلك الشخص.

أضاف دانى: يا له من رجل مسكين وحيد. لو كنت أعلم لدعوته منذ وقت طويل، حتى ولو لم يكن لديه كنز.

وتوهج فيهم جميعا لهيب من البهجة.

وسرعان ما انشغلوا فى تنظيم العلاقة الجديدة. فقد رسم دانى بقطعة طباشير زرقاء خطا منحنيا حول ركن من غرفة المعيشة، وكان

ذلك هو المكان الذى ينبغى على الكلاب أن تمكث فيه أثناء وجودها فى البيت. ونام القرصان فى ذلك الركن أيضا، مع الكلاب.

بدأ المنزل يزدحم قليلا بما فيه من رجال خمسة وكلاب خمسة ولكن دانى وأصدقاءه كانوا يفتقدون منذ البداية أن دعوتهم للقرصان موحى بها من قبل ذلك الملاك القلق الذى يرعى مصائرهم ويحميهم من الشر.

فى كل صباح، كان القرصان ينهض من ركنه، قبل أن يستيقظ رفاقه بوقت طويل، ويقوم بجولاته على المطاعم ومراسى السفن، وكلابه فى أعقابه. كان القرصان من ذلك النوع الذى يشعر كل إنسان بالتعاطف معه. ولا تلبث اللفائف التى معه أن تكبر، ويتلقى الرفاق خبراته ويستفيدون بها، سمك طازج، أنصاف فطائر، أرغفة كاملة من الخبز الجاف، لحم لا يتطلب سوى القليل من الصودا ليصبح لذيذ الطعم. لقد بدأوا يعيشون فعلا.

وكان قبولهم لعطايا القرصان يهزه أعمق من أى شىء آخر فى إمكانهم عمله له. كانت عيناه تتألقان بنور التبتل وهو يراقبهم يأكلون الطعام الذى أحضره.

فى المساء، عندما جلسوا حول الموقد يناقشون ما يدور بتورتيلا فلات بأصوات خاملة أشبه بأصوات آلهة متخمة بالطعام، كانت عينا القرصان تقفزان من فم إلى فم، وشفتاه تتحركان، هامسا مرة أخرى بالكلمات التى قالها أصدقاؤه. وقد تجمعت حوله الكلاب فى غيرة.

هؤلاء هم أصدقاؤه، هكذا قال لنفسه فى الليل، عندما غرق المنزل فى الظلام،وتجمعت الكلاب متلاصقة به حتى تستشعر جميعا الدفء. هؤلاء الرجال يحبونه جدا حتى ليقلقهم أن يعيش وحيدا. كان القرصان كثيرا ما يكرر هذا لنفسه لأنه كان أمرا مذهلا، أمرا بعيدا عن التصديق وأصبحت عربته الصغيرة تقف الآن فى فناء دانى، وفى كل يوم يقطع الخشب ويبيعه. ولكنه كان يخشى أن تفته بعض الكلمات التى يقولها

أصدقاؤه فى المساء يخشى ألا يكون موجودا معهم كى ينهل جداول الزمالة الدفيئة، حتى أن لم يقم بزيارة الكنز عدة أيام ليضع فيه قطع النقود الجديدة.

كان أصدقاؤه شفوقين عليه. كانوا يعاملونه بمودة عذبة، ولكن كانت هناك دائما عين ما مفتوحة ترقبه. وعندما كان يدفع عربته الصغيرة إلى داخل الغابة، كان يسير معه أحد الرفاق، ويجلس على جذع شجرة أثناء قيام القرصان بعمله. وعندما كان يذهب إلى المصرف، وهو آخر ما يعمله فى الليل، يظل دانى أو بابلو أو بيلون أو يسوع ماريا فى صحبته، ولابد أنه كان حريصا جدا فى الليل بحيث يزحف إلى الخارج دون أن يتعقبه طيف.

ومضى أسبوع، لم يفعل الأصدقاء شيئا سوى مراقبة القرصان، ولكن هذه الحركات السلبية انهكتهم أخيرا. وكان العمل المباشر بعيدا عن مجال تفكيرهم، تأكد لديهم ذلك. وهكذا قاموا ذات مساء باثارة موضوع رغبة المرء فى أخفاء نقوده.

بدأ بيلون المناقشة: كان لى عم، شديد البخل، وكان يخفى الذهب فى الغابة، وذات يوم ذهب يلقى نظرة على الذهب، لكنه لم يجده. كان قد عثر عليه شخص ما وسرقه. وكان عمى عجوزا وقتئذ، ونقوده كلها قد ضاعت، فما كان منه إلا أن شنق نفسه ولحظ بيلون فى شىء من الرضا، نظرة الخوف التى ارتسمت على وجه القرصان.

ولاحظها دانى أيضا وأضاف قائلا: كان جدى العجوز صاحب هذا البيت يدفن أيضا نقودا لا أعلم مقدارها، ولكنه كان معروفا أنه رجل غنى، ولذا لابد أنها كانت تبلغ ثلاثمائة أو أربعمائة دولار. حفر العجوز حفرة عميقة ووضع نقوده فيها، ثم غطاها، وزرع أعواد الصنوبر فوق الأرض معتقدا أن أحدا لا يستطيع أن يرى شيئا هناك. ولكنه عندما عاد، كانت الحفرة مفتوحة، وكانت النقود قد سرقت.

وكانت شفتا القرصان تتابع الكلمات، وارتسمت نظرة رعب على وجهه وانغرست أصابعه بين شعر رقبة السنيور اليك تومبسون وتبادل الأصدقاء نظرة وتناسوا الموضوع مؤقتا، وتحولوا إلى الحديث عن غرميات كورنيليا رويث.

فى الليل تسلل القرصان من البيت، وتسللت الكلاب فى أعقابه، وتسلل بيلون فى أعقابهم جميعا، سار القرصان مسرعا فى الغابة، قافزا بأقدام واثقة فوق جذوع الأشجار وفوق النباتات. وراح بيلون يتسكع خلفه. ولكن بعدما ذهبوا ميلين على الأقل، تعثر بيلون ومزقته النباتات الشائكة. ووقف يستريح لحظة، وعندئذ تبين له أن كل الأصوات التى أمامه قد تلاشت، انتظر وأنصت وزحف حول المكان، ولكن القرصان كان قد اختفى.

بعد ساعتين، عاد بيلون ثانية، فى بطء وتعب. كان القرصان بالمنزل، يغط فى النوم بين كلابه. رفعت الكلاب رءوسها عندما دخل بيلون، وخيل إليه أنها تبتسم ساخرة منه فى هذه اللحظة.

وانعقد مؤتمر عند المصرف صباح اليوم التالى. وأدلى بيلون بتقريره قائلا: ليس من السهل تعقبه. لقد اختفى. انه يبصر فى الظلام. وهو يعرف كل شجرة فى الغابة. ينبغى علينا أن نبحث عن طريقة أخرى.

قال بابلو مقترحا: ربما لا يكفى شخص واحد. لو تعقبناه جميعا، ربما لا يفقد أحدنا أثره.

قال يسوع ماريا: سوف نتحدث مرة أخرى الليلة. وسنتمادى فى كلامنا ثم أضاف فى تواضع: هناك سيدة أعرفها ستعطينى بعض النبيذ. لو شرب القرصان شيئا من النبيذ، ربما لا يختفى بهذه السهولة. وانفض الاجتماع عند هذا الحد.

قامت السيدة التى ذكرها يسوع ماريا بمنحه جالونا كاملا من النبيذ. أى فرحة انتابت القرصان فى تلك الأمسية عندما وجد بين يديه دن

فاكهة ممتلئا بالنبيذ، وهو جالس مع أصدقائه يرتشف الخمر وينصت إلى الكلام؟ نادرا ما تحدث مثل هذه البهجة فى حياة القرصان. وود لو يضم هؤلاء الرفاق الأعزاء إلى صدره وأن يخبرهم بمدى حبه لهم، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك لأنهم ربما يظنونه ثملا. وود لو يستطيع أن يفعل شيئا عظيما ليظهر حبه لهم.

قال بيلون: تحدثنا الليلة الماضية عن دفن النقود. وقد تذكرت اليوم ابن خالى، وهو رجل ذكى. وإذا كان فى مقدور أحد فى العالم أن يخفى نقودا فى مكان لا يستطيع أحد التوصل إليه فإن ابن خالى، يستطيع ذلك، وهكذا أخذ نقوده وخبأها. ربما شاهدتموه، ذلك الشخص المسكين الضئيل الذى يتسكع حول مرفأ السفن ويشحذ رءوس الأسماك لعمل منها حساء. ذلك هو ابن خالى، وقد سرق أحد الأشخاص نقوده المدفونة.

عاد القلق يعلو وجه القرصان.

ومضت حكاية خلف حكاية. وفى كل حكاية ينطلق الشر فى أعقاب أولئك الذين يخفون نقودهم.

وختم دانى الحديث بقوله: من الأفضل أن يحتفظ الإنسان بماله قريبا منه، لينفق منه فى بعض الأحيان، وليعطى قليلا منه لأصدقائه.

كانوا يرقبون وجه القرصان عن قرب، وفى منتصف أسوأ قصصهم لاحظوا أن القلق قد زايل وجهه، وحلت محله ابتسامة ارتياح. وأخذ يشرب النبيذ وقد تألقت عيناه بالبهجة.

شعر الأصدقاء باليأس، لقد فشلت جميع خططهم. شعروا بالغثيان فى قلوبهم. بعد كل ما عملوه من خير وإحسان، يحدث ذلك. لقد هرب القرصان بطريقة ما من الخير الذى كانوا يبغون تقديمه له. وانتهوا من شرابهم ومضوا إلى فراشهم فى كآبة.

نادرا ما يحدث شىء فى الليل دون أن يعلم به بيلون ظلت أذناه

مفتوحتين بينما نامت بقية أعضائه. سمع القرصان وهو يتسلل من المنزل خلسة مع كلابه. وقفز لايقاظ أصدقائه وفى لحظة كان الرفاق الأربعة يمضون فى أعقاب القرصان نحو الغابة.

كانت الظلمة كثيفة عندما دخلوا غابة الصنوبر. وجرى الأصدقاء الأربعة وسط الأشجار، وتعثروا فى نباتات العليق، ولكنهم استطاعوا لمدة طويلة أن يسمعوا القرصان يمضى فى طريقه أمامهم لقد تابعوه إلى الحد الذى تابعه عند بيلون فى الليلة السابقة، وعندئذ وفجأة، انقطع الصوت، ولم يبق غير همس الغابة وصوت الريح الليلية الغامضة، وأخذوا يفتشون بين الأشجار وفى البقع الممتلئة بالنباتات الشيطانية، ولكن القرصان كان قد اختفى مرة أخرى.

وأخيرا عادوا معا فى خطوات ثقيلة متعبة متجهين نحو مونترى وقد أضنتهم البرودة وخيبة الأمل. وانبثق الفجر قبل عودتهم. كانت الشمس قد بدأت تشرق على الخليج، وتصاعد أمامهم دخان نيران الصباح فى مونترى.

وخرج القرصان إلى الفراندة لتحيتهم، وكان وجهه متألقا ومروا به عابسين، وانسلوا الواحد وراء الآخر نحو غرفة المعيشة وعلى المنضدة كانت هناك حقيبة كبيرة من القماش.

ودخل القرصان فى أعقابهم وقال: بيلون. لقد كذبت عليك أخبرتك أنى لا أمتلك نقودا، لأنى كنت خائفا. لم أكن أعرف شيئا عن وجود أصدقاء لى حينئذ. لقد أخبرتنا أمس كيف أن النقود المخبأة غالبا ما تسرق، فشعرت بالخوف ثانية. فى الليلة السابقة فقط توصلت إلى حل. ستكون نقودى فى أمان مع أصدقائى. ليس فى مقدور أحد أن يسرقها إذا قام أصدقائى بحراستها من أجلى.

حملق فيه الرجال الأربعة فى ذعر. قال دانى فى وحشية: خذ نقودك ثانية إلى الغابة واخفها. نحن لا نريد حراستها.

قال القرصان: لا. لن أشعر بالاطمئنان لو خبأتها. ولكنى سأكون قرير

العين إذا تولى أصدقائى حراستها لى، ربما لا تصدقوا، ولكن فى الليلتين الأخيرتين تبعنى شخص ما إلى داخل الغابة وكان يبغى سرقة نقودى.

ورغم قوة الضربة، حاول بيلون، ذلك الرجل الذكى، أن يتفاداها، فاقترح فى هدوء: قبل أن تضع هذه النقود بين أيدينا ربما تريد أن تأخذ منها شيئا.

هز القرصان رأسه: لا أستطيع أن أفعل ذلك. أنها مندورة. معى حوالى ألف قطعة من فئة ربع الدولار سأشترى شمعدانا ذهبيا للقديس سان فرانسيسكو.

واستطرد قائلا: كان لدى ذات يوم كلب لطيف، وأصيب بالمرض، فنذرت شمعدانا ذهبيا اشتريه بمجهود ألف يوم لو شفى هذا الكلب. ومد يديه الضخمتين قائلا: وقد شفى ذلك الكلب.

سأل بيلون: هل هو أحد هذه الكلاب؟

قال القرصان: لا. فقد صدمته سيارة نقل بعد ذلك بوقت قصير.

إذن لقد انتهى كل شىء، كل أمل فى تحويل النقود. ورفع دانى وبابلو - فى حزن - الحقيبة الثقيلة بما فيها من القطع الفضية فئة ربع الدولار، وقاما بنقلها إلى الحجرة الأخرى، ووضعاها تحت وسادة دانى. كان المفروض أن يشعروا فى هذه اللحظة بلذة خاصة وهم يعلمون بوجود هذه النقود تحت الوسادة، ولكنهم يشعرون الآن بأن هزيمتهم مريرة. ليس هناك فى العالم من يستطيعون عمله ازاء ذلك. لقد واتتم الفرصة، ثم أفلتت.

وقف القرصان أمامهم، ودموع السعادة تترقرق فى عينيه لأنه قد برهن على حبه لأصدقائه.

وقال: عندما أتذكر أن كل تلك السنين عشتها فى عشة دجاج، وإننى لم أعرف أى متعة ثم أضاف: ولكنى الآن، أوه، الآن أنا سعيد جدا.



كيف بحث أصدقاء دانى عن كنز خفى فى وقفة عيد القديس آندرو وكيف وجده بيلون ، وكيف انتقلت ملكية البنطلون الصوفى الخشن مرتين .

لو كان البورتاجى بطلا، لأمضى فترة تعسة فى الجيش. والواقع أن كونه بيج بورتاجى، الذى تمرس جيدا بسجن مونترى، لم ينقذه فقط من عبء الوطنية، ولكنه دعم اعتقاده أيضا بأنه طالما أن الإنسان تتوزع حياته بالعدل ما بين النوم واليقظة فإن عمره كذلك ينبغى أن يوزع ما بين السجن وخارجه. وأثناء الحرب قضى جو بورتاجى فى السجن وقتا أطول مما قضاه خارجه.

وفى الحياة المدنية، يعاقب المرء على أمور يفعلها، ولكن لوائح الجيش تضيف إلى هذا مبدأ جديدا، فهم يعاقبون المرء على أمور لم يفعلها، ولم يكن جو بورتاجى يتصور هذا أبدا. لم ينظف بندقيته لم يحلق، لم يعد من إجازته مرة أو مرتين. أضف إلى هذه الأخطاء ميل بيج جو إلى المناقشة المرحة عندما يدعى للعمل.

كان من الطبيعى أن يقضى نصف وقته فى السجن، لكنه أمضى ثمانية عشر شهرا فى السجن من العامين اللذين أمضاهما فى الجيش. ولم يكن راضيا بالمرة عن حياة السجن فى أثناء مدة الجيش. فقد كان فى سجن مونترى معتادا على الراحة والزمالة أما فى الجيش فلم يكن أمامه سوى العمل .فى مونترى لم تكن هناك سوى تهمة واحدة توجه إليه: السكر وسوء السلوك. أما الاتهامات فى الجيش فكانت تحيره

تماما حتى أن تأثيرها يكاد يظل دائم التعليق بذهنه.

وعندما انتهت الحرب، وتفرقت جميع الفرق. وكان بيج جو لا يزال محكوما عليه بستة أشهر من الخدمة. وكانت التهمة هى سكر أثناء العمل، ضرب جاويش بصفيحة كيروسين، رفض الافصاح عن شخصيته (لم يستطع تذكرها، لذا أنكر كل شىء)، سرقة جالون من اللوبيا المطبوخة والذهاب إلى الـ A.W.O.I على حصان الميجور.

ولو لم توقع الهدنة، لكان من المحتمل أن يعدم رميا بالرصاص وهكذا عاد إلى مونترى بعد أن عاد المحاربون الآخرون بوقت طويل وبعد أن استمتعوا بحلاوة النصر.

عندما هبط بيج جو مترنحا من القطار، كان يرتدى معطفا عسكريا وبنطلونا من الصوف الأزرق الرخيص.

لم يحدث تغيير كبير فى البلدة، فيما عدا منع المسكرات، غير أن منع المسكرات لم يغير من حال توريللى. وقد قايض جو معطفه بجالون من النبيذ وذهب يبحث عن أصدقائه بالخارج.

فى تلك الليلة لم يعثر على أحد من أصدقائه الخلصاء، ولكنه وجد فى مونترى كثيرا من الطماعين والقوادين الأوغاد الذين هم على استعداد دائما لمصاحبة الرجال إلى بيوت الدعارة. أما جو الذى لم يكن رجلا أخلاقيا، فلم يكن يعترض على بيوت الدعارة بل كان يميل إليها.

وقبل أن تمضى ساعات طويلة انتهى نبيذه، ولم يكن معه نقود، وعندئذ حاول القوادون أن يطردوه خارج الماخور، لكنه رفض أن يخرج. كان مرتاحا هناك. عندما حاولوا طرده بالقوة راح فى ثورة غضب حقيقى يحطم جميع الأثاث والنوافذ، وأرسل الفتيات نصف عاريات يصرخن فى الليل، وبعد أن أعمل فكره قرر أشعال النار فى المنزل، ليس من المأمون قيادة جو نحو الإغراء، فلم يكن فى مقدوره المقاومة على الإطلاق.

وفى النهاية تدخل أحد رجال الشرطة وقبض عليه. وتنهد البورتاجى فى سعادة، وقد شعر بأنه أصبح فى بيته مرة أخرى.

وبعد محاكمة قصيرة بلا محلفين، حكم فيها عليه بثلاثين يوما فى السجن، تمدد فى رفاهية على سريره الجلدى ونام نوما عميقا عشر المدة المحكوم بها عليه.

كان البورتاجى يحب سجن مونترى. فى هذا المكان يمكنه مقابلة الناس. إذا مكث هناك فترة طويلة، فإنه يلتقى بكل أصدقائه الذين يدخلون ويخرجون منه. ولكن المدة انقضت بسرعة. شعر بشىء من الحزن عندما حان ميعاد خروجه، لكن شعوره بسهولة العودة خفف من حدة الحزن.

ود لو يذهب إلى الماخور مرة أخرى، ولكن لم يكن معه نقود ولا نبيذ. وراح يذرع الشوارع بحثا عن أصدقائه القدامى، بيلون ودانى وبابلو، لكنه لم يستطع العثور عليهم. وقال الجاويش إنه لم يحتجزهم منذ زمن طويل.

قال البورتاجى: «لابد أنهم ماتوا».

ومشى فى حزن نحو بيت توريللى، ولم يكن توريللى لطيفا مع الرجال، الذين ليس معهم نقود ولا أشياء يمكن مقايضتها، كما أنه لا يستطيع أن يمنح بيج جو كثيرا من العزاء، ولكن توريللى قال إن دانى ورث منزلا فى تورتيلا فلات وأن جميع أصدقائه يقيمون معه هناك.

اجتاحت بيج جو المحبة والرغبة فى رؤية أصدقائه. وفى المساء راح يتمشى نحو تورتيلا فلات ليبحث عن دانى وبيلون. كان فى الشارع فى غبشة المساء، وفى الطريق التقى ببيلون مسرعا كما لو كان رجل أعمال.

- أسمع يا بيلون. كنت قادما الآن لزيارتك.

قال بيلون بسرعة: - أهلا. ياجو بورتاجى. أين كنت؟

أجاب جو: - فى الجيش.

لم يكن ذهن بيلون معه: أنا مضطر للذهاب.

قال جو: سأذهب معك.

توقف بيلون وألقى نظرة شاملة عليه وسأله: ألا تذكر فى أى ليلة نحن؟

- لا. فى أى ليلة؟

- إنها ليلة عيد القديس اندرو.

عندئذ أدرك البورتاجى كل شىء، كانت هذه هى الليلة التى يخرج فيها كل بايزانو غير مسجون ويتجول خلال الغابة فى قلق هذه هى الليلة التى ينبعث فيها من كل كنز مدفون وهج فسفورى خافت من تحت الأرض. وهناك الكثير من الكنوز فى الغابة. فمونترى قد غزاها الغزاة مرات كثيرة خلال مائتى عام، وفى كل غزوة كانت تدفن الأشياء الثمينة فى الأرض.

كانت الليلة صافية. وقد خرج بيلون من قوقعته اليومية الجامدة، كما يفعل من حين لآخر. إنه الليلة بيلون المثالى، واهب العطايا. إنه مشغول الليلة برسالة إنسانية.

- يمكنك أن تأتى معى، يا بيج جو بورتاجى، ولكن إذا وجدنا أى كنز ينبغى أن أقرر أنا ما ينبغى عمله. إذا لم تكن موافقا، فى مقدورك أن تذهب وحدك وتبحث عن كنزك.

لم يكن بيج جو خبيرا فى توجيه جهوده الخاصة، لذا قال: سأذهب معك يا بيلون. إننى لا أهتم بمسألة الكنز.

وهبط الليل وهما يدلفان إلى الغابة. وعثرت أقدامهما بأحواض أعواد الصنوبر، وشعر بيلون بأنها سوف تكون ليلة رائعة كان هناك ضباب مرتفع يحجب السماء، ومن خلفه تلألأ القمر حتى امتلأت الغابة بضوء يشبه الضوء المنسكب من وراء غلالة. ولم يكن هناك شىء مميز الحدود بحيث يبدو واقعيا. لم تكن جذوع الأشجار أعمدة سوداء من الخشب، ولكنها بدت كظلال ناعمة غير واقعية. وكانت بقع النباتات المتشابكة بلا شكل دائمة التغير فى الضوء الغريب. وكان فى مقدور الأشباح أن تتجول بحرية هذه الليلة، دون أن تخشى عدم إيمان الناس، لأن هذه الليلة مسكونة، ولم يكن يجهل ذلك إلا الشخص غير الحساس.

وكان بيلون وبيج جو يمران من حين لآخر بأناس خرجوا للبحث هم أيضا، متجولين فى قلق، يتعرج طريقهم بين أشجار الصنوبر. كانت رءوسهم منحنية إلى أسفل، وكانوا يتحركون فى صمت ويمرون دون تحية. مَنْ يستطيع أن يجزم بما إذا كانوا جميعا رجالا أحياء حقيقة؟

كان جو وبيلون يعلمان أن بعض هؤلاء ليسوا سوى أشباح لأولئك الناس القدامى الذين دفنوا الكنوز، والذين يعودون للتجوال فى الأرض فى وقفة عيد القديس اندرو ليتحققوا من أن ذهبهم لم يمسسه أحد. وضع بيلون ميدالية القديس حول رقبته وتدلت خارج ملابسه حتى لا يخالجه خوف من الأرواح، مشى بيج جو وأصابعه متقاطعة على هيئة الصليب المقدس. ورغم الخوف الذى ربما انتابهما، إلا أنهما كانا يدركان أن لديهما من الحماية أكثر مما يكفى لهذه الليلة الغريبة.

وهبت الريح وهما يسيران، فدفعت الضباب عبر القمر الشاحب وكأنه طلاء رقيق من اللون الرمادى. وأضفى الضباب المتحرك أشكالا متغيرة على الغابة، حتى بدا إن كل شجرة تزحف متسللة وأن الشجيرات تتحرك بلا صوت، كما لو كانت قططا سوداء ضخمة. وكانت قمم الأشجار تتحدث وسط الرياح بصوت خشن، تتحدث عن الطالع وتتنبأ بالموت. وكان بيلون يعلم أن ليس من الخير أن يستمع إلى حديث الأشجار. لم يحدث أبدا إن كان هناك خير فى معرفة المستقبل، أضف إلى هذا، أن ذلك الهمس لم يكن مباركا. وهكذا حول أذنيه عن حديث الأشجار.

وبدأ يسير متعرجا خلال الغابة. وراح بيج جو يسير بجواره ككلب هائل يقظ. ومر بهما رجال فرادى صامتين، ومضوا دون تحية، ومر بهما موتى بلا صوت، ومضوا دون تحية.

وأخذ انذار الضباب يعوى عند المرفأ، بعيدا هناك تحتهما، معلنا عن حزنه على جميع السفن الطيبة التى غرقت لاصدامها بالصخور الحديدية، وعلى أولئك الآخرين الذين سوف يموتون يوما ما هناك.

ارتجف بيلون وشعر بالبرد، مع أن الليلة كانت دافئة. وهمس باسم العذراء وهو يلهث.

ومرا برجل أشيب كان يمشى محنى الرأس ولم يبادرهما بالتحية.

ومضت ساعة ومازال بيلون وبيج جو يتجولان فى قلق مثل قلق الموتى الذين زحموا الليل.

وفجأة توقف بيلون. وبحثت يده عن ذراع بيج جو. وهمس:

- هل ترى؟

- أين؟

- أمامنا مباشرة.

- نعم أظن ذلك.

بدا لبيلون أنه يرى عمودا ناعما من الضوء الأزرق ينبثق من تحت الأرض على بعد عشر ياردات أمامه.

همس: بيج جو. ابحث عن عصوين ثلاثة أو أربعة أقدام، لا أريد أن أبعد نظرى عن هنا خشية أن أفتقد هذا الكنز.

ووقف بيلون كالكلب الحارس بينما انطلق بيج جو يبحث عن العصوين. وسمعه بيلون يكسر فرعين جافين صغيرين من شجرة صنوبر. وسمع الطرقعة التى أحدثها بيج جو وهو يكسر الأغصان من العصوين. وظل بيلون يحدق فى العمود الشاحب من الضوء المغبش. كان الضوء خافتا، بدا فى بعض الأحيان وكأنه سيختفى تماما. وكان بيلون يشك فيما إذا كان قد رأى شيئا حقا. ولم يحرك عينيه عندما وضع بيج جو العصوين فى يده. وضع بيلون العصوين فى وضع متقاطع بزوايا قائمة وتقدم فى بطء، رافعا الصليب أمامه. وعندما أقترب، بدا وكأن الضوء يتلاشى، ولكنه وجد المكان الذى كان ينبثق منه الضوء، وكان عبارة عن منخفض مستدير تماما وسط أعواد الصنوبر.

وضع بيلون صليبه على المنخفض وقال: كل ما هو مدفون هنا ملكى بحكم الاكتشاف. فلتذهبى بعيدا، يأكل الأرواح الشريرة ابتعدى، يا أرواح الرجال الذين دفنوا هذا الكنز. وقال باللاتينية: باسم الأب والابن والروح القدس "In Nomen Palris et Filins et Spiritus Sancti"

وانبعثت منه تهيدة عظيمة، وجلس على الأرض.

- أوه، لقد عثرنا عليه، يا صديقى بيج جو. لقد بحثت عنه منذ عدة سنوات، وقد وجدته الآن.

قال بيج جو: دعنا نحفر.

لكن بيلون هز رأسه فى ضيق: عندما تكون كل الأرواح طليقة؟ عندما يكون مجرد وجودنا هنا يحمل الخطر؟ أنت أحمق يا بيج جو. إننا سنجلس هنا حتى الصباح، وعندئذ نحدد المكان، وفى ليلة الغد نقوم بالحفر. ليس فى مقدور أحد غيرنا الآن أن يرى الضوء بعد أن وضعنا الصليب على المكان، لن يكون هناك خطر فى ليلة الغد.

بدا الليل أكثر رهبة الآن وهما جالسان بين أعواد الصنوبر، ولكن الصليب بعث دفء القداسة والأمن فيهما، كما لو كان شعلة صغيرة على الأرض، ولكنه كان كالنار أيضا من حيث أنه لم يدفىء إلا وجهيهما. أما ظهرهما فقد تعرضا للبرد وللأرواح الشريرة التى تذرع الغابة.

نهض بيلون ورسم دائرة كبيرة حول المكان كله، وكان هو بداخل الدائرة عندما أغلقها. وأنشد: لتمتنع كل الكائنات الشريرة عن اختراق هذا الخط، باسم يسوع المبارك وعاد إلى الجلوس مرة أخرى. وشعر كلاهما بتحسن. كان فى مقدورهما سماع وقع أقدام خافتة لأشباح متجولة متعبة، كما كان فى مقدورهما رؤية الأضواء الضعيفة التى تنبثق من الأشكال الشفافة أثناء مرورهما بها، ولكن الخط الذى كانا يحتميان بداخله كان منيعا. لم يكن هناك كائن شرير من هذا العالم أو من أى عالم آخر يستطيع النفاذ إلى داخل الدائرة.

وسأل بيج جو: ما الذى ستفعله بالنقود؟

نظر بيلون إليه بازدراء: أنت لم تبحث عن كنز أبدا يا بيج جو بورتاجى، لأنك لا تعرف ماذا تعمل به. ليس فى مقدورى أن أحتفظ بهذا الكنز لنفسى، لو أنى ذهبت مضمر الاحتفاظ به، فإن الكنز سوف يدفن نفسه عميقا عميقا فى الرمال، ولن أعثر عليه أبدا لا، ليس الأمر كذلك. إننى سوف أخرج هذا الكنز من أجل دانى.

ظهرت كل مثالية بيلون فى هذه اللحظة، وأخبر بيج جو بمدى كرم دانى نحو أصدقائه.

وقال: إننا لا نفعل شيئا من أجله. لا ندفع له إيجارا. وأحيانا نسكر ونحطم الأثاث، وأحيانا نتعارك معه عندما نغضب منه، ونمطره بالسباب. أوه، نحن أناس أشرار جدا، يابيج جو هكذا قمنا نحن جميعا، بابلو ويسوع ماريا والقرصان وأنا، ببحث الأمر ووضع الخطة. وخرجنا جميعا إلى الغابة هذه الليلة، للبحث عن الكنز، وسيكون الكنز من نصيب دانى. إنه طيب جدا يا بيج جو. وهو كريم جدا، بينما نحن فى غاية السوء، فلو استطعنا أن نقدم له مقدار زكيبة كبيرة من الكنز، لفاض قلبه بالسعادة. لقد استطعت أن أعثر على هذا الكنز لأن قلبى تحرر من الأنانية.

سأل بيج جو فى شك: ألن تحتفظ لك بشىء منه؟ ولا حتى ثمن جالون من النبيذ؟

غير أن الجانب الشرير من بيلون لم يكن يتقمصه هذه الليلة بالمرة. أجاب: - لا، ولا ذرة من الذهب! ولا بنس صغيرا! سيكون الكنز كله لدانى، كل قطعة فيه.

شعر جو بخيبة أمل. وأخذ ينوح: مشيت كل هذا الطريق ثم لا أحصل مقابل ذلك حتى على كأس من النبيذ.

قال بيلون فى رقة: عندما يأخذ دانى النقود، ربما يشترى بعض النبيذ، وأنا لن أقترح عليه ذلك بالطبع، لأن هذا الكنز من حقه هو. ولكنى أعتقد أنه ربما يشترى قليلا من النبيذ فإذا كنت لطيفا معه، ربما تحصل منه على كأس.

شعر بيج جو بالارتياح، لأنه كان يعرف دانى منذ زمن بعيد وكان يعتقد أن من الممكن أن يشترى دانى مقدارا هائلا من النبيذ.

ومضى الليل عليهما. وغاب القمر فغرقت الغابة فى ظلام دامس. وراح الضباب يصرخ ويصرخ. وقد ظل بيلون طوال الليل محتفظا بنقاء روحه. وألقى على بيج جو بعض العظات كما هو شأن المتدينين الجدد.

قال: أولى بك أن تكون طيبا وكريما. إن ذلك لا يهيىء للمرء منزلا للسعادة فى السماء فحسب، ولكن هناك أيضا الجزاء السريع هنا على

الأرض، إذ يشعر الإنسان بدفء ذهبى يتوهج مثل الطعام الدافىء فى البطن، إن روح الله تدثر المرء بمعطف ناعم كشعر الجمل. أنا لم أكن رجلا خيرا دائما، يا بيج جو بورتاجى، اعترف بذلك صراحة.

وكان بيج جو يعرف ذلك معرفة تامة.

واستطرد بيلون فى انتشاء وقد شعر بالرضا التام عن نفسه لقد كنت سيئا، كذبت وسرقت، وارتكبت الفسق والفحشاء وجدفت باسم الله.

قل بيج جو فى سعادة: وأنا أيضا.

- وماذا كانت النتيجة. يا بيج جو بورتاجى؟ كانت مشاعرى منحطة. كنت أعرف إننى سوف أذهب إلى الجحيم. ولكنى أدرك الآن أن الخاطىء ليس أبدا من السوء إلى الحد الذى لايستطيع معه أن ينال المغفرة، وبرغم إنى لم أذهب أبدا للاعتراف، الا أننى أشعر أن التحول الذى حدث لى برضا الله، لأنه يشملنى بعنايته لو أنك أيضا غيرت مسلكك، يا بيج جو، لو امتنعت عن الشراب والشجار وعن هاته الفتيات اللاتى فى منزل دورا ويليامز، ستشعر أنت أيضا بنفس الشعور.

غير أن بيج جو كان قد استغرق فى النوم، فلم يكن يستطيع أبدا أن يظل فترة طويلة متيقظا وهو ساكن لا يتحرك.

لم تكن الفضيلة لتستبد ببيلون لو هو عجز عن الكلام عنها لبيج جو. لكنه جلس وراح يرقب مكان الكنز بينما اكتست السماء باللون الرمادى وبدا الفجر من خلف الضباب. ورأى أشجار الصنوبر تتخذ لها أشكالا وتبرز من وسط الضباب. وسكنت الريح وخرجت الأرانب الصغيرة الزرقاء من بين الأحراش وراحت تتقافز بين أعواد الصنوبر. كانت عينا بيلون متثاقلتين لكنه كان سعيدا.

عندما تبدى نور النهار هز بيلون بقدمه بيج جو بورتاجى حان الوقت للذهاب إلى بيت دانى. لقد طلع النهار وألقى بيلون الصليب بعيدا، فلم يعد هناك حاجة إليه، ومحا الدائرة. ثم قال: والآن لا ينبغى أن تظهر أية علامة، وإنما ينبغى أن نتذكر هذا المكان بواسطة الأشجار والصخور.

سأل بيج جو: ولم لا نحفر الآن؟

أجاب بيلون متهكما ويحضر كل شخص فى تورتيلا فلات لمساعدتنا!

تفحصا ما حولهما بإمعان قائلين: توجد هناك على اليمين ثلاث أشجار متجاورة، وشجرتان إلى اليسار، وتلك البقعة من النباتات الشيطانية هناك، كما توجد هنا صخرة وأخيرا ابتعدا عن الكنز، وهما يتذكران الطريق أثناء سيرهما.

وفى منزل دانى وجدا أصدقاء مرهقين. قال الأصدقاء: هل وجدت شيئا؟

- لا قالها بيلون بسرعة، حتى يقطع الطريق على اعتراف جو.

- حسن، لقد ظن بابلو أنه رأى الضوء، لكنه اختفى قبل أن يتمكن من الوصول إليه، كما رأى القرصان شبح امرأة جوز، أخذت كلبه معها.

افترت شفتا القرصان عن ابتسامة. وقال: أخبرتنى تلك العجوز أن كلبى ينعم بالسعادة.

وأعلن بيلون: إليكم بيج بورتاجى، لقد عاد من الحرب.

- مرحبا بك يا جو.

قال البورتاجى: آه.. إنكم تنعمون بمكان مريح هنا وجلس مسترخيا فى بساطة على أحد الكراسى.

قال دانى لكن لا تقترب من سريرى فقد شعر أن جو بورتاجى قد جاء ليقيم بينهم. كانت الطريقة التى جلس بها على الكرسى واضعا إحدى ساقيه على الأخرى تدل على نية البقاء.

وخرج القرصان، وأخذ عربة اليد الصغيرة ومضى إلى الغابة لقطع الأخشاب، أما الرجال الخمسة الآخرون فقد تمددوا فى الشمس التى بدت وسط السحاب، ثم ما لبثوا أن ناموا.

لم يستيقظ أحد منهم حتى بعد الظهيرة بقليل، وأخيرا مدوا أذرعهم واعتدلوا فى جلستهم وراحوا ينظرون بقلق إلى الخليج تحت أبصارهم، حيث تحركت فى بطء ناقلة بترول بنية اللون متجهة إلى البحر، وكان القرصان قد ترك الحقائب على المنضدة، وفتحها الأصدقاء وأخرجوا

الطعام الذى كان قد جمعه.

وقطع بيج جو الممر نحو البوابة قائلا لبيلون: أراك فيما بعد.

وراقبه بيلون فى قلق حتى رآه ينحدر إلى أسفل التل فى طريقه إلى مونترى ولم يتجه إلى غابة الصنوبر. وجلس الأصدقاء الأربعة وراحوا يرقبون المساء المقبل جالسين.

وعاد جو بورتاجى فى غبشة المساء. وعقد مع بيلون مؤتمرا فى الفناء، بعيدا عن أسماع من فى البيت.

قال بيلون: سوف نستعير الأدوات من السيدة موراليس هناك جاروف ومعول بجوار عشة الدجاج.

وشرعا فى العمل عندما هبط الظلام. قال بيلون مبررا خروجهما للأصدقاء: «سنذهب لنرى بعض صديقات جو بورتاجى وزحفا إلى فناء السيدة موراليس واستعارا الأدوات. وبعدئذ أخرج بيج جو قنينة خمر من بين النباتات الشيطانية القائمة على الطريق.

صاح بيلون فى وحشية: هل بعت الكنز. أنت خائن يا كلب يا سليل الكلاب.

أخذ بيج جو يهدئه فى حزم. وقال له فى شىء من الكبرياء لم أذكر مكان الكنز. لقد تكلمت كما يلى: وجدنا كنزا، ولكنه سيكون لدانى. وعندما يحصل عليه دانى، سأقترض منه دولارا وأسدد قيمة النبيذ.

وانفعل بيلون متسائلا: وصدقوك، وأعطوك النبيذ.

أجاب بيج مترددا: حسن - تركت لديهم شيئا ما لأثبت أننى سأحضر لهم الدولار.

التفت بيلون إليه كالبرق وأمسك بخناقه: ما الذى تركته.

صاح جو بورتاجى مولولا: بطانية صغيرة فقط، واحدة فقط.

وأراد بيلون أن يهزه بعنف، ولكن بيج جو كان ثقيل الوزن جدا إلى حد أن بيلون لم يفلح إلا فى هز نفسه هو. وصاح: أى بطانية؟ أجب أى بطانية تلك التى سرقتها؟

أجاب بيج جومتشنجا بالبكاء: واحدة فقط من بطاطين دانى. واحدة

فقط. إنه يمتلك بطانيتين. أخذت فقط البطانية الصغيرة جدا. لا تؤلمنى يا بيلون. البطانية الأخرى أكبر وسوف أعيدها لدانى عندما نخرج الكنز.

أداره بيلون بسرعة وضربه بقدمه ضربة محكمة قاتلة. وانفجر فيه: خنزير، بقرة قذرة سارقة. سوف تعيد البطانية وإلا مزقتك أربا.

حاول بيج جو أن يهدئه وهمس له: لقد فكرت كيف إننا نعمل من أجل دانى. وقلت لنفسى سيكون دانى سعيدا جدا وسيكون فى مقدوره أن يشترى مائة بطانية جديدة.

رد بيلون عليه: اسكت. ستعيد تلك البطانية نفسها ثانية وإلا حطمت رأسك بصخرة. وأخذ قنينة الخمر وفتحها وشرب منها قليلا من النبيذ ليهدىء أعصابه المتوترة، وأكثر من ذلك، أنه أعاد السدادة إلى القنينة ورفض أن يعطى البورتاجى ولو قطرة واحدة. وقال له: عقابا لك على هذه السرقة لابد أن تقوم وحدك بعملية الحفر كلها. اجمع هذه الأدوات وتعال معى.

عودى بيج جو كالكلب الصغير، لكنه خضع. لم يكن يستطيع أن يقف فى وجه بيلون بغضبه العادل.

ظلا فترة طويلة يحاولان العثور على مكان الكنز. وكان الوقت متأخرا عندما أشار بيلون إلى ثلاث شجرات فى صف واحد قائلا: ها هو ذا.

وراحا يبحثان حول المكان حتى وجدا المنخفض الأرضى كان هناك شعاع ضئيل من ضوء القمر يرشدهما إلى الطريق وكانت السماء خالية من الضباب فى تلك الليلة.

وإذ وجد بيلون إنه لن يكون هو الذى يقوم بالحفر، ابتكر نظرية جديدة للكشف عن الكنز. قال: فى بعض الأحيان توضع النقود فى جوالات. والجوالات تبلى. فلو حفرت إلى أسفل مباشرة ربما بددت بعضها. وأخذ يخط دائرة واسعة حول المنخفض. والآن، احفر عميقا حول المكان حتى نجد الكنز كله بين أيدينا.

وسأل بيج جو: ألن تحفر معى؟

انفجر بيلون غاضبا: هل أنا الذى سرقت البطاطين؟ هل أنا الذى

سرقت من سرير صديقى الذى يؤوينى؟

قال بيج جو: حسن، لن أقوم بالحفر كله.

التقط بيلون فرعا من فروع الصنوبر كان فى الليلة السابقة فقط بمثابة جزء من الصليب، وتقدم من بيج جو بورتاجى منذرا مزمجرا: لص، خنزير قذر وصديق مزيف. التقط هذا الجاروف.

وانهارت شجاعة بيج جو، ومال على الأرض ليلتقط الجاروف. لو لم يكن ضمير جو بورتاجى سيئا، لأبدى اعتراضه ولكن خوفه من بيلون كان عظيما، لأنه مسلح بقضية عادلة وبعصا من خشب الصنوبر.

كان بيج جو يمقت تماما مبدأ العمل بالجاروف. لم يكن منظر الجاروف المتحرك جذابا فى نظره. إن الهدف المراد تحقيقه وهو نقل الطين من مكان إلى آخر، يعتبر بالنسبة للشخص البعيد النظرة، هدفا سخيفا وأجوف. لا تستطيع حياة كاملة من العمل بالجاروف انتاج شىء ذى بال. لكن الأمر بالنسبة لبيج جو كان أكثر بساطة من ذلك. فهو لم يكن يحب العمل بالجاروف. كان قد التحق بالجيش ليحارب، لكنه لم يفعل شيئا سوى الحفر بالجاروف.

غير أن بيلون وقف على رأسه، وراقب الحفر حول مكان الكنز. ولم يشفع لبيج جو ادعاء المرض أو الجوع أو الضعف. كان بيلون صلبا معه، وكانت سرقة جو للبطانية تقف ضده. وبالرغم من أن بيج جو كان يئن ويشكو ويرفع يديه ليظهر مدى الورم الذى حاق بهما، وقف بيلون على رأسه وأرغمه على الحفر.

وانتصف الليل، وأصبح عمق الدائرة ثلاثة أقدام وتصايحت الديكة فى مونترى. وغرق القمر خلف الأشجار. وأخيرا أصدر بيلون أمره بالتقدم إلى داخل الدائرة - نحو الكنز. وتباطأت الضربات، كان بيج جو قد انهكه التعب. وقبل الفجر ارتطم جاروفه بشىء صلب.

صاح: هيه، وجدناه يا بيلون.

كان شيئا كبيرا مربعا، وأخذا يحفران فى الظلام، لكن لم يكن فى

مقدورهما رؤيته بوضوح.

قال بيلون منبها: كن حريصا. لا تمسه بضرر.

وانبثق ضوء النهار قبل أن يتمكنا من اخراج هذا الشيء. شعر بيلون بوجود معدن، وانحنى إلى أسفل عله يرى فى الضوء الرمادى. كان قطعة كبيرة جدا، مربعة، من الأسمنت المسلح. وكان على قمتها لوحة بنية مستديرة. وتهجى بيلون الكلمات المكتوبة على اللوحة.

ادارة المساحة بالولايات المتحدة + ١٩١٥ + الارتفاع ٦٠٠ قدم جلس بيلون فى الحفرة وتدلى كتفاه بالهزيمة.

وتساءل بيج جو فى صوت حزين: لا يوجد كنز؟

لم يجبه بيلون. وتفحص البورتاجى عمود الأسمنت، وتجمدت جبهته من أثر التفكير. ثم تحول إلى بيلون الحزين: ربما نستطيع أخذ هذه القطعة الجيدة من المعدن لبيعها.

وأفاق بيلون من غمرة أحزانه. وقال بهدوء الفشل: كان جونى بوم - بوم قد وجد واحدة. وقد أخذ بوم - بوم القطعة المعدنية وحاول بيعها. إن عقوبة هذا العمل السجن لمدة عام ثم استطرد فى حزن: السجن سنة وغرامة ألفى دولار ولم يكن بيلون يريد شيئا الآن، فى محنته، سوى الابتعاد عن هذا المكان المفجع. فوقف، ووجدبعض الأعشاب لف بها زجاجة النبيذ، ومشى منحدرا من التل.

ومضى بيج يتعثر خلفه.

وسأله: إلى أين نذهب؟

أجاب بيلون: لا أدرى.

كان النهار ساطعا عندما بلغا الشاطىء، لكن بيلون لم يتوقف عن المشى. جعل يدب فوق الرمال الجافة بالقرب من حافة المياه حتى صارت مونترى بعيدة خلفه، ولم يعد هناك من يشهد أحزانه سوى كثبان الرمال بالشاطىء وأمواج الخليج المتعرجة. وأخيرا جلس على الرمل الجاف، تحيطه الشمس الدافئة. وجلس بيج جو بجواره، وقد شعر بأنه مسئول

بطريقة ما عن الحزن الصامت الذى يعتصر بيلون.

أخرج بيلون قنينة الخمر من أعشابها وفتحها وراح يشرب منها بعمق، ولما كانت الأحزان هى أم التعاطف العام، فان بيلون ناول زجاجة نبيذ جو إلى جو الوغد.

صاح بيلون: كيف بنينا. وكيف قادتنا أحلامنا. كنت أفكر كيف سنحمل حقائب الذهب إلى دانى. كنت أتخيل كيف يكون تعبير وجهه. كان سيدهش. كان سيظل فترة طويلة لا يصدق الأمر وتناول الزجاجة من جو بورتاجى وراح يعب منها. ضاع كل شىء، راح أدراج الرياح فى الليل.

كانت الشمس تدفىء الشاطىء. وبالرغم من خيبة أمل بيلون، شعر بارتياح خفى يتسلل إليه، شعر بدافع شرير إلى اكتشاف بعض النقاط الجيدة فى الموقف.

كان بيج جو يشرب بطريقته الهادئة أكثر من نصيبه من النبيذ. تناول بيلون الزجاجة فى غضب وراح يشرب منها مرة بعد أخرى.

وقال بيلون بطريقة فلسفية: ولكن بعد كل شىء، ربما لو كنا عثرنا على ذهب، لكان ذلك فى غير مصلحة دانى. لقد ظل فقيرا طوال حياته. وربما تصيبه الثروة بالجنون.

أومأ بيج جو برأسه - فى وقار - موافقا. وأخذت الخمر تتناقص وتتناقص فى الزجاجة.

قال بيلون: السعادة أفضل من المال. لو حاولنا أن نجعل دانى سعيدا، لكان هذا أفضل من منحه مالا.

أومأ بيج جو برأسه مرة أخرى وخلع حذاءه: لنجعله سعيدا. هذه هى القضية.

التفت بيلون إليه فى أسى. وقال بهدوء: أنت لست سوى خنزير، ولا تصلح للعيش مع الناس. ينبغى لك أن تظل فى إحدى الحظائر وتتغذى بقشر البطاطس يا سارق بطانية دانى.

وأخذ النعاس يدب إلى عيونهما تحت الشمس الدافئة، وتهامست

الأمواج الصغيرة على الشاطئ. وخلع بيلون حذاءه.

وقال بيج جو: «حتى ستيفن» وأفرغا القنينة فى جوفيهما حتى آخر قطرة.

كان الشاطئ يتمايل برقة ويعلو ويهبط بحركة أشبه بهزة أرضية.

قال بيلون: أنت لست رجلا سيئا غير أن بيج جو بورتاجى كان قد نام. وخلع بيلون معطفه ووضعه على وجهه. وبعد لحظات، كان ينام هو الآخر فى عذوبة.

ومسحت الشمس وجه السماء. واتجه المد إلى الشاطئ، ثم انحسر. وتفحصتهما جماعة من الصعاليك وتشممهما كلب ضال. وكانت هناك سيدتان كبيرتان فى السن تجمعان القواقع، شاهدتا الجسدين، فمرتا بهما مسرعتين، خشية أن يستيقظا منفعلين، ويتعقبانهما ويهاجمانهما. أنه لمن المخجل، فى رأيهما أن رجال الشرطة لا يفعلون شيئا إزاء هذه الأمور.

قالت إحداهما: إنهما ثملان.

وحدقت الأخرى إلى الرجلين النائمين على الشاطئ خلفهما وقالت مؤيدة: حيوانان سكيران.

عندما توارت الشمس أخيرا، وراء أشجار صنوبر التل الذى خلف مونترى، أستيقظ بيلون. كان فمه جافا شديد الجفاف وكان رأسه مليئا بالصداع، وجسده متخشبا من أثر الرمل الخشن، بينما استمر بيج جو يغط فى نومه.

صاح بيلون: «جو» لكن البورتاجى كان أبعد من أن يصله النداء استند بيلون إلى مرفقه وراح يحدق فى البحر. وقال لنفسه: «ربما يكون فى القليل من الخمر فائدة لحلقى الجاف» وقلب القنينة على فمه ولكن لم يسقط منها قطرة واحدة ترطب لسانه الجاف. وعندئذ أخرج جيوبه آملا أن تكون معجزة ما قد حدثت هناك أثناء نومه، لكن لم تحدث أية معجزة. كان ما فيها عبارة عن مدية مكسورة حاول عشرين مرة على الأقل أن يستبدلها بزجاجة نبيذ فلم يقبل أحد، وسنارة لصيد السمك مثبتة فى قطعة فلين، وخيط قذر، وسن كلب، ومفاتيح مختلفة لا يعرف

بيلون لها فائدة. لم يكن معه بوجه عام شيء يمكن أن يعتبره توريللى مما يستحق أخذه ولو فى لحظة جنون.

نظر بيلون بإمعان إلى بيج جو. وفكر: «صديق مسكين، عندما يستيقظ جو البورتاجي، سوف يشعر بالجفاف الذى أشعر به. وسيفرح لو وجد معى قليلا من النبيذ» وأخذ يدفع بيج جو بخشونة عدة مرات، ولكن البورتاجى همهم فقط، ثم مضى فى شخيره مرة أخرى، عندئذ بحث بيلون فى جيوبه، وجد زرار بنطلون نحاسى، وميدالية معدنية صغيرة تقول: «المتازون يأكلون لدى الهولندى» أربعة أو خمسة أعواد كبريت بلا رءوس وقطعة صغيرة من التبغ الذى يمضغ.

وعاد بيلون يجلس على كعبيه. لا فائدة إذن. ينبغى أن يجف هنا على الشاطىء وحلقه يتشهى النبيذ.

ولاحظ البنطلون الصوفى الخشن الذى كان يرتديه البورتاجى. تحسسه بأصابعه وفكر: «قماش جميل. لماذا يرتدى هذا البورتاجى القذر مثل هذا القماش الجيد فى حين يرتدى جميع رفاقه البنطلونات القطنية؟».

وتذكر أن البنطلون غير مناسب لبيج جو، أن الوسط ضيق جدا حتى مع عدم استعمال زرارين ضائعين، كما أن حافة البنطلون تعلو الحذاء ببوصات. وقد يسعد شخص ما مناسب الحجم بهذا البنطلون.

وتذكر بيلون جريمة بيج جو ضد دانى، وإذا به يصبح ملاكا مهمته الثأر. كيف جرؤ هذا البورتاجى الأسود الضخم على إهانة دانى بهذا الشكل!: عندما يستيقظ سأضربه! لكنه ناقش الموضوع بطريقة أكثر حكمة قائلا: «أن جريمته هى السرقة. أفلا يكون درسا طيبا ألقنه له لو جعلته يدرك كيف يكون شعوره لو سرق منه شىء؟ ما فائدة العقاب إذا لم نتعلم منه شيئا؟!» أنها نتيجة موفقة توصل إليها بيلون. استطاع فى ضربة واحدة أن يثار لدانى، ويؤدب بيج جو، بهذا يلقنه درسا أخلاقيا ويحصل على بعض الخمر، من يستطيع أن ينتقده فى ذلك؟

وراح يدفع البورتاجى بقوة، وحرك بيج جو يده نحوه كأنما يطرد عنه

ذبابة. ونزع بيلون بنطلون جو بمهارة، ولفه وأخذ يبتعد بلا مبالاة عبر كثبان الرمل.

لم يكن توريللى موجودا، ولكن السيدة توريللى فتحت الباب لبيلون. كان غريبا فى مسلكه، ولكنه رفع أخيرا أمام عينيها البنطلون لتتفحصه.

هزت رأسها فى حزم.

قال بيلون: ولكن انظرى. إنك تنظرين فقط إلى البقع والقذارة. انظرى إلى هذا القماش الرائع الذى تحت القذارة فكرى، يا سنيورة! يمكنك تنظيف البنطلون من البقع وكيه! ثم يأتى توريللى! ويكون صامتا، مكتئبا. وعندئذ تقدمين له هذا البنطلون الرائع «انظرى كيف تلمع عيناه أنظرى كيف يكون سعيداً بأخذك إلى حجرة ! أنظرى كيف يبتسم لك يا سنيورة أليست كل هذه السعادة أغلى بكثير من جالون نبيذ أحمر؟

أجابت: حجر البنطلون خفيف.

رفع بيلون البنطلون فى الضوء: هل تستطعين الرؤية خلاله؟ لا! لقد أزيلت منه فقط الخشونة والتجاعيد. إنه فى أحسن حال.

قالت فى حزم: لا.

- أنت قاسية على زوجك، ياسنيورة. إنك تنكرين عليه السعادة. لن أدهش حينما أراه ذاهبا إلى النساء الأخريات اللاتى لسن بهذه القسوة. مقابل ربع جالون، إذن؟

ضعفت مقاومتها فى النهاية وأعطته ربع الجالون فشربه عن آخره فى الحال. وقال مهددا: «لقد حاولت بخس ثمن المتعة. كان ينبغى أن أحصل على نصف جالون».

غير أن السيدة توريللى كانت صلبة كالحجر. ولم يستطع بيلون أن يحصل منها بعد ذلك على قطرة واحدة، وجلس فى المطبخ مفكرا «يهودية، إنها لكذلك. لقد خدعتنى على حساب بنطلون بيج جو».

وفكر بيلون بأسى فى صديقه الذى يرقد هناك على الشاطىء ما الذى يستطيع أن يفعله؟ لو جاء إلى المدينة سيقبض عليه. ثم ما الذى

فعلته هذه المرأة الجشعة حتى تستحق هذا البنطلون؟ لقد حاولت أن تشترى بنطلون صديق بيلون مقابل ربع جالون حقير من النبيذ الردىء. وشعر بيلون بأنه يتفجر بالسخط عليها.

قال للسيدة توريللى: سأخرج بعد دقيقة. كان البنطلون معلقا فى تجويف صغير خارج المطبخ.

- إلى اللقاء، قالتها السيدة توريللى من خلف ظهرها وذهبت إلى حجرة الكرار لإعداد العشاء.

ومر بيلون فى طريقه إلى الخارج على التجويف ولم يجذب البنطلون فقط وإنما جذب أيضا بطانية دانى.

ومشى بيلون متجها إلى الشاطىء، إلى المكان الذى غادر فيه بيج جو. وشاهد شعلة تسطع فى احتراقها على الرمل وكلما أقترب، رأى عددا من الأشباح السود الصغيرة تمر أمام اللهب. كانت الظلمة كثيفة فى هذه اللحظة، وسار على هدى النار. وعندما اقترب رأى فتيات كشافة. واقترب فى حذر.

ظل لحظة لايستطيع رؤية بيج جو، لكنه وجده أخيرا، راقدا وقد تغطى نصف جسمه بالرمل، وأعجزه البرد والألم عن الكلام، تقدم بيلون منه فى حزم ورفع أمامه البنطلون.

- «خذه يا بيج جو، ولتفرح لأنك استعدته ثانية».

كانت أسنان جو تصطك: من سرق بنطلونى يا بيلون؟لقد رقدت هنا طوال ساعات، لم يكن فى مقدورى أن أبتعد عن المكان بسبب هؤلاء الفتيات.

وأضطر بيلون أن يقف بين بيج جو وبين الفتيات الصغيرات اللاتى يدرن بسرعة حول الشعلة. وأزاح البورتاجى الرمل الرطب البارد عن ساقيه وأرتدى بنطلونه. وسارا جنبا إلى جنب على الشاطىء المظلم فى طريقهما إلى مونترى، حيث بدت الأضواء معلقة عقودا فوق عقود على التل، وكانت كثبان الرمال تجثم فوق مؤخرة الشاطىء ككلاب متعبة تستريح، وكانت الأمواج تمارس ضرباتها فى رقة، وينبعث منها همس

خفيف، وكان الليل باردا ومعزولا، بعد أن أنسحبت حياته الدافئة، حتى بدا مليئا بتحذيرات مريرة للإنسان بأنه وحيد فى العالم، ووحيد وسط أصدقائه، وأنه لن ينال الراحة فى أى مكان.

كان بيلون لا يزال يفكر، وكان بيج جو يتحسس أغوار مشاعره وأخيرا التفت بيلون نحو صديقه قائلا: لقد تعلمنا من ذلك درسا وهو أن الثقة بامرأة أمر بالغ الحماقة.

وتساءل بيج جو فى انفعال: هل استولت امرأة على بنطلونى؟ من هى؟ سأريها الويل بقدمى!

لكن بيلون هز رأسه بحزن كالإله القديم الذى وجد، بعد أن استراح فى اليوم السابع، أن عالمه متعب. وقال بيلون: لقد عوقبت. فى مقدورك أن تقول إنها عاقبت نفسها، وهذه هى أفضل طريقة. لقد كان بنطلونك معها، وأشترته فى جشع، والآن البنطلون ليس معها.

كانت هذه الأمور أبعد من ادراك جو بدت غامضة فرأى أن الأفضل أن يدعها جانبا، وهذا هو ما أراده بيلون. قال بيج جو فى مسكنة: شكرا على أنك أعدت لى بنطلونى يا بيلون. لكن بيلون كان قد غرق فى التأمل الفلسفى حتى أصبح الشكر لديه بلا معنى.

وقال: العفو. إن الذى يهم فى الأمر كله هو الدرس الذى تعلمناه.

وصعدا مبتعدين عن الشاطىء ومرا بالبرج الفضى العظيم بمصنع الغاز.

كان بيج جو البورتاجى سعيدا بمصاحبة بيلون. وفكر: «ها هو ذا شخص يهتم بأصدقائه حتى وهم نائمون يكون يقظا ساهرا على راحتهم وأمنهم». وقرر أن يفعل شيئا طيبا يوما ما من أجل بيلون.

٩ كيف وقع دانى فى حبائل مكنسة كهربائية . وكيف أنقذه أصدقاؤه منها .

كانت دولوريس انجراثيا راميريث تقيم فى منزلها الصغير على الجانب العلوى من منطقة تورتيلا فلات. وكانت تقوم بالأعمال المنزلية لبعض سيدات مونترى. وهى تنتمى إلى بنات البلد فى جولدن وست. لم تكن جميلة، تلك الفلاحة النحيلة الوجه، ولكن قوامها كان به سمة معينة توحى بالشهوة، كما أن صوتها كان يمتاز ببحة ذات دلالة لدى بعض الرجال. وكان فى مقدور عينيها أن تحترقا خلف غلالة من الرغبة النائمة، التى يجد فيها هؤلاء الرجال، الذين يهتمون بالجسد، جاذبية ونداء مباشرا.

لم تكن مرغوبة فى لحظات فظاظتها، ولكن فى أغلب الأحيان كان يرتسم على ملامحها طابع غرامى حتى إنهم أطلقوا عليها فى تورتيلا فلات: راميريث الحلوة.

لعل من المبهج أن تراها وقد تحرك الحيوان الذى بداخلها. كيف تستند إلى البوابة الخارجية ، كيف يبدو صوتها ناعسا! كيف يهتز ردفاها برقة، ثم يضغطان على السور، ثم يبرزان كموجة على الشاطىء فى فصل صيف، ويعودان للضغط على السور من جديد! من تستطيع أن تشحن صوتها بكل هذه البحة ذات المعانى عندما تقول: صديقى، إلى أين؟

الحق أن صوتها مرتفع عادة، ووجهها جامد وحاد كالبلطة، وقوامها

مكتنز، كما أنها أنانية الأغراض. أما مظهرها الناعم فلا يستولى عليها إلا مرة أو مرتين فى الأسبوع، وعادة ما يكون ذلك فى المساء عندما سمعت راميريث الحلوة أن دانى أصبح وارثا، فرحت له. وراحت تحلم بأن تكون زوجته، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة أخرى فى تورتيلا فلات. كانت تستند فى المساء إلى البوابة الخارجية منتظرة الوقت الذى قد يمر فيه ويقع فى شباكها. ولكن سنارتها ظلت فترة طويلة دون أن تصطاد شيئا سوى هنود وفلاحين مساكين لا يملكون المأوى، يرتدون ملابس مهربة أحيانا من دواليب راقية.

لم تكن الحلوة راضية عن ذلك. كان منزلها يقع فى أعلى التل بعيدا فوق منزل دانى، فى اتجاه لا يسير فيه كثيرا. ولم تكن تستطيع أن تذهب للبحث عنه. إنها سيدة، سلوكها يخضع لقواعد محافظة صارمة جدا. لو مر بها دانى الآن، لو تكلما معا، كما ينبغى للأصدقاء القدامى، وقد كانا كذلك، لو حضر لشرب زجاجة نبيذ فى ظل ألفة، وبعدئذ إذا برهنت الطبيعة أنها قوية جدا وأن مقاومتها النسوية ضعيفة جدا، فلن يكون هناك خروج خطير عن حدود اللياقة. ولكن كان من الحمق أن تبتعد عن فخها المنصوب عند حدود البوابة الخارجية.

فقد ظلت تنتظر فى أمسيات عدة شهور دون جدوى، واكتسبت مواهب مثل أجادة المشى بالبنطلون. ولكن لم يكن هناك فى تورتيلا فلات سوى عدد محدود من الطرق. وكان من المحتم أن يمر دانى ببوابة دولوريس انجراثيا راميريث أن عاجلا أو أجلا، وهذا ما حدث.

لم يكن هناك خلال الفترة التى عرف فيها أحدهما الآخر أفضل من هذه الفرصة بالنسبة للحلوة تضطره للمرور بها، فقد وجد دانى فى ذلك الصباح فقط برميلا صغيرا من المسامير النحاسية الصغيرة، كانت قد فقدت من شركة التموين المركزية. وكان قد حسبها فى بداية الأمر من البضائع التى يطرحها البحر إلى الشاطىء من السفن الغارقة لأنه لم يظهر هناك أحد من الشركة بالقرب منها. وأخرج دانى المسامير النحاسية من البرميل الصغير ووضعها فى زكيبة. وبعدئذ استعار عربة

القرصان الصغيرة ذات العجلة الواحدة، وطلب من القرصان أن يدفعها أمامه ويذهب بما انتشله إلى الشركة الغربية للتموين، حيث باع النحاس مقابل ثلاثة دولارات وأعطى القرصان البرميل الصغير. قال له: «يمكنك أن تضع فيه الأشياء» وقد شعر القرصان بسعادة بالغة لذلك.

وانحدر دانى إلى أسفل التل، متجها بدقة تامة نحو منزل توريللى، وفى جيبه الدولارات الثلاثة.

وانبعث صوت دولوريس مبحوحا عذبا كطنين نحلة كبيرة: «صديقى.. إلى أين؟»

توقف دانى. حدث انقلاب فى خططه. كيف حالك، ياحلوة؟

أجابت بمكر: «ماذا يهم كيف حالى! طالما أن أحدا من أصدقائى لايهتم به».

وتماوج ردفاها بحركة دائرية رشيقة.

سأل: «ماذا تقصدين؟»

وأجاب بفروسية: اننى هنا الآن لزيارتك.

فتحت البوابة قليلا: هلا تفضلت بالدخول لتناول كأس صغير من النبيذ باسم الصداقة؟ ودخل دانى منزلها. وسألته فى صوت كهديل الحمام: ما الذى كنت تفعله فى الغابة؟

عندئذ ارتكب غلطة. فقد أخبرها متفاخرا بالصفقة التى عقدها فوق التل وتباهى بدولاراته الثلاثة.

قالت له: ليس لدى بالطبع من النبيذ سوى ما يملأ كستبانين.

جلسا فى مطبخ الحلوة وشربا زجاجة النبيذ. وبعد قليل بدأ دانى يغزو عفتها بقوة الخبير بالنساء، وفروسيته. لكنه فوجىء بمقاومتها الغريبة عن كل ما يعرفه عن سمعتها وقدرها، وكان حيوان الرغبة القبيح قد استيقظ فيه. وشعر بالغضب ولم يتضح له الأمر إلا عندما هم بالخروج.

فقد انبعث الصوت ذو البحة: ربما تحب أن تجىء لرؤيتى هذا المساء يادانى. وسبحت عينا الحلوة فى ضباب نداء ناعس، وأضافت موحية فى خفر: الجيران من حولنا.

وعندئذ أدرك قصدها ووعدها: سأعود.

كان الوقت بعد الظهيرة بقليل. سار دانى فى الشارع، متجها ثانية نحو بيت توريللى، وكان الحيوان الذى بداخله قد تحول من ذئب متوحش يعوى إلى دب عاطفى كبير كثيف الشعر. وقال لنفسه: سآخذ معى نبيذا إلى تلك الحلوة.

ترى من يلتقى به فى طريق عودته، سوى بابلو، وكان بابلو معه قطعتان من اللادن، ناول دانى إحداهما وسار معه وقال: إلى أين تذهب؟

قال دانى بحدة: ليس هذا وقت صداقة. أولا أنا ذاهب لشراء قليل من النبيذ آخذه معى إلى سيدة. يمكنك أن تجىء معى، وتشرب قدحا واحدا فقط. لقد سئمت شراء النبيذ للسيدات، فإذا بأصدقائى يشربونه كله.

وافق بابلو على أن مثل هذا العمل لا يحتمل. والواقع أنه لم يكن يرغب فى نبيذ دانى، وانما كان يرغب فى صحبته فقط.

وهكذا ذهبا إلى توريللى، تناولا قدحين من النبيذ من الجالون الجديد الذى اشتراه دانى، واعترف دانى بأنها معاملة رخيصة أن يعطى صديقه قدحا صغيرا واحدا فقط، ونزولا على احتجاج بابلو العاطفى شربا قدحين آخرين، وفكر دانى:

لا ينبغى للسيدات أن يشربن كثيرا من النبيذ. فذلك يجعلهن أقرب إلى الحماقة، أضف إلى هذا أن الخمر تطفىء بعض تلك الحواس التى يميل الإنسان أن يجدها متيقظة فى السيدة، وهكذا شربا مزيدا من الأقداح. إن نصف جالون من النبيذ يعد هدية سخيفة، خاصة أن دانى على وشك أن يذهب لشراء هدية أخرى ووضعوا علامة على القنينة تشير إلى نصف جالون وشربوا ما فوق ذلك، ثم أخفى دانى القنينة فى حفرة بين الأعشاب.

قال دانى: «أود أن تجىء معى لشراء هدية، يا بابلو».

كان بابلو يعرف سبب هذه الدعوة. كان نصفها رغبة فى صحبة بابلو، ونصفها الآخر خوفه على النبيذ الذى أخفاه أمامه. سارا باستقامة ورزانة متعمدتين منحدرين من التل إلى مونترى.

رحب بهما السيد سيمون فى شركة سيمون للاستثمارات والجواهر، والتسليف. إن اسم المحل يحدد الاطار العام لما تبيعه الشركة، فقد كان هناك آلات ساكسفون وراديوهات وبنادق وسكاكين وعصى صيد أسماك وعملات قديمة، وكلها أشياء مستعملة، ولكنها أفضل من الأشياء الجديدة لأنها رهنت توا.

سأله السيد سيمون: هل تحب أن ترى شيئا؟

أجاب دانى: «أجل».

وجعل صاحب المحل يقرأ ما فى القائمة، ثم توقف فى وسط إحدى الكلمات، وقد لاحظ أن دانى ينظر إلى مكنسة كهربائية كبيرة من الألمونيوم. كان لون مستودع الغبار أزرق وأصفر. وكان السلك الكهربائى طويلا أسود. ونهض السيد سيمون إلى المكنسة وتحسسها بيده، وراح يمتدحها وسأل: شىء مثل مكنسة كهربية؟

- ما ثمنها؟

- هذه المكنسة بأربعة عشر دولارا، لم يكن هذا ثمنا غاليا بقدر ما كان محاولة لمعرفة ما مع دانى من نقود. وكان دانى يريد المكنسة لأنها كبيرة ولامعة. ليس هناك امرأة فى تورتيلا فلات تملك مكنسة كهربية. وقد نسى فى هذه اللحظة أنه لا توجد كهرباء فى منطقة تورتيلا فلات. ووضع دولاريه على آلة الحساب وانتظر أن يحدث الانفجار والغضب، والثورة، والحزن، والفقر، والخراب، والخداع. لكن الحديث أثير حول لمعان الآلة، ولون الغطاء، والسلك الاضافى الطويل وقيمة المعدن وحده. وعندما انتهى النقاش، خرج دانى وفى يده المكنسة الكهربية.

كثيرا ما كانت الحلوة فى وقت فراغها بعد الظهر تخرج المكنسة الكهربية، وتسندها إلى أحد الكراسى. وبينما كانت صديقاتها يتفرجن عليها، تقوم هى بتحريك المكنسة إلى الأمام وإلى الخلف لتريهن مدى سهولة استعمالها، وتهمهم بصوتها مقلدة أزيز الموتور.

كانت تقول: صديقى رجل غنى. اعتقد أن أسلاكا مشحونة بالكهرباء سوف تدخل البيت قريبا جدا، وعندئذ زى.. زى.. زى! وإذا بالمنزل نظيفا!

حاولت صديقاتها التقليل من شأن الهدية بقولهن: كم هو مؤسف ألا تستطيعى تشغيلها، وإننى أعتقد دائما أن المقشة ومجرفة الزبالة مع سلامة استعمالهما أفضل جدا من المكنسة الكهربية.

ولكن حقدهن لم يكن يستطيع شيئا ازاء المكنسة. وتسلقت الحلوة بامتلاكها إياها قمة الطبقة الاجتماعية الموجودة فى تورتيلا فلات. وكأن الناس الذين لا يتذكرون اسمها يشيرون إليها بأنها: تلك التى تملك المكنسة الكهربية، وكثيرا ما كان يحدث عندما يمر أعداؤها أمام المنزل، أن يشاهدوها خلال النافذة تدفع المكنسة إلى الأمام وإلى الخلف، بينما يرتفع من حنجرتها أزيز مرتفع. الحق أنها كانت بعد الانتهاء من كنس المنزل كل يوم، تدفع المكنسة من حولها عملا بنظرية أن هذه المكنسة سوف تكنس بالطبع أفضل من ذلك عندما تدار بالكهرباء، لكن المرء لايستطيع أن يحصل على كل شىء.

أثارت الحلوة الحسد فى كثير من البيوت. أصبح سلوكها يتسم بالكبرياء والكرم، وارتفع ذقنها باستمرار كما يليق بسيدة تمتلك مكنسة كهربية. وكانت تضمنها أحاديثها. فتقول مثلا: مر رامون هذا الصباح، عندما كنت أحرك المكنسة الكهربية. وقطعت لويز ميتر يدها هذا الصباح، ولم يكن قد انقضى بعد ثلاث ساعات على استعمالى المكنسة الكهربية.

لكنها لم تنس دانى فى نشوتها. كان صوتها ينفعل بالعاطفة عندما يكون قريبا منها. وكانت تتمايل مثل شجرة صنوبر فى الريح. وكان يقضى جميع أماسيه فى منزل الحلوة.

تجاهل رفاقه فى بادىء الأمر غيابه، لأن هذه الأمور الصغيرة من حق كل رجل. ولكن بمضى الأسابيع، وبملاحظة شحوب دانى وقلقه من أثر الحياة المنزلية العنيفة نوعا ما التى يحياها، اقتنع أصدقاؤه أن عرفان الحلوة بجميل المكنسة الكهربية ليس فى مصلحة دانى الجسمانية. وشعروا بالغيرة من هذا الموقف الذى اجتذب اهتمامه طويلا.

وقام بيلون وبابلو ويسوع ماريا كوركوران كل بدوره بمهاجمة عش عواطفه أثناء غيابه، ولكن الحلوة بالرغم من حبها للثناء، ظلت مخلصة

للرجل الذى رفعها من وضعها إلى مثل هذا المستوى الرفيع، وحاولت أن تحتفظ بصداقتهم لوقت الحاجة فى المستقبل لأنها كانت تعلم مدى تقلب الحظ، ولكنها رفضت بكل إباء أن تشارك رفاق دانى ما كرسته لوقت دانى.

لذلك، وفى غمرة اليأس، تألفت جماعة الهدف منها تدمير الحلوة.

وربما كان دانى قد بدأ يمل من أعماقه علاقته بالحلوة وما تتطلبه من واجب الرعاية. ولكن إذا كان قد حدث مثل هذا التحول، فإنه لم يعترف لنفسه به.

وفى الساعة الثالثة بعد ظهر أحد الأيام، عاد بيلون وبابلو يتبعهم بيج جو بورتاجى خفية وقد شعروا بانتصارهم فى ثلاثة أرباع يوم من العمل الشاق. كانوا قد بدأوا يلعبون أدوارهم فى هذه الحملة: بيلون بمنطقة الصارم، وبابلو بأصالته الفنية، ويسوع ماريا كوركوران برقته وإنسانيته. أما بيج جو فلم يكن له دور يلعبه.

وقد عادوا الآن من حملتهم كأربعة صيادين أكثر سعادة لأن انتصارهم كان صعبا. وفى مونترى كان ثمة ايطالى مسكين حائر قد بدأ يقتنع أنه قد غرر به.

كان بيلون يحمل قنينة بها جالون من النبيذ مختفية فى حزمة من أوراق العليق. ودخلوا مبتهجين إلى منزل دانى، ووضع بيلون الجالون على المنضدة.

استيقظ دانى من نومه العميق، وابتسم بهدوء، ونهض من فراشه وأخرج أقداح الشراب. وصب النبيذ. وارتمى رفاقه الأربعة فى كراسيهم، فقد كان يوما مرهقا.

راحوا يشربون النبيذ فى هدوء فى آخر الأصيل، فى ذلك الوقت الغريب الذى يبدو وقد توقف فيه كل شىء. توقف كل إنسان تقريبا فى تورتيلا فلات حينئذ ليتأمل تلك الأمور التى حدثت أثناء النهار الذى انقضى توا، وليفكر فيما يأتى به المساء من احتمالات. وكانت هناك أمور كثيرة تستدعى الحديث فى فترة مابعد الظهر.

قال بيلون: جاءت كورنيليا رويث برجل جديد هذا الصباح أنه أصلع الرأس. اسمه كيلبا تريك. تقول كورنيليا أن رجلها الآخر لم يعد إلى المنزل ثلاث ليال فى الأسبوع الماضى. وهى لا تحب ذلك.

فعلق دانى: ان كورنيليا امرأة متقلبة جدا. وفكر فى رضا فى مؤسسته الخاصة المضمونة، المبنية على صخرة المكنسة الكهربية.

وقال بابلو: كان والد كورنيليا أكثر سوءا. لم يكن يستطيع قول الحق. أقترض منى دولارا ذات مرة. وأخبرت كورنيليا بالأمر. لكنها لم تفعل شيئا.

واقتبس بيلون هذه العبارة مصطنعا التقوى: الاثنان من دم واحد «أعرف السلالة تعرف الكلب».

وملأ دانى الأقداح بالنبيذ مرة أخرى، وانتهى الجالون. فنظر إلى القنينة فى أسى.

وفى هدوء تكلم يسوع ماريا ذلك المحب للإنسانية: لقد رأيت سوزى فرانسيسكو يا بيلون. قالت أن الوصفة أتت بنتيجة رائعة. لقد خرجت وركبت خلف شارلى جوزمان ثلاث مرات على دراجته البخارية. أعطته فى المرتين الأوليين دواء الحب الذى جعله مريضا. كانت تعتقد أنه لا جدوى من الوصفة. ولكنها تقول الآن أنه فى مقدورك أن تأخذ بعض الكعك فى أى وقت.

وسأل بابلو: ما الذى فى هذا الدواء؟

لكن بيلون أصبح متكتما. قال: لا أستطيع أن أقول كل شىء عنه، ولكنى أعتقد أن الذى جعل شارلى جوزمان مريضا هو سم البلوط.

أختفى جالون النبيذ سريعا جدا. كان كل من الأصدقاء الستة يشعر بظمأ حاد بلغ الرغبة المعذبة. نظر بيلون إلى أصدقائه بعينين مرتخيتين، وبادلوه النظر وتهيأت المؤامرة.

جلا بيلون حنجرته: ما الذى فعلته، يادانى، حتى تجعل المدينة كلها تضحك منك؟

بدا دانى منزعجا: ماذا تقصد؟

ضحك بيلون ضحكة مستترة: يقول الكثيرون انك اشتريت مكنسة

كهربية لسيدة، وأن تلك الآلة لن تدار ما لم تركب الأسلاك الكهربية فى البيت. وتلك الأسلاك تتكلف مبلغا كبيرا من النقود. يرى بعض الناس أن هذه الهدية مضحكة جدا.

وازداد ضيق دانى. وقال مدافعا: تلك السيدة تحب المكنسة الكهربية.

وافق بابلو: ولم لا.. لقد أخبرت الحلوة بعض الناس أنك وعدتها بتركيب الأسلاك فى منزلها حتى تشتغل المكنسة.

وبدأ دانى أكثر انزعاجا: هل قالت ذلك؟

- هذا ما قيل لى.

صاح دانى: طيب، لن أفعل ذلك.

فعلق بيلون: لو لم أعتقد أن الأمر هزل، لثرت لدى سماعى أن صديقى يضحكون منه.

وسأل يسوع ماريا كوركوران: ما الذى ستفعله إذا طلبت منك تلك الأسلاك؟

أجاب دانى: سوف أقول لها: لا

وضحك بيلون: أود لو كان فى مقدورى أن أكون هناك. ليس من السهل أن تقول لتلك السيدة: لا.

شعر دانى أن أصدقاءه يتحولون ضده فسألهم فى عجز: ما الذى سأفعله؟

أمعن بيلون فى التفكير الحاد، واستدعى واقعيته لتطبيقها على هذا الأمر. قال: لو لم تكن هذه السيدة تملك المكنسة الكهربية لما رغبت فى تلك الأسلاك.

وأومأ الأصدقاء برءوسهم موافقين.

استطرد بيلون: ما ينبغى عمله إذن هو إزالة المكنسة.

احتج دانى: أوه. أنها لن تدعنى آخذها.

قال بيلون: إذن سنقوم نحن بمساعدتك. سآخذ أنا المكنسة، وفى مقدورك أن تأخذ للسيدة فى مقابلها جالونا من النبيذ هدية.ولن تعرف هى حتى أين ذهبت المكنسة.

- سيراك بعض الجيران وأنت تأخذها.

أجاب بيلون: أوه، لا. أبق هنا ياداني. سوف أحصل أنا على المكنسة.

تنهد داني في ارتياح وقد شعر أن مشكلته قد تكفل الأصدقاء بحلها.

قلما كان يحدث شيء في تورتيلا فلات دون أن يعلم به بيلون. كان ذهنه يسجل ملاحظات قصيرة حادة عن كل شيء تراه عيناه أو تسمعه أذناه. وقد علم أن الحلوة تذهب لتبتاع حاجياتها في الرابعة والنصف بعد ظهر كل يوم. فاعتمد على هذه العادة الثابتة تقريبا في وضع خطته موضع التنفيذ.

قال لداني: الأفضل ألا تعرف أنت شيئا عن الموضوع كان بيلون يحتفظ بزكيبة في الفناء صالحة للعمل. وقد قام بقطع فرع كبير من شجرة الورد بسكينته ودفعه داخل الزكيبة.

وعندما وصل منزل الحلوة، وجدها غير موجودة، كما توقع وكما كان يأمل. وقال لنفسه: أنها مكنسة داني حقا.

استغرق العمل لحظة في دخول البيت، ووضع المكنسة في الزكيبة ثم تنسيق فرع الورد بطريقة فنية في فتحة الزكيبة.

وعندما هم بالخروج من الفناء، التقى بالحلوة. رفع بيلون قبعته في أدب. وقال: دخلت لتمضية بعض الوقت.

- هلا تفضلت بالبقاء الآن. يابيلون؟

- لا لدى عمل في مونترى. الوقت متأخر؟

- إلى أين تذهب بشجرة الورد هذه؟

- ليشتريها شخص ما في مونترى. أنها شجرة ورد جميلة جدا. انظرى كم هى نضرة.

- إذن، تعال في أى وقت آخر، يا بيلون.

لم يسمع أى صيحة غضب وهو يمضى بوقار في الشارع وفكر: ربما يضمى بعض الوقت قبل أن تشعر بضياع المكنسة.

هكذا تم حل نصف المشكلة، ولكن بقى نصفها الآخر يتطلب علاجا. سأل بيلون نفسه: «ما الذى يستطيع داني أن يفعله بهذه المكنسة

الكهربية؟ لو أعطيتها له، ستعرف الحلوة أنه هو الذى أخذها. هل استطيع أن ألقى بها بعيدا؟ لا، لأنها ثمينة. إن ما ينبغى عمله هو التخلص منها، وفى نفس الوقت الاستفادة من قيمتها.

الآن وجد حلا للمشكلة كلها. وانحدر بيلون إلى أسفل التل متجها نحو منزل توريللى.

كانت مكنسة كبيرة ولامعة. وعندما عاد بيلون يصعد التل أصبح فى كلتا يديه جالون نبيذ.

استقبل الأصدقاء بيلون فى صمت عندما دخل بيت دانى، ووضع إحدى القنينتين على المنضدة ووضع الأخرى على البلاط.

قال لدانى: احضرت لك هدية تقدمها للسيدة. وها هنا أيضا بعض النبيذ من أجلنا.

تجمعوا فى فرح، وكان الظمأ قد أصبح نارا متأججا فى حلوقهم. وعندما بدأ الجالون الأول يختفى، رفع بيلون كأسه فى ضوء الشمعة ونظر خلاله. وقال: ليس المهم هو ما يحدث ولكن المهم هو الدرس الذى نخرج به من كل ما يحدث. لقد تعلمنا من هذا الحدث أن الهدية، خاصة تلك التى تقدم لسيدة، ينبغى ألا تكون لها صفة الاعتماد على هدية أخرى يستلزم تقديمها. وتعلمنا أيضا أنه من الخطأ تقديم هدايا ثمينة جدا، لأنها قد تثير الطمع.

لقد اختفى الجالون الأول. ونظر الأصدقاء إلى دانى ليلمسوا مشاعره نحو هذا الأمر. كان هادئا جدا، ولكنه رأى الآن أن أصدقاءه ينتظرون رأيه.

قال مترويا: لقد كانت تلك السيدة مليئة بالحيوية. تلك السيدة حنون جدا بطبيعتها. ولكن ليلعنها الله! لقد سئمتها! وقام إلى القنينة الثانية فنزع سدادتها.

ابتسم القرصان لنفسه وهو جالس فى الركن وسط كلابه وهمس فى إعجاب: ليلعنها الله! لقد سئمتها كان ذلك، فى رأى القرصان، رائعا جدا.

ولم ينتهوا من تناول أكثر من نصف القنينة الثانية، كما أنهم لم يغنوا

سوى أغنيتين بالفعل، عندما دخل الشاب جونى بوم - بوم. قال جونى: كنت عند توريللى. أوه ذلك التوريللى مجنون! أنه يصيح! أنه يضرب المنضة بقبضة يده.

تطلع إليه الأصدقاء باهتمام فاتر: هل حدث شىء، إذا كان قد حدث شىء فربما استحق توريللى هذا.

- أنه كثيرا مايرفض عطاء زبائنه الأفاضل قليلا من النبيذ.

وسأل بابلو: ماذا دهى توريللى؟

وتقبل جونى بوم - بوم قدحا من النبيذ. ثم قال: يقول توريللى أنه اشترى مكنسة كهربية من بيلون، وعندما ركب فيها السلك الكهربى لم تدر. وعندئذ نظر بداخلها، فلم يجد بها موتورا. وهو يقول إنه سوف يقتل بيلون.

بدا أن بيلون قد صدم. وقال: لم أكن أعرف أن هناك عيبا فى هذه الآلة. ولكن ألم أقل أن توريللى يستحق أى شىء يحدث له كانت الآلة تستحق ثلاثة أو أربعة جالونات من النبيذ، ولكن ذلك التوريللى الشحيح لم يعطنى سوى جالونين.

كان دانى لا يزال يشعر بتوهج من عرفان الجميل نحو بيلون لعقت شفتاه النبيذ فى تأفف وقال: إن هذا الشراب الذى يقدمه توريللى يزداد سوءا يوما بعد يوم. أنه فى أحسن حالاته شراب تعافه الخنازير غير أن النبيذ صار فى الآونة الأخيرة سيئا جدا إلى درجة أنه حتى تشارلى مارش لا يقبل أن يشرب منه.

عندئذ شعروا جميعا بالارتياح إذ انتقموا قليلا من توريللى.

قال دانى: أعتقد أننا سوف نبتاع نبيذنا من أى مكان آخر إذا لم يرتدع توريللى.

١٠ كيف قام الأصدقاء بمواساة أونباشى وكيف تلقوا منه بدورهم درسا فى الأخلاق الأبوية

كان قلب يسوع ماريا كوركوران طريقا ممهدا للإنسانيات. إذا كان هناك عذاب حاول تخفيفه، إذا كان هناك حزن حاول تلطيفه، إذا كانت سعادة شارك فيها. ولم يكن يحمل هما ولا نصبا. كان قلبه خاليا مفتوحا لخدمة أى شخص فى حاجة إلى خدمته. وكانت موارده ومواهبه تحت أمرة أى شخص لا يملك منهما مثل ما يملك يسوع ماريا.

إنه هو الذى حمل خوسيه دى لاناريث أربعة أميال عندما كسرت ساق خوسيه. عندما فقدت السيدة بالوتشيكو عنزتها العزيزة، عنزتها الطيبة التى تدر عليها اللبن والجن، كان يسوع ماريا هو الذى اقتفى أثرها حتى مكان بيج جو بورتاجى وأوقف جريمة ذبحها واضطر بيج جو إلى إعادتها. أنه يسوع ماريا الذى التقط ذات يوم تشارلى مارش من حفرة حيث وجده راقدا فى قاذوراته، وهو عمل لا يتطلب قلبا دافئا فحسب، ولكن معدة قوية أيضاً.

وقد اجتمعت مقدرة يسوع ماريا على فعل الخير، مع موهبته على التواجد فى المواقف التى تتطلب عمل الخير.

كانت له مثل هذه الشهرة حتى لقد قال عنه بيلون ذات مرة أقول لكم لو كان ذلك اليسوع ماريا قد دخل الكنيسة، لحظيت مونترى بقديس

توضع صورته فى نتائج الحائط.

كا يسوع ماريا يجذب، من مكان ما فى أعماق روحه إنسانية تجدد نفسها بالعزلة.

وكان من عادة يسوع ماريا أن يذهب إلى مكتب البريد كل يوم، أولا لأنه يستطيع أن يرى هناك أناسا كثيرين يعرفهم، وثانيا لأنه يستطيع فى ذلك الركن من مكتب البريد المعرض لعصف الريح أن ينظر إلى سيقان مجموعة كبيرة من الفتيات. ولا ينبغى الظن بأن هناك أية سوقية فى هذا الاهتمام الأخير، وإلا انتقدنا الرجل الذى يذهب إلى معارض الفن أو حفلات الموسيقى - فقد كان يسوع ماريا يحب التطلع إلى سيقان الفتيات.

وذات يوم، وبينما كان يقف مستندا إلى مكتب البريد لساعتين دون أن يحقق نجاحا كبيرا. إذا به يشهد منظرا يستدعى الشفقة. فقد أقبل شرطى من الشارع الجانبى دافعا أمامه غلاما فى حوالى السادسة عشرة من عمره، وكان الغلام يحمل طفلا صغيرا، ملفوفا فى جزء من بطانية رمادية اللون.

كان الشرطى يقول للغلام: لا يهمنى أذا كنت لا أفهم ما تقوله. ولكنك لا تستطيع أن تجلس فى هذه القاذورات طول اليوم. سوف ننظر فى أمرك.

وقال له الغلام، بالأسبانية، بلكنة غريبة: ولكنى لم أرتكب خطأ، يا سنيور. لماذا تقودنى؟

وشاهد الشرطى يسوع ماريا. فنادى عليه: هيه، أنت أيها البيازنو. ما الذى يقوله هذا الغلام؟

تقدم يسوع ماريا موجها كلامه إلى الغلام:

- هل أستطيع أن أؤدى لك أى خدمة؟

تدفق الغلام فى الكلام باطمئنان: لقد جئت هنا للعمل، فقد قال لى بعض المكسيكيين أننى قد أجد عملا هنا. لكنى لم أجد شيئا كنت جالسا أستريح عندما جاء هذا الرجل وجذبنى من مكانى.

أومأ يسوع ماريا برأسه والتفت إلى الشرطى: هل ارتكب جريمة. هذا الصغير؟

- لا، ولكنه ظل جالسا حوالى ثلاث ساعات فى القاذورات بشارع الفارادو.

قال يسوع ماريا: أنه صديقى، سأتولى أمره.

- طيب، وليبقى بعيدا عن هذه القاذورات.

ومشى يسوع ماريا وصديقه الجديد صاعدين التل: سآخذك إلى البيت الذى أقيم به. ستجد هناك شيئا ما تأكله. ماذا يكون هذا الطفل؟

أجاب الغلام: أنه طفلى، أنا أونباشى، وهو طفلى. أنه مريض الآن، ولكن عندما يكبر، سوف يصبح جنرالا.

- ماذا يكون مرضه، يا سنيور أونباشى؟

- لا أعرف. ولكنه مريض وكشف عن وجه الطفل فبدا أنه مريض جدا بالفعل.

وازدادت الشفقة فى قلب يسوع ماريا: المسكن الذى أقيم به يمتلكه صديقى دانى، هناك رجل طيب، يا سنيور أونباشى هناك إنسان تلجأ إليه إذا ألمت بك مشكلة. اسمع سوف نذهب إلى هناك، وسوف يأوينا دانى. كما أن صديقتى السيدة بالوتشيكو لديها عنزة. سوف نستعير منها قليلا من اللبن للطفل.

اكتسى وجه الأونباشى لأول مرة بابتسامة ارتياح. وقال: جميل أن يكون للمرء أصدقاء. لدى فى توريون أصدقاء كثيرون على استعداد للتسول من أجل مساعدتى وتباهى قليلا أمام يسوع ماريا: لدى أصدقاء

أغنياء، ولكنهم بالطبع لا يعرفون الآن حاجتى.

دفع بيلون بوابة فناء دانى فانفتحت، ودخلوا معا. كان دانى وبابلو وبيج جو يجلسون فى حجرة الجلوس، فى انتظار معجزة الطعام اليومية. ودفع يسوع ماريا الغلام إلى الحجرة.

وقال موضحا: إليكم جندى صغير، أونباشى. وهو يحمل طفلا معه هنا، وهذا الطفل مريض.

فهب الأصدقاء فى نشاط. وأزاح الأونباشى البطانية الرمادية عن وجه الطفل.

قال دانى: أنه مريض، حقا. ربما ينبغى أن: نحضر له طبيبا.

لكن الجندى هز رأسه: لا أطباء. أنا لا أحب الأطباء. وهذا الطفل لا يبكى، وهو لن يأكل كثيرا. ربما يتحسن مرة أخرى، عندما يستريح.

فى هذه اللحظة تدخل بيلون وتفحص الطفل. قال: هذا الطفل مريض.

وفى الحال تولى بيلون زمام الأمور. أرسل يسوع ماريا إلى بيت السيدة بالوتشيكو يستعير منها لبن العنزة، وأرسل بيج جو وبابلو لجلب صندوق تفاح فارغ، وحشاه بالأعشاب الجافة كما بطنه بمعطف من جلد الأغنام. وعرض دانى سريره، ولكن عرضه رفض. ووقف الأونباشى فى حجرة الجلوس وابتسم ابتسامة رقيقة لهؤلاء الطيبين. وأخيرا استقر الطفل فى صندوق، ولكن عينيه كانتا ذابلتين ورفض تناول اللبن.

ودخل القرصان حاملا لفة من السمك. وقام الأصدقاء بطهيه وتناولوا غداءهم. لم يكن الطفل يستطيع أن يأكل السمك. ومن لحظة لأخرى يقفز أحد الأصدقاء ويجرى لينظر إلى الطفل. وعندما انتهوا من تناول الطعام، جلسوا حول الموقد متأهبين لأمسية هادئة.

كان الأونباشى صامتا، لم يصرح لهم بشىء عن نفسه. وقد شعر

الأصدقاء إزاء ذلك بشيء من الألم، ولكنهم كانوا يعلمون أنه سوف يخبرهم بالأمر فى اللحظة المناسبة. وقد قام بيلون، الذى كانت المعرفة لديه كالذهب الذى ينبغى استخراجه من المناجم ببضع محاولات تجريبية ليخرج الأونباشى من صمته.

قال بطريقة لطيفة فاتحا باب الكلام أمام الغلام: قلما يشاهد الإنسان جنديا صغيرا معه طفل.

ابتسم الأونباشى فى فخر.

وأضاف بابلو: هذا الطفل قد عثر عليه غالبا فى حديقة الحب، وذلك هو أفضل نوع من الأطفال، لأنهم يمتازون بالصفات الحميدة فقط.

وقال دانى: نحن أيضاً كنا جنودا عندما نموت سنذهب إلى القبر محمولين على عربة مدفع. وسوف تقوم فرقة من الجيش بإطلاق النار من فوقنا.

وانتظروا ليروا ما إذا كان الأونباشى سينتهز الفرصة التى أتاحوها له للكلام. وبدا عليه التقدير والإعجاب وقال: كنتم طيبين معى. كنتم طيبين وعطوفين معى كأصدقائى الذين فى توريون. إن هذا الطفل ابنى، وابن زوجتى.

سأله بيلون: وأين زوجتك؟

اختفت الابتسامة من وجه الأونباشى. وقال: إنها فى المكسيك ثم عادت إليه الحيوية من جديد: قابلت رجلا، قال لى شيئا غريبا، قال أننا نستطيع أن نجعل من الأطفال ما نريد. قال: قل للطفل دائما ما تريد أن يفعله، وعندما يكبر سوف يفعل ذلك. وهكذا أظل أخبر الطفل مرارا وتكرارا سوف تصبح جنرالا هل تعتقدون أن هذا سيحدث حقا؟

أومأ الأصدقاء برءوسهم فى أدب. وقال بيلون: ربما يكون الأمر

كذلك. ولكنى لم أسمع بهذه الطريقة.

إننى أردد فى اليوم عشرين مرة: مانيويل، ستصبح جنرالا يوما ما. سوف تكون لك اسبليتات عريضة على كتفيك ووشاح. وسوف يكون سيفك ذهبيا. سوف تمتطى حصانا ممتازا. ما أروعها من حياة تنتظرك. يامانيويل ! وقد قال الرجل أنه سوف يكون بالتأكيد جنرالا لو قلت له أنه سوف يصبح كذلك.

نهض دانى وذهب إلى صندوق التفاح. وقال للطفل: سوف تكون جنرالا. عندما تكبر سوف تصبح جنرالا عظيما.

وتجمع الآخرون حول الطفل ليروا ما إذا كان لهذه الوصفة أى أثر على الطفل.

وهمس القرصان: سوف تصير جنرالا وتساءل عما إذا كانت نفس الوصفة تصلح لكلب.

وقال دانى: هذا الطفل مريض حقا. ينبغى أن يظل دافئا.

وعادوا إلى مقاعدهم.

قال بيلون فاتحا باب الحديث: زوجتك إذن فى المكسيك.

وتجعدت جبهة الأونباشى وفكر لحظة، ثم ابتسم ابتسامة مضيئة: سأخبركم. ليس هذا بالأمر الذى يقال للغرباء، ولكنكم أصدقائى. كنت جنديا فى شيهواهوا. وكنت نشيطا نظيفا، أقوم بتزييت بندقيتى دائما، ولذلك صرت أونباشيا، ثم تزوجت من فتاة جميلة. أنا لا أقول أنها تزوجتنى من أجل الشرائط. ولكنها كانت جميلة جدا وصغيرة. كانت عيناها براقتين، وأسنانها جميلة بيضاء وشعرها طويل لامع. وهكذا سرعان ماجاء هذا الطفل.

قال دانى: جميل. أتمنى أن أكون مكانك. ليس هناك ما هو أجمل من طفل.

قال الأونباشى: نعم. كنت سعيدا. وقد ذهبنا لتعميده، وكنت أضع وشاحا، رغم أن سجلات الجيش لم تذكره. وعندما خرجنا من تلك الكنيسة، شاهد زوجتى نقيب باسبليتات ووشاح وسيف فضى. وسرعان ما اختفت زوجتى، وعندئذ ذهبت إلى ذلك النقيب، وقلت له: اعد لى زوجتى فقال: أنت تستهين بحياتك عندما تتكلم بهذه الطريقة إلى رئيسك ومد الأونباشى يديه ورفع كتفيه فى استسلام من غلب على أمره.

صاح يسوع ماريا: آه، ياله من لص !

وقال بابلو متوقعا: جمعت أصدقاءك. وقتلت ذلك النقيب.

أجاب الأونباشى وقد بدا عليه الخجل: لا. لم يكن هناك شىء أفعله، فى الليلة الأولى، أطلق شخص ما الرصاص على من خلال النافذة، وفى اليوم الثانى أخطائى مدفع ميدان، مرت الرصاصة بجوارى مباشرة حتى أنى انقلبت من شدة اندفاع الهواء، لذا، ابتعدت عن هناك وأخذت الطفل معى.

كانت ثمة قسوة قد ارتسمت على وجوه الأصدقاء، وبدأ الخطر فى عيونهم، وزام القرصان فى ركنه وزمجرت جميع الكلاب.

صاح بيلون: كان ينبغى أن نكون هناك إذن لجعلنا ذلك النقيب يتمنى لو لم يولد أبدا. لقد تعذب جدى على يدى قسيس، فربطه هذا القسيس عاريا إلى عمود فى حظيرة وربط معه عجلا صغيرا. أوه هناك طرق كثيرة.

أجاب الغلام لم أكن سوى أونباشى. كنت مضطرا للهرب. وبدت دموع الخزى فى عينيه ثم استطرد: لا يملك الأونباشى شيئا إذا كان الكابتن ضده، لهذا هربت، ومعى الطفل مانيويل. وفى فريسنو، قابلت ذلك الرجل الحكيم، فأخبرته أنه فى مقدورى أن أجعل من مانيويل ما أتمناه له. ولذلك أظل أقول للطفل عشرين مرة فى اليوم: سوف تصبح

جنرالا. سوف تضع اسبليتات على كتفيك وتحمل سيفا من ذهب.

ها هى ذى مأساة تغطى على أخبار كورنيليا رويث وتجعلها عبثا. ها هو ذا موقف يتطلب تصرفا إيجابيا من الأصدقاء. ولكن مسرح الحدث كان بعيدا جدا إلى حد استحالة عمل شيء. وتطلعوا فى إعجاب إلى الأونباشى. كان صغيرا بالنسبة للقيام بمثل هذه المغامرة !

قال دانى بطريقة شريرة: لو كنا فى تورين الآن. لوضع بيلون خطة لنا. من سوء حظنا أننا لا نستطيع الذهاب إلى هناك.

ظل بيج جو بورتاجى يقظا، مما يشهد بسحر قصة الأونباشى. ثم ذهب إلى صندوق التفاح ونظر فيه. وقال: سوف تصير جنرالا ثم قال: انظروا ! إن هذا الطفل يتحرك بطريقة مضحكة. وتجمع الأصدقاء من حوله. كانت النوبة قد بدأت توا.

اندفعت القدم الصغيرة إلى أسفل ثم انجذبت إلى أعلى. وتشبثت اليدان بالهواء فى يأس. وارتجف الطفل.

صاح دانى: طبيب. ينبغى أن نستدعى طبيباً ولكنه كان يعلم كالآخرين أن ذلك لن يجدى شيئا. ليس هناك من يخطىء الموت القادم ملتفا بعباءة. وبينما كانوا يراقبون الطفل، إذا به يتصلب وينتهى الصراع. وفغر فمه ومات الطفل. وغطى دانى فى شفقة صندوق التفاح بقطعة بطانية. ووقف الأونباشى متخشباً محملقا أمامه، وقد أعجزته الصدمة عن الكلام أو التفكير.

وضع يسوع ماريا يده على كتف الأونباشى ودفعه برفق إلى أحدالكراسى قائلا: أنت صغير جدا. سوف يكون لك أطفال كثيرون غيره.

وأخذ الأونباشى يئن قائلا: ها هو ذا قد مات. لن يصير جنرالا أبدا يحمل ذلك الوشاح وذلك السيف.

وأغرورقت عيون الأصدقاء بالدموع. وفى الركن، انتحبت الكلاب جميعها فى أسى. ودفن القرصان رأسه الكبير فى فراء السنيور اليك طومسون.

وقال بيلون فى صوت ناعم كمن يمنح بركة: الآن يجب أن تقوم بنفسك بقتل النقيب. لقد كنا نفخر بك لحظة الانتقام النبيلة، غير أن كل شىء انتهى الآن، وينبغى أن تأخذ بثأرك بنفسك، وسوف نساعدك إذا كان ذلك فى مقدورنا.

حول الأونباشى عينيه الكابيتين نحوه وسأله: انتقام؟ أقتل النقيب؟ ماذا تقصد؟

قال بيلون: ماذا ! لقد كانت خطتك واضحة. وهى أن هذا الطفل سيكبر، ويصير جنرالا، ويلتقى بذلك النقيب فى الوقت المناسب، ويقتله ببطء. لقد كانت خطة جيدة. الانتظار الطويل. ثم الضربة. نحن أصدقاؤك، نفخر بك من أجل ذلك.

كان الأونباشى ينظر فى ارتباك إلى بيلون. وسأله: ما هذا؟ ليس لى شأن بهذا النقيب. أنه النقيب.

واعتدل الأصدقاء فى جلستهم.

وصاح بيلون: إذن ما هى هذه الخطة التى ترمى إلى جعل الطفل جنرالا؟ لماذا كانت هذه الخطة؟

وعندئذ بدا على الأونباشى شىء من الحيرة: من واجب الأب أن يبذل ما فى وسعه من أجل ابنه. لقد أردت أن يحصل مانيويل على أشياء أفضل من التى حصلت أنا عليها.

صاح دانى: هل هذا هو كل شىء؟

أجاب الأونباشى: حسن، كانت زوجتى جميلة جدا، ولم تكن قط فى شىء من بغى. وكانت امرأة طيبة، وقد أخذها ذلك النقيب. وقد كان

على كتفيه اسبليتات صغيرة ووشاح صغير، وكان سيفه فى لون الفضة فقط ثم رفع يديه قائلا: تصوروا، إذا كان ذلك النقيب ذو الاسبليتات الصغيرة والوشاح الصغير قد استطاع أن يأخذ زوجتى، فماذا يستطيع أن يأخذ جنرال له اسبليتات كبيرة وسيف ذهبى !

مضت فترة صمت طويلة حتى هضم كل منهم هذا المبدأ وعندما هضموه، انتظروا أن يتكلم دانى.

أخيرا قال دانى: انه لمن المؤسف أن قليلا جدا من الأباء يهتمون من قلوبهم برفاهية أولادهم. نحن الآن أكثر حزنا عن ذى قبل لموت الطفل. فأى حياة سعيدة مع مثل هذا الأب قد فقدها الطفل.

أومأ الجميع برءوسهم موافقين بخشوع.

وسأل يسوع ماريا، المكتشف: ما الذى سوف نفعله الآن؟

أجاب الأونباشى: سأعود إلى المكسيك. أننى جندى من أعماقى. ربما لو حافظت على تزييت بندقيتى أن أصبح أنا نفسى ضابطا يوما ما. من يدرى؟

نظر إليه الأصدقاء الستة فى إعجاب. كانوا فخورين لأنهم عرفوا مثل هذا الرجل.



كيف هبط الحب على بيج جو بورتاجى فى أسوأ الظروف.

كان بيج جو يرى إنه كى تشعر بالحب لابد أن تقوم بعمل ما. وهذه هى إحدى علاقاته الغرامية.

كانت السماء تمطر فى مونترى، والماء يتساقط طوال اليوم من فوق أشجار الصنوبر الطويلة. ولم يخرج بيازانوس تورتيلا فلات من منازلهم، ولكن عمودا أزرق من دخان خشب الصنوبر كان يخرج من كل مدخنة جعل رائحة الهواء نقية ذكية منعشة.

فى الساعة الخامسة بعد ظهر، انقطع المطر بضع دقائق، فنهض بيج جو بورتاجى، الذى كان جالسا معظم النهار تحت قارب على الشاطىء، وأخذ يصعد أعلى التل حيث منزل دانى. وكان يشعر بالبرد والجوع.

وعندما وصل إلى أطراف تورتيلا فلات، فتحت السماء أبوابها وهطل المطر ولم تمض لحظة إلا وقد ابتل بيج جو عن آخره. وجرى إلى أقرب بيت حتى يتقى المطر، وكان ذلك البيت تسكنه تيا اجناثيا.

كانت هذه السيدة فى حوالى الخامسة والأربعين من عمرها، أرملة منذ عهد قديم وموفقة بعض الشىء. كانت فى العادة متحفظة وعنيفة، إذ كان يجرى فى عروقها الدم الهندى أكثر من اللازم فيما يرى أهالى تورتيلا فلات.

عندما دخل بيج جو، كانت قد فتحت تواً جلوناً من النبيذ الأحمر وبدأت تصب كأسا منه لتصلح معدتها. وكانت محاولتها لدفع القنينة تحت الكرسى غير موفقة. ووقف بيج جو فى المدخل يتساقط منه الماء على الأرضية.

قالت تيا اجناثيا: ادخل، حتى تجف. ودخل بيج جو الغرفة، وهو يرقب الزجاجة ككلب صيد يراقب حشرة. كان المطر يزمجر فى تساقطه على السطح، وحركت تيا اجناثيا جذوة خشب فى الموقد المحكم.

- هل لك فى تناول كأس من النبيذ معى؟

أجاب بيج جو: نعم وقبل أن ينتهى من كأسه الأولى، كانت عيناه قد تسمرتا من جديد على قنينة الخمر. ولم يتفضل وينطق كلمة واحدة، ولم تختف الشراهة من عينية، إلا بعد أن شرب ثلاث كئوس من النبيذ.

وجدت تيا اجناثيا نفسها وقد فقدت الأمل فى قنينة النبيذ الجديدة، فشربت معه باعتبار أن هذه هى الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بقليل منه لنفسها. ولم يسترخ بيج جو ويبدأ فى الاستمتاع إلا بعد أن أصبحت الكأس الرابعة من النبيذ فى يده.

وقال: ليس هذا نبيذ توريللى.

أجابت وهى تصب كأسا أخرى: لا، لقد أتيت به من سيدة إيطالية صديقتى.

وهبط الغروب. وأشعلت تيا اجناثيا مصباح كيروسين، ووضعت بعض الخشب فى النار. وفكرت، طالما أن النبيذ سينتهى فلينتهى، وراحت عيناها تتفحصان هيئة بيج جو الهائلة بإعجاب. وشعرت بشىء من النشوة تدفىء صدرها.

قالت: كنت تعمل بالخارج فى المطر، أيها المسكين، اسمع اخلع

معطفك، واتركه حتى يجف.

نادرا ما كذب بيج جو. فلم يكن ذهنه يعمل بسرعة كافية. لذلك أجاب: كنت نائما على الشاطىء تحت قارب.

- ولكنك مبتل تماما، أيها الصديق المسكين وأخذت تتفحصه منتظرة أن يستجيب قليلا لعطفها، ولكن لم يبد شيء على وجه بيج جو سوى العرفان بالجميل لاحتمائه من المطر وشرب النبيذ. ومد يده بالكأس لتملأها مرة أخرى. ولما لم يكن تناول شيئا طوال اليوم، فقد أثرت فيه الخمر تأثيرا قويا.

وواجهت تيا اجناثيا المشكلة من جديد: ليس من الخير أن تجلس بمعطف مبتل. سوف تصاب بالبرد. تعال، دعنى أساعدك على خلع معطفك.

اندس بيج جو فى الكرسى. وأجاب فى عناد: إننى على ما يرام.

صبت تيا اجناثيا لنفسها كأسا أخرى من النبيذ، وأصدرت النار صوتاً مندفعاً يضاد بطريقة مريحة نقرات المياه على السقف.

لم تبدر من بيج جو أى حركة تدل على الود أو الفروسية، أو حتى الاعتراف بوجود مضيفته. وكان يتناول النبيذ فى جرعات كبيرة، ويبتسم للموقد فى بلاهة. وأخذ يتأرجح بكرسيه قليلا.

وثار الغيظ واليأس فى نفس تيا اجناثيا. وفكرت: هذا الخنزير، هذا الحيوان القذر. ربما كان الأفضل أن أحمى فى بيتى بقرة من المطر. لو كان رجلا آخر لقال لى على الأقل بعض الكلمات الودية.

ومد بيج جو كأسه لتملأها مرة أخرى .

وهنا استجمعت تيا اجناثيا شجاعتها بطريقة بطولية: فى منزل صغير دافئ لابد أن ترف السعادة فى مثل هذه الليلة حيث يتساقط

المطر، ويشتعل الموقد فى عذوبة. حينئذ يحين الوقت الذى يشعر فيه الناس بالود. ألا تشعر بالود؟

أجاب بيج جو: بالتأكيد.

قالت بخجل: ربما كان الضوء شديدا على عينيك تحب أن أطفئ المصباح؟

أجاب بيج جو: انه لا يضايقنى فى شىء. ولكن إذا كنت تريدين توفير الجاز. فاطفئيه!

ونفخت فى اللمبة، فغرقت الحجرة فى الظلام. ثم عادت إلى مقعدها وانتظرت أن يستيقظ فيه فروسيته. وكان فى مقدورها أن تسمع هزات كرسيه الرقيقة. وانبعث ضوء خافت من فتحات الموقد فأضاء زوايا الأثاث. كانت الغرفة مشرقة تقريبا بالدفء. وسمعت تيا اجناثيا كرسيه يتوقف عن الحركة. وأعدت نفسها لمقاومته. لكن لم يحدث شىء. قالت: تصور إنك بالخارج فى هذه العاصفة، ترتجف تحت سقيفة أو ترقد فى الرمل البارد تحت أحد القوارب. ولكن لا، أنت تجلس الآن على كرسى مريح، تشرب النبيذ الجيد، فى صحبة سيدة صديقة لك.

لم تتلق إجابة من بيج جو. ولم يكن فى مقدورها أن تسمعه ولا أن تراه. وشربت تيا اجناثيا كأسها. ثم ألقت بالفضيلة فى مهب الريح. قالت: اخبرتنى صديقتى كورنيليا أن بعضا من خيرة أصدقائها دخلوا منزلها يحتمون به من المطر والبرد. وهناك أشعرتهم بالراحة، وأصبحوا أصدقاءها الأعزاء.

وترامى إليها صوت فرقعة بسيطة من ناحية بيج جو، وعرفت أنه أسقط كأسه. ولكن لم تعقب الفرقعة أية حركة. وفكرت ربما يكون مريضا. ربما أغمى عليه. وقفزت وأشعلت عود كبريت وقربته من شريط

اللمبة. واستدارت إلى ضيفها.

كان بيج جو نائما نوما ثقيلا. كانت قدمه ممتدة أمامه ورأسه ملقى إلى الخلف وفمه مفتوحا عن آخره، وبينما كانت تنظر إليه مذهولة مصدومة، انبعث من فمه شخير أجش هائل. كل ما فى الأمر أن بيج جو لم يستطع أن يظل دافئا مرتاحا دون أن يسيطر عليه النعاس.

ومرت لحظة قبل أن تستطيع تيا اجناثيا تجميع شتات انفعالاتها المتزاحمة. لقد ورثت قدرا كبيرا من الدم الهندى. لم تصرخ. لا، وإنما بالرغم من أنها كانت تتفض بالغضب، اتجهت نحو سلة الخشب والتقطت منها ما يشبه العصا، واختبرتها، وأعادتها إلى مكانها، والتقطت عصا أخرى. وعادت ببطء إلى بيج جو بورتاجى. وأصابت الضربة الأولى كتفه فأسقطته من فوق مقعده.

وصرخت تيا اجناثيا فيه: أيها الخنزير! أيها القمامة القذرة الهائلة. فلتذهب إلى الوحل!

وتدحرج جو على الأرضية. وتركت الضربة الثانية علامة موحلة على مؤخرة بنطلونه. وحينئذ أخذ بيج جو يستيقظ بسرعة.

قال هه؟ ماذا حدث؟ ماذا تفعلين؟

صاحت: سأريك وطارت إلى الباب تفتحه وعادت إليه بسرعة. ترنح بيج جو تحت ثقل ضرباتها. وتوالت العصا على ظهره وكتفيه ورأسه. وأسرع خارجا من الباب، حاميا رأسه بيديه.

وتوسل إليها: لا تفعلى لا تفعلى ذلك. ما الذى حدث؟

ولقد طارده غضبها إلى ممر الحديقة ثم إلى الشارع الموحل. كانت ثورتها فظيعة. وراحت تتعقبه طول الشارع، وهى لا تزال تضربه.

وصرخ: آه. الآن كفى عن الضرب وجذبها وأمسكها بينما راحت

ذراعاها تناضلان بعنف للتخلص منه ومواصلة الضرب.

وصاحت: أوه يا خنزير القمامة! أوه، يا بقرة!

ولم يكن فى مقدوره أن يتركها دون أن يتعرض لمزيد من الضرب، لذلك ظل يحيطها بقوة بذراعيه، وبينما كان كذلك، إذا الحب يتفجر فى داخله. غنى الحب فى رأسه، وزأر خلال جسده كطوفان عظيم، وهزه كما تهز العاصفة الاستوائية غابة من أشجار النخيل. وظل لحظة محيطا بها بشدة حتى تراخى غضبها.

فى الليل، فى مونترى، يطوف شرطى فى الشوارع فوق دراجته البخارية ليرى أن كل شىء على ما يرام. ركب جاك ليك درجاته البخارية فى ذلك الوقت من الليل، ولمعت عجلاته قليلا وبدا لونها كالبازلت. لم يكن سعيدا ولا مرتاحا. لم يكن الأمر شاقا فى الشوارع المرصوفة، ولكن جزءا من طريقه كان يقع فى الطرقات الموحلة بتورتيلا فلات، وهناك تلطخ بالوحل الأصفر بطريقة فظيعة، وأضاء الكشاف الصغير ما حوله. وكان الموتور يسعل بصعوبة.

وفجأة صاح جاك ليك فى دهشة موقفا الدراجة البخارية: ما هذا بحق الشيطان! أسمع، ما هذا بحق جهنم؟!

لوى بيج جو عنقه ناحيته وأجاب: أوه، أهو أنت يا جاك ؟ اسمع، يا جاك، طالما أنك ستأخذنا على أية حال إلى السجن، ألا يمكنك أن تنتظر دقيقة واحدة.؟

ودار الشرطى بدراجته حولهما. وقال: انهضا بعيدا عن الشارع، وإلا مر شخص ما وداس فوقكما.

وزأرت دراجته البخارية فى الوحل، واختفى ضوء كشافها الصغير عند منحنى الشارع. وراح المطر يتساقط برقة وسط أشجار تورتيلا فلات.



كيف قام أصدقاء دانى بمساعدة القرصان على الوفاء بالنذر. وكيف كوفىء القرصان على ذلك بأن ظهرت لكلابه رؤيا مقدسة

بعد ظهر كل يوم كان القرصان يدفع عربته الصغيرة الفارغة إلى أعلى التل ثم إلى فناء بيت دانى. وكان يسندها إلى السور ويغطيها بزكيبة، ثم يدفن البلطة فى الأرض، لأن ذلك، كما هو معروف للجميع، يجعل الصلب أكثر حدة. وأخيرا، يدخل البيت، ويمد يده إلى الكيس المعلق حول رقبته بدوبارة، فيأخذ منه ربع الدولار اليومى ويعطيه لدانى. وبعدئذ وفى وقار يذهب دانى والقرصان وأى شخص آخر من الأصدقاء يتصادف وجوده فى البيت إلى حجرة النوم، وأقدامهم تطأ الفراش الموضوع على أرضية الغرفة، وبينما يقف الجميع يتفرجون، يمد دانى يده إلى أسفل وسادته، ويخرج الكيس القماش ويودع به ربع الدولار الجديد. واستمرت هذه العادة زمنا طويلا.

وأصبح كيس النقود محورا رمزيا للصداقة، ونقطة الثقة التى تتركز حولها الأخوة. كانوا فخورين بالنقود، فخورين بأنهم لم يعبثوا بها أبدا. كان قد نما بينهم بناء من احترام الذات ازاء موضوع حراسة نقود القرصان وشعروا لذلك بسعادة بالغة. انه لشىء رائع أن يكون الإنسان موضع ثقة. ومنذ زمن طويل لم تعد هذه النقود فى نظر الأصدقاء عملة يمكن تداولها وصحيح أنهم قد حلموا بعض الوقت بمقدار النبيذ الذى يمكن أن يحصلوا بهذه النقود، ولكن هذه الفكرة ما لبثت أن اختفت من

رءوسهم كإجراء مشروع . كان العرض من الكنز هو شراء شمعدان ذهبى وهذا الشمعدان المتوقع يعتبر من ممتلكات القديس فرانسيسكو دى أسيسى، وخداع قديس أسوأ جدا من الخروج على القانون.

وذات مساء جاءت الأنباء، عن طريق ذلك البرق السريع الدقيق الذى لا يعلم أحد عنه شيئا، بأن مركبا من مراكب خفر السواحل قد اصطدمت بالصخور بالقرب من كارميل. وكان بيج جو بورتاجى غائبا فى شأن من شئونه، أما دانى وبابلو وبيلون ويسوع ماريا والقرصان وكلابه فقد انطلقوا فى فرح إلى الشاطىء لأنه إذا كان هناك شىء يحبونه، فهو التقاط الأشياء الصالحة للاستعمال التى تطفو نحو الشاطىء. كانوا يرون أن هذا العمل مشوق جدا أكثر من أى شىء آخر فى العالم. وبالرغم من أنهم وصلوا متأخرين بعض الشىء، إلا أنهم عوضوا الوقت الذى فاتهم، فقد أنطلق الأصدقاء يجوبون الشاطىء طوال الليل، وجمعوا كومة كبيرة من البضائع الطافية فوق الماء علبة زبدة،خمسة أرطال، وعدة صناديق من البضائع المعلبة وثيابا مبللة، وكيسين من البسلة مياها من قارب إنقاذ، ومدفعا رشاشا. وعندما بدأ نور النهار، كان فى حوزتهم كومة هائلة.

وقد قبلوا من أحد المتفرجين خمسة دولارات فى مقابل جملة ما معهم، فلم يكن يخطر على ذهنهم أن يحملوا كل هذه الأشياء الثقيلة أكثر من ستة أميال من جانب التل الشديد الانحدار إلى تورتيلا فلات.

ولما كان القرصان لم يقم بعمله اليومى فى قطع الأخشاب، فإنه تلقى ربع دولار من دانى، ووضعه فى كيسه الذى يتدلى من عنقه. وانطلقوا جميعا مرهقين، مفعمين بالدفء والسعادة المنتظرة واتجهوا نحو مونترى عبر التلال.

لم يعودوا إلى بيت دانى إلا بعد الظهيرة. وفتح القرصان كيسه كما لو أنه يؤدى إحدى الشعائر وأعطى دانى ربع الدولار، وانطلقت الفرقة كلها إلى الحجرة الأخرى. ومد دانى يده إلى أسفل الوسادة لكنها خرجت

فارغة. وقلب الوسادة وقلب المرتبة، وبعدئذ استدار فى بطء إلى أصدقائه، وقد أصبحت عيناه حادتين كعين نمر. وانتقلت نظراته من وجه إلى وجه ، فرأى على كل وجه رعبا وغضبا لا يمكن أن يكونا مصطنعين.

قال: جميل، جميل وبدأ القرصان يبكى. وضع دانى ذراعه حول كتفه وقال منذرا بالشر: لا تبك يا صديقى الصغير لتعودن إليك نقودك.

وخرج الجميع من الحجرة فى صمت. وذهب دانى إلى الفناء فوجد عصا ثقيلة من شجرة الصنوبر طولها ثلاثة أقدام، وأخذ يضرب بها الهواء على سبيل التجربة. ودخل بابلو المطبخ وعاد وفى يده فتاحة علب قديمة ذات سلاح مخيف. وجذب يسوع ماريا من تحت المنزل يد معول مكسور. وكان القرصان يراقبهم فى حيرة، وعادوا جميعا إلى المنزل وجلسوا فى هدوء.

وأشار القرصان بأصبعه إلى أسفل التل متسائلا: أيكون هو؟

وأومأ دانى برأسه ببطء. كانت عيناه تنذران بالويل والهلاك. وكان ذقنه بارزا، وجسده كله يهتز قليلا فى جلسته على الكرسى كحية خطرة توشك أن توجه ضربتها.

وذهب القرصان إلى الفناء وأخرج فأسه.

ظلوا جالسين فى البيت فترة طويلة. لم ينبسوا بكلمة واحدة ولكن كانت هناك موجة من الغضب البارد تجتاح الغرفة وتجثم بها. كان الشعور فى البيت أشبه بصخرة داخلها ديناميت تقترب النار منه.

ومضى الأصيل، واختفت الشمس وراء التل. وبدت تورتيلا فلات بأكملها صامتة فى حالة توقع.

وسمعوا خطواته فى الشارع، فشددوا قبضاتهم على عصيهم. وتقدم جو بورتاجى، بتردد نحو الفناء ثم نحو الباب، كان فى يده جالون من النبيذ. وانتقلت عيناه فى قلق من وجه إلى آخر، لكن الأصدقاء ظلوا جالسين دون أن ينظروا إليه مباشرة.

قال بيج جو: مساء الخير

أجاب دانى: مساء الخير ونهض وتمطع فى كسل. ولم ينظر ناحية بيج جو، ولم يتجه نحوه مباشرة، ولكن بزاوية، كما لو أنه سيمر بجانبه. وعندما أصبح فى مواجهته، ضربه بسرعة الحية القاتلة. وتهشمت العصا على قفا بيج جو تماما، فسقط فاقد الوعى.

وبتدبر أخذ دانى شريطا جلديا من جيبه وربط ابهامى البورتاجى معا. وقال:

- والآن. هاتوا الماء.

وألقى بابلو جردل مياه على وجه بيج جو. وأدار رأسه ومد رقبته كالدجاجة، ثم فتح عينيه ونظر إلى أصدقائه فى ذهول. لم يتحدثوا إليه اطلاقا. قدر دانى المسافة بعناية. كلاعب جولف يوشك أن يوجه الكرة. وهبطت عصاه على كتف بيج جو، ثم بدأ الأصدقاء عملهم بطريقة منظمة قاسية. اختص يسوع ماريا بالساقين، ودانى بالكتفين والصدر. وكان بيج جو يصرخ ويتدحرج على الأرض. غطوا جسمه بالضرب من رقبته حتى قدميه. كانت كل ضربة تجد مكانا جديدا تلسعه. وكانت صرخاته تصم الآذان.

ووقف القرصان بعيدا فى يأس ممسكا بفأسه.

وأخيرا، عندما أصبح ميدان جسمه كله مهشما، توقفوا عن الضرب، وركع بابلو عند رأس بيج جو بفتاحة العلب. وخلع بيلون حذاء البورتاجى والتقط عصاه مرة أخرى.

وعندئذ صرخ بيج جو من الرعب: المبلغ مدفون عند البوابة الخارجية. لا تقتلونى وحياة المسيح!

خرج دانى وبيلون إلى البوابة الخارجية وعادا بعد بضع دقائق، يحملان الكيس القماش. سأل دانى: كم أخذت؟ كان صوته يخلو من أى عاطفة.

- أربعة فقط، والله. أخذت أربعة فقط، وسوف أعمل وأعيدهم.

مال دانى إلى أسفل وأخذه من كتفيه ودحرجه على وجهه وانقض

الأصدقاء على ظهره بنفس الدقة القاتلة، وأخذ صياحه يضعف، لكن الضرب لم يتوقف إلا عندما أصبح بيج جو غائبا عن وعيه. وعندئذ مزق بيلون قميصه الأزرق فكشف عن ظهره المسلوخ. ورسم بفتاحة الصلب صليبا على جلده ، فسال قليل من الدم من كل خط وأحضر بابلو الملح وساعده فى دعكه فوق الظهر الممزق كله. وفى النهاية ألقى دانى ببطانية على الرجل فاقد الوعى.

قال دانى: أعتقد أنه سيصبح أمينا الآن.

وعلق بيلون: ينبغى أن نحصى النقود، لم نحصها منذ زمن طويل. وفتحوا جالون النبيذ الذى أحضره بيج جو وملأوا قداحهم لأنهم كانوا تعبوا من عملهم، وكانت انفعالاتهم قد أرهقت.

أخذوا يحصون أرباع الدولارات فى أكوام كل منها عشرة وقاموا بعدها مرة أخرى فى انفعال. وصاح دانى: أيها القرصان هناك سبعة فوق الألف! لقد حان الوقت « جاء اليوم لتبتاع شمعدانك من أجل سان فرانسيسكو»!

كان يوما حافلا بالنسبة للقرصان. ذهب إلى الركن مع كلابه، ووضع رأسه على كلبه فلاف وانخرط فى تشنجات عصبية وتحركت الكلاب حوله فى قلق، ولعقت أذنيه ودست أنوفها فى رأسه، ولكن فلاف، وقد اشعر بالشرف الذى أوثر به، رقد فى هدوء ودفع شعره فى رقبة القرصان.

وضع دانى كل النقود فى الكيس، ووضع الكيس تحت وسادته ثانية والآن دخل بيج جو وهو يئن، وكان الملح قد أعتمل فى ظهره، ولم يعره الأصدقاء أى اهتمام حتى قام أخيرا يسوع ماريا، شهيد الإنسانيات، وفك رباط بيج جو وأعطاه قدحا من النبيذ وهو يقول مبررا: حتى أعداء مخلصنا منحوه شيئا من الراحة.

وأوقف هذا العمل العقاب. وتجمع الأصدقاء حول بيج جو فى رقة. ووضعوه على سرير دانى ومسحوا الملح من فوق جروحه ووضعوا ملابس

باردة على رأسه وملأوا كأسه بالنبيذ. وكان بيج جو يئن كلما لمسوه. ربما لم تكن أخلاقه قد تأثرت ولكن يمكن التنبؤ بأنه لن يجرؤ على السرقة مرة أخرى من بيازنوس بيت دانى.

وانتهت الحالة العصبية التى انتابت القرصان. وشرب نبيذه وأضاء وجهه بالسعادة وهو يستمع إلى دانى يرسم له الخطط.

- لو أخذنا كل هذه النقود إلى المدينة لإيداعها البنك. لظنوا أننا سرقناها من آلة المبيعات. ينبغى أن نأخذ هذه النقود إلى الأب رامون ونخبره بالأمر. وعندئذ يشترى هو الشمعدان الذهبى، وسوف يباركه، وسوف يذهب القرصان إلى الكنيسة، ربما يذكره الأب أمون فى كلمة يوم الأحد. لابد أن يكون القرصان هناك حتى يمكنه سماعها.

نظر بيلون فى تأفف إلى ملابس القرصان الرثة القذرة. وقال بحدة: غدا يجب أن تأخذ القطع السبع الزيادة من النقود وتشترى بها بعض الملابس اللائقة. قد تكون هذه الملابس التى ترتديها صالحة للظروف العادية، أما فى مثل هذه المناسبة فلا يمكنك أن تذهب إلى الكنيسة هكذا كالمتشردين. لن يكون هذا مدعاة لفخر أصدقائك.

وأشرق وجه القرصان نحوه ووعده: سوف أفعل ذلك غدا.

وفى صبيحة اليوم التالى، ذهب القرصان إلى مونترى، وفاء بوعده. قام بعملية الشراء فى حرص، وأخذ يساوم بمهارة كادت تنفى حقيقة أنه لم يشتر شيئا منذ أكثر من عامين. وعاد إلى بيت دانى منتصرا، حاملا منديلا حريريا كبيرا ذا لونين أرجوانى وأخضر وحزاما عريضا مرصعا بقطع كثيرة من الزجاج الملون. وأعجب أصدقاؤه بما أشتراه.

وسأل دانى فى يأس: ولكن ما الذى سترتديه هناك أصبعان بارزان من حذائك حيث قطعت ثقوبا لإراحة مفاصل أصابعك المتورقة. وليس لديك سوى أفرول ممزق. كما أنك لا تملك قبعة.

قال يسوع ماريا: ينبغى علينا أن نعيره ملابسنا. أنا لدى معطف وصديرى. وبيلون لديه قبعة والده الممتازة. وأنت، ياداني لديك قميص،

وبيج جو لديه بنطلونه الأزرق الجميل.

احتج بيلون: ولكنا لن نستطيع فى هذه الحالة الذهاب.

أجاب يسوع ماريا: إنه ليس شمعداننا. وليس من المحتمل أن يقول الأب رامون كلمة طيبة عنا.

فى ذلك الأصيل نقلوا الكنز إلى منزل القسيس. واستمع القس إلى قصة الكلب المريض، ورقت نظراته واستطرد القرصان: وبعدئذ، يا أبى، أصبح هناك هذا الكلب الصغير الطيب، وكانت أنفه جافة، وعيناه، أشبه بالزجاج الخارج من البحر، وأخذ يئن لما حسه من ألم فى الداخل، عندئذ، أيها الأب، نذرت إلى سان فرانسيسكو الشمعدان الذهبى بعد أن أقوم بالعمل من أجله ألف يوم. إنه مولاى حقا. أيها الأب. ثم حدثت المعجزة! فقد هز ذلك الكلب ذيله ثلاث مرات هذه اللحظة مباشرة بدأ يتحسن. إنها معجزة القديس فرانسيسكو، أيها الأب. أليس كذلك؟.

أومأ القسيس برأسه موافقا فى رزانة. وقال: نعم. إنها معجزة حققها قديسنا المبارك فرنسيس. سوف أشترى لك الشمعدان.

شعر القرصان بسعادة بالغة، لأنه ليس من الهين أن تستجاب صلوات الشخص وتأتى بمعجزة حقيقية. ولو انتشر خبرها، لزاد مقام القرصان فى تورتيلا فلات. وسرعان ما نظر إليه الأصدقاء بعين جديدة من الاعتبار. ولم تزد نظرتهم إلى ذكائه عما كانت عليه من قبل، لكنهم عرفوا الآن أن قوى السماء والقديسين جميعا تقف إلى جانب مواهبه المحدودة.

عادوا إلى بيت دانى، وسارت الكلاب خلفهم. شعر القرصان أنه قد غرق فى فيضان ذهبى من الغبطة. وكانت هناك نوبات من القشعريرة وحمى المتعة تطارد إحداهما الأخرى خلال جلسه. وكان أصدقاؤه البيازانوس سعداء إذ حافظوا على نقوده، لأنهم هم أيضا نالوا شيئا من البركة من هذا العمل. شعر بيلون قبل كل شىء بالارتياح لأنه لم يسرق النقود. أى أحداث بشعة كان من الممكن أن تحدث لو أنه أخذ القطعتين فئة ربع الدولار مما كان منذورا للقديس! كان جميع الأصدقاء فى حالة

خشوع كما لو كانوا فى كنيسة.

كانت الدولارات الخمسة التى حصلوا عليها مقابل البضائع التى انتشلوها ترقد فى جيب دانى كالنار، ولكنه يعلم الآن ماذا يفعل بها. ذهب هو وبيلون إلى السوق وأشترى سبعة أرطال من اللحم وكيس بصل وخبزا ولفة كبيرة من الحلوى. وذهب بابلو ويسوع ماريا إلى توريللى لشراء جلونين من النبيذ، ولم يشرب أى منهما قطرة واحدة منه أثناء عودتهما إلى البيت.

فى تلك الليلة عندما أشعلت النار وأضيئت شمعتان على المنضدة، أقبل الأصدقاء على الوليمة فى نهم إلى حد الامتلاء. لقد كانت الحفلة تكريما للقرصان. وكان يتصرف بطريقة فيها الكثير من الوقار والكبرياء. ومع هذا كان يبتسم، ويبتسم فى الوقت الذى ينبغى أن يكون فيه حادا. لكنه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من ذلك.

بعد أن أكلوا بنهم شديد، اعتدلوا وراحوا يرتشفون الخمر من أقداحهم. وكانوا يخاطبون القرصان بقولهم: صديقنا الصغير.

سأله يسوع ماريا: ماذا كان شعورك عندما حدث هذا؟ عندما نذرت الشمعدان. وبدأ الكلب يتحسن. كيف كان شعورك؟ هل شاهدت أية رؤيا مقدسة؟

حاول القرصان أن يتذكر. لا أظن ذلك. ربما شاهدت رؤيا بسيطة، وربما شاهدت سان فرانسيسكو فى الهواء وكان يضىء مثل الشمس.

سأله بيلون: ألا تتذكر ذلك؟

- نعم - أظن أنى أتذكر. نظر سان فرانسيسكو نحوى وابتسم، كما هو شأن قديس طيب مثله، وعندئذ علمت أن المعجزة تحققت. قال: كن رءوفا بالكلاب الصغيرة، أيها الرجل القذر.

- هل قال لك ذلك؟

- لقد كنت كذلك. وهو لا يكون قديسا إذا كان يكذب.

قال بابلو: لا أظن أنك تذكر ذلك إطلاقا.

- ربما لا. ومع ذلك أظن أنى أتذكر هذا، كان القرصان ثملا

بالسعادة لما أولوه من تكريم واهتمام.

قال يسوع ماريا: رأت جدتى العذراء المقدسة. كانت جدتى مريضة وتوشك على الموت، ولقد سمعت بنفسى صرختها. قالت: أوه إنى أرى والدة الرب، أوه، يامريم الحبيبة المليئة بالبركات.

قال دانى: يحظى بعض الناس برؤية هذه الأشياء. لم يكن أبى طيبا جدا، لكنه كان يرى القديسين أحيانا، ويرى أشياء سيئة أحيانا أخرى. الأمر يتوقف على ما إذا كان طيبا أو سيئا فى وقت الرؤيا. ألم تشهد أبدا أى رؤى أخرى، أيها القرصان؟

أجاب القرصان: لا. ربما أخشى رؤية المزيد منها.

كانت حفلة جميلة استمرت لفترة طويلة. وكان الأصدقاء يعلمون أنهم لم يكونوا وحدهم فى هذه الليلة. كان فى مقدورهم أن يشعروا بعيون القديسين المباركين تحنو عليهم من خلال الحيطان والنوافذ والسقف.

قال بيلون: سيكون شمعدانك هناك يوم الأحد. لن نستطيع الذهاب، لأنك سوف ترتدى ملابسنا. لا أقول إن الأب رامون سوف يذكرك بالاسم، ولكنه ربما يقول شيئا ما عن شمعدانك، ينبغى أن تحاول تذكر ما يقول، يا قرصان، حتى تخبرنا به.

ثم أحتدت لهجة بيلون وهو يقول: اليوم ياصديقى الصغير، كانت الكلاب تملأ بيت الأب رامون. لم يكن هناك بأس اليوم، ولكن يجب ألا تأخذها معك إلى الكنيسة يوم الأحد. ليس من اللائق وجود الكلاب فى الكنيسة. اترك الكلاب بالمنزل.

وبدأ الاكتئاب على وجه القرصان. وصاح ولكنها تريد أن تذهب. كيف أستطيع أن أتركها. أين يمكننى أن أتركها؟

وصدم بابلو: لقد تصرفت فى الموضوع حتى الآن بجدارة أيها القرصان الصغير. ولكنك فى النهاية تريد أن تدنس حرمة الأماكن المقدسة.؟

أجاب القرصان فى خضوع: لا

- إذن أترك كلابك هنا. وسوف نعنى بأمرها. وإلا سوف يكون

ذهابك بها إلى الكنيسة تدنيسا للأماكن المقدسة.

كان تعلقهم أثناء الشراب غريبا فى تلك الليلة، ولقد مضت ثلاث ساعات قبل أن يغنوا حتى أغنية بذيئة. وكان الوقت متأخراً عندما شردت أفكارهم فى النساء. وفى الوقت الذى تحولت فيه عقولهم إلى الشجار كان النعاس قد دب إلى جفونهم. كانت هذه الأمسية علامة طيبة عظيمة فى حياتهم.

فى صباح يوم الأحد كانت الاستعدادات على أشدها. غسلوا القرصان وتفحصوا أذنيه وأنفه وراقب بيج جو، وهو ملتف بملاءة القرصان يرتدى سرواله الصوفى الأزرق. وأحضر بيلون قبعة والده. وأقنعوا القرصان بعدم ارتداء حزامه المطعم بالزجاج الملون فوق المعطف. وعلموه كيف يترك معطفه مفتوحا من حين لآخر حتى تلمع قطع الزجاج الملون. أما بند الحذاء فكان أصعب المشاكل التى واجهتهم. كان لدى بيج جو الحذاء الكبير الوحيد الذى يصلح لقدمى القرصان، وإن كان أسوأ من حذاء القرصان، وكانت الصعوبة قائمة فى الثقوب المقطوعة بالحذاء لإراحة مفاصل الأصابع، حيث تظهر الأصابع من هذه الثقوب. ووجد بيلون أخيرا الحل فى الهباب الذى بداخل الموقد. أخذ قليلا منه ودعكه جيدا فى الجلد، فكان من الصعب جدا رؤية ثقوب مفاصل الأصابع.

وتأهب القرصان أخيرا. وقبعة والد بيلون على رأسه فى أناقة، وقميص دانى، وبنطلون بيج جو، والمنديل الكبير حول رقبته، ومن حين لآخر يتلألأ الحزام المرصع بقطع الزجاج الملون. ومشى أمام الأصدقاء لفحصه، ونظروا إليه بعين النقد.

- شد قدميك أيها القرصان.

- لا تجرجر كعبيك.

- كف عن إمساك منديلك.

- الناس الذين يرونك سوف يظنون أنك غير معتاد على الملابس الجيدة.

وأخيرا التفت القرصان إلى أصدقائه وقال متوسلا: فقط لو كانت تلك

الكلاب تستطيع أن تأتى معى. لأخبرتها أنه ينبغى ألا تدخل الكنيسة.

ولكن البيازانوس كانوا حازمين. قال دانى: لا لابد أنها ستدخل بطريقة ما، سوف نحجزها لك هنا فى البيت.

قال القرصان مستسلما لكنها لا تحب ذلك. ربما تشعر بالوحدة. والتفت إلى الكلاب فى الركن وقال: لابد أن تظلوا هنا. ليس من الخير لكم أن تذهبوا إلى الكنيسة. ابقوا مع أصدقائى حتى أعود. وبعدئذ انسل خارجا وأغلق الباب خلفه. وسرعان ما انفجرت ضجة وحشية من العواء والنباح فى البيت. كانت ثقته فى قرار أصدقائه هى وحدها التى حالت دون رجوعه.

وعندما انحدر فى الطريق شعر بأنه عريان وضعيف بدون الكلاب. وبدا له أنه قد فقد إحدى حواسه. كان خائفا من خروجه وحيدا. ربما هاجمه أحد. ومع ذلك مضى بشجاعة، خلال البلدة ثم إلى كنيسة سان كارلوس.

والآن، قبل أن تبدأ الصلاة، فتحت الأبواب. وغمس القرصان أصابعه فى الماء المقدس من حوض المعمودية، ورسم علامة الصليب على صدره، وركع أمام العذراء. ودلف إلى داخل الكنيسة وقام بصلاته، أمام المذبح وجلس. كانت الكنيسة الطويلة معتمة بعض الشىء، ولكن المذبح الأعلى كان مضيئا بالشموع. وفى الجوانب أمام الصور كانت شموع النذور مشتعلة. وانتشرت رائحة البخور القديم العذب فى الكنيسة.

جلس القرصان فترة ينظر إلى المذبح، ولكنه كان بعيدا جدا، وأكثر قدسية من أن يطيل فيه التفكير، ولم يكن من السهل على رجل فقير مثله أن يصل إليه. وبحثت عيناه عن شىء ما أكثر دفئا، شىء لا يخيفه. وهناك، أمام صورة القديس فرنسيس، وجد شمعدانا ذهبيا جميلا وكانت به شمعة طويلة تحترق.

تنهد القرصان فى انفعال. ورغم دخول الناس، وإغلاق الأبواب. وبدء الصلاة وانشغال القرصان فى الطقوس، لم يكن فى مقدوره أن يمنع

نفسه من النظر إلى ملاكه وإلى الشمعدان. كان جميلا جدا. لم يكن يستطيع أن يصدق أنه هو القرصان، الذى وهب الكنيسة هذا الشمعدان. وبحث فى وجه القديس فرانسيس ليرى ما إذا كان قد أعجب بالشمعدان. كان على يقين من أن الصورة تبتسم قليلا من حين لآخر، وأن الابتسامة المترددة على الوجه لشخص يفكر فى أمور تسعده.

وأخيرا بدأت العظة. قال الأب رامون: هناك جمال جديد فى الكنيسة. أن أحد أبناء الكنيسة قد وهبها شمعدانا ذهبيا من أجل مجد القديس فرانسيس وذكر قصة الكلب. ثم سردها بطريقة صريحة بعض الشىء، وعن عمد. وبحثت عيناه فى وجوه المصلين حتى لمح ابتسامات خفيفة تبدو عليها. فقال: ليس هذا مما يضحك. كان القديس فرانسيس يحب الحيوانات حبا جما حتى أنه كان يعظها. ثم ذكر الأب رامون قصة ذئب جوبيو السيىء وتكلم عن الحمامات البرية وعن القنبرتين الشقيقتين. ونظر القرصان إليه فى دهشة وهو ماض فى عظته.

وفجأة صدر صوت اندفاع من ناحية الباب. وانطلق نباح غاضب وصوت خمشات. وإذا بالأبواب تفتح بوحشية ويندفع منها إلى الداخل كل من فلاف ورودلف وانريك وباجاريتو وسنيور اليك تومبسون. ورفعوا أنوفهم، ثم أسرعوا نحو القرصان فى عصبية متزاحمة. قفزوا فوقه بنباح وعواء خافتين، وتكوموا فوقه.توقف القسيس عن الكلام، ونظر بحدة إلى أسفل نحو هذه الضجة. وبادله القرصان نظرته فى عجز وعذاب. إذن لا جدوى. لقد تدنست الكنيسة.

وعندئذ ضحك الأب رامون، وضحك المصلون. قال: خذ الكلاب إلى الخارج. دعها تنتظر حتى ننتهى.

قاد القرصان كلابه إلى الخارج فى ارتباك وبإشارات اعتذار. وقال لكلابه: هذا خطأ. إننى غاضب منكم. أوه. إننى خجل منكم. وبدأت رءوس الكلاب إلى الأرض فى ذلة وعوت بطريقة مؤثرة. قال القرصان: أنا أعرف ما فعلتم، وعضضتم أصدقائى، وحطمتم النافذة، وأتيتم. والآن، ابقوا هنا

وانتظروا، أوه، أيتها الكلاب الشريرة، أوه، أيتها الكلاب الدنسة.

وترك الكلاب تعانى الحزن والندم وعاد إلى الكنيسة والتفت الناس إليه وهم مازالوا يضحكون حتى سقط فى كرسيه محاولا إخفاء نفسه.

قال الأب رامون: لا تخجل. ليس من الخطيئة أن تحبك كلابك، ليس من الخطيئة أن تحبها. وقد رأيت كيف أن القديس فرانسيس كان يحب الحيوانات. ثم ذكر المزيد من القصص عن ذلك القديس الطيب.

وزايل القرصان الارتباك. وتحركت شفتاه. وفكر: أوه، فقط لو كانت الكلاب تستطيع أن تسمع هذا. كانت تشعر بالسعادة لو كان فى مقدورها أن تعرف كل هذا. وعندما انتهت العظة، كانت هذه القصص لا تزال ترن فى أذنيه. وبطريقة آلية أخذ يؤدى الطقوس الدينية لكنه لم يسمع الصلاة. وعندما انتهت اندفع نحو الباب. كان أول مَنْ خرج من الكنيسة. وتجمعت كلابه حوله وهى لا تزال حزينة خجلة.

صاح: تعالوا. لدى أشياء أريد أن أقولها لكم.

انطلقوا يصعدون التل إلى غابة الصنوبر، وراحت الكلاب تقفز وتتواثب حوله. وأصبحوا أخيرا فى حمى الغابة، ولكنه ظل ماضيا بها: إلى أن وجد ممرا طويلا بين أشجار الصنوبر، حيث تتعانق الفروع من فوق الرءوس، وحيث تتقارب الجذوع بعضها من بعض. وظل لحظة ينظر حوله فى عجز.

قال: أريد أن أصور لكم ما حدث تماما. فقط لو كنتم هناك وسمعتم الأب يتكلم عن ذلك. ووضع حجرا كبيرا فوق آخر. وقال للكلاب: والآن إليكم صورة ما حدث وثبت عصا صغيرة فى الأرض: هنا بالضبط الشمعدان، وبه شمعة.

كان الجو معتما فى الممر، وكان الهواء معبقاً برائحة صمغ الصنوبر، وهمست الأشجار برقة عبر النسيم. قال القرصان بطريقة آمرة: والآن، اجلس هنا يا انريك. وأنت هنا يارودالف. أريد فلاف هنا لأنه أصغركم، أما أنت يا باجاريتو، أيها الأحمق الكبير، اجلس هنا ولا تحدث شغبا.

وأنت يا سنيور اليك تومبسون، ربما لا تنام.

وهكذا نظمهم فى صفين، اثنان فى الصف الأمامى، وثلاثة فى الصف الخلفى.

قال: أريد أن أخبركم بما حدث. لقد غفر لكم دخولكم الكنيسة. لم يعتبر الأب رامون أن ذلك تدنيس هذه المرة والآن، انتبهوا لدى أشياء أقولها لكم.

جلست الكلاب فى أماكنها وراحت ترقبه باهتمام. هز سنيور اليك تومبسون ذيله، حتى التفت القرصان إليه وقال: ليس هنا مكان لذلك. قد لا يبالى القديس فرانسيس، ولكنى لا أريد أن تهز ذيلك أثناء الاستماع. والآن، سأحكى لكم عن القديس فرانسيس.

كانت ذاكرته يقظة فى ذلك اليوم. ووجدت الشمس ثغرات تنفذ منها بين أوراق الشجر. ووقعت ثلاث بقع مضيئة على الأرض المغطاة بأعواد الصنوبر. وجلست الكلاب فى صبر، وعيونها على شفتى القرصان. ذكر كل ما قاله القس، كل القصص، كل الملاحظات، لم تخرج كلمة واحدة عن موضعها تقريبا.

وعندما انتهى، نظر إلى الكلاب فى وقار وقال: فعل القديس فرانسيس كل ذلك.

وكفت الأشجار عن الهمس، وبدت الغابة صامتة مسحورة.

وفجأة صدر صوت خافت خلف القرصان. ورفعت كل الكلاب رءوسها. وخشى القرصان أن يدير رأسه. ومرت لحظة طويلة.

ثم انتهت هذه اللحظة. وخفضت الكلاب أبصارها. وعادت الحياة إلى أعالى الأشجار مرة أخرى وتحركت بقع الشمس فى حيرة.

كان القرصان سعيدا جدا حتى آلمه قلبه. وصاح: هل رأيتموه؟ هل هو سان فرانسيسكو؟ أوه! أى كلاب طيبة أنتم حتى تشهدوا رؤيا.

قفزت الكلاب لدى سماعها لهجته. وانفتحت أفواهها واهتزت ذيولها فرحا.



١٣ كيف اندفع أصدقاء دانى إلى مساعدة سيدة أثناء محنتها .

كانت السنيورة تريزينا كورتث وأطفالها الثمانية وأمها العجوز يقيمون فى كوخ مريح عند المصرف العميق الذى يعتبر الحد الجنوبى لمنطقة تورتيلا فلات. وكانت تريزينا نموذجا جيدا للمرأة الناضجة، فى حوالى الثلاثين من عمرها. أما أمها، تلك العجوز، الجافة المتخلفة عن جيل سابق، والتى سقطت أسنانها، فقد كانت فى حوالى الخمسين من عمرها. ولم يعد أحد منذ زمن طويل يذكر أن اسمها كان انجليكا.

لم تكن هذه العجوز تكف عن العمل خلال أيام الأسبوع، كان عليها أن تطعم سبعة أطفال من الثمانية وتعاقبهم، وتلاطفهم، وتساعدهم على ارتداء ملابسهم والذهاب إلى فراشهم. وكانت تريزينا مشغولة بالطفل الثامن، مع إعداد بعض الترتيبات للطفل التاسع.

أما فى يوم الأحد فقد كانت العجوز تلقى بهذه الواجبات فى مهب الرياح، وترتدى ثيابا من حرير أسود قديم جدا أكثر من عمرها، وتضع على رأسها قبعة سوداء كالحة من القش، ثبتت بها كريزتان طبيعيتان، مطليتان وتخرج متجهة فى حزم نحو الكنيسة.

وهناك تجلس بلا حراك كالقديسين فى محاريبهم. وكانت تذهب للاعتراف، بعد الظهر، مرة كل شهر. ولعل من الشائق معرفة الخطايا

التى تعترف بها، وأين كانت تجد الوقت الكافى لارتكابها، فقد كان منزل تريزينا مليئا بالمتسلقين والزاحفين والمتصادمين والزاعقين وقتلة القطط، ولاعبى الاستغماية بين الأشجار، ومن المؤكد أن كلا من هذه الأعباء يبلغ حد الانفجار كل ساعتين، فهل ثمة غرابة فى أن يكون للعجوز نفس بعيدة الغور وأعصاب من فولاذ ؟ لو كانت غير ذلك لانفصلت عن جسدها وانطلقت زاعقة فى الفضاء كأنها صاروخ صغير.

كانت تريزينا امرأة ذات ذهن مشتت نوعا، كان جسدها أحد تلك الأوعية الممتازة لتقطير الأطفال. عندما حملت فى الطفل الأول، وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها، كان صدمة لها، صدمة حتى أنها ولدته فى حديقة للعب الكرة ليلا ولفته بالجرائد وتركته حتى يعثر عليه الحارس الليلى. هذا سر. وحتى الآن قد تقع تريزينا فى ورطة لو انكشف هذا السر.

عندما كانت فى السادسة عشرة، تزوجها السيد الفريد كورتث ومنحها اسمه ومنحها دعامتين فى عائلتها هما الفريدو وارانى. لقد منحها السيد كورتث اسمه فى سعادة . لكنه كان يستخدم هذا الاسم مؤقتاً فقط. كان اسمه قبل مجيئه إلى مونترى وبعد أن غادرها هو جو جليمو، فقد ابتعد عن المدينة بعد ولادة أرنى. ربما لأنه تنبأ بأن زواجه من تريزينا لن يؤدى به إلى حياة هادئة.

وكان انتظام تريزينا فى إنجاب الأطفال يصيبها بالدهشة وحدث فى بعض الأحيان أنه لم يكن فى مقدورها تحديد اسم والد الطفل الذى توشك أن تضعه، وكانت تؤمن أحيانا بأنه ليس هناك حاجة إلى عاشق. لقد حملت حتى فى الفترة التى كانت فيها تحت الحجر الصحى بسبب أصابتها بالدفتريا. مهما يكن من شىء فإنه عندما كانت تتعقد الأمور بحيث يعجز ذهنها عن تفسيرها، فإنها عادة تضع هذه المشكلة بين يدى أم المسيح التى هى، فيما تعلم، أكثر معرفة واهتماما بأمثال هذه الأمور.

كانت تريزينا كثيرا ما تذهب للاعتراف. وكان الأب رامون يائسا من إصلاحها. الحق أنه لاحظ أنها بينما ركبتاها وشفتاها ويداها تلتمس التكفير عن خطيئة، فإن عينيها البسيطتين المثيرتين اللتين تلتمعان تحت رموش طويلة، تمهدان لارتكاب خطيئة جديدة.

فى الوقت الذى كنت أحكى فيه هذه القصة، أنجبت تريزينا طفلها التاسع، ولم تكن مرتبطة بأحد فى ذلك الحين. وتلقت العجوز عبئا جديدا، انتقل الفريدو إلى السنة الثالثة بالمرحلة الأولى، وانتقل أرنى إلى الثانية، وذهب بانتشيتو إلى المدرسة للمرة الأولى.

وفى ذلك الوقت تقريبا كانت الطريقة الحديثة لحكيمات المدارس بكاليفورنيا أن يزرن الفصول ويقمن بالاتصال بالأطفال ليعرفن منهم التفاصيل الخاصة جدا التى تتصل بحياتهم المنزلية. وقد استدعى الفريدو الذى كان فى المرحلة الأولى، إلى مكتب الناظر، لأنه كان يبدو فى نظر الجميع نحيفا.

وفى رقة سألته الزائرة الصحية، التى تدربت على أساليب علم نفس الطفل: فريدى، هل لديكم الكفاية من الطعام ؟

أجاب الفريدو: طبعا.

- طيب، قل لى ماذا تناولت فى الإفطار ؟

أجاب الفريدو: فطير ولوبيا.

وهزت المرضة رأسها للناظر فى حزن: وماذا تأكل عندما تعود إلى البيت فى فترة الغداء ؟

- أنا لا أعود إلى البيت فى هذه الفترة.

- ألا تأكل ساعة الظهيرة ؟

- بلى. فأنا أحضر معى بعض اللوبيا داخل فطيرة.

وبدأ قلق حقيقى فى عينى المرضة، ولكنها ضبطت أعصابها قائلة:

ماذا تأكل فى العشاء ؟

- فطير ولوبيا.

وهنا تخلت عنها مبادئ علم النفس: هل تريد أن تقول لى إنك لا تأكل سوى الفطائر واللوبيا ؟

ودهش الفريدو وقال: يا يسوع المسيح، ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟

وقد استمع طبيب المدرسة بدوره إلى تقرير الزائرة الصحية المذعورة. وقاد سيارته فى أحد الأيام إلى منزل تريزينا لبحث الموضوع. وعندما مشى عبر الفناء كان المتسلقون والزاحفون المتصادمون يعزفون سيمفونية واحدة فظيعة. وقف الطبيب فى باب المطبخ المفتوح. ورأى بعينى رأسه العجوز وهى تخطو نحو الموقد، وتدفع ملعقة ضخمة فى غلاية وتضع الدقيق مع اللوبيا المغلية. وتوقفت الضوضاء فجأة. وراح المتسلقون والزاحفون والمتصادمون يعملون فى نشاط صامت، ينتقلون من لوبيا إلى لوبيا، لا يستريحون إلا لتناولها من جديد. وعادت العجوز إلى كرسيها بضع لحظات للراحة. وزحف الأطفال فى حماس البق الصغير إلى كل مكان، تحت السرير، تحت الكراسى، تحت الموقد وظل الطبيب هناك ساعتين، وقد جذب الأمر اهتمامه العلمى ثم مضى وهو يهز رأسه.

كان يهز رأسه بلا تصديق وهو يدلى بتقريره. قال: أجريت عليهم كل فحص أعرفه: على الأسنان، والجلد، والدم، والهيكل العظمى، والعيون، والترابط العضوى لوظائف الجسم. أيها السادة أنهم يعيشون على ما يمكن اعتباره سما بطيئا، وقد عاشوا عليه منذ ولادتهم. أيها السادة، أقول لكم إننى لم أر فى حياتى أطفالا أكثر صحة منهم ! ثم غلبه الانفعال فصاح: الوحوش الصغيرة. لم أر فى حياتى مثل تلك الأسنان لم أر مطلقا مثل تلك الأسنان.

ولعلك تتساءل كيف تحصل تريزينا على الطعام من أجل عائلتها. بعد

أن يقوم العمال بدرس اللوبيا، تجد أكواما كبيرة من عصافة اللوبيا فى المكان الذى كانوا يعملون به. فإذا مددت ملاءة على الأرض، ثم قمت فى عصر أحد الأيام المحملة بالريح بتحريك هذه العصافة فى الهواء فوق الملاءة، ستعرف أن عملية الدرس لم تكن كاملة، وقد تجمع فى عصر يوم واحد من العمل عشرين رطلا أو أكثر من اللوبيا.

فى الخريف تذهب العجوز بصحبة الأطفال القادرين على المشى ويقومون بغربلة العصافة. ولم يكن أصحاب المحصول يهتمون بذلك، فلم يكن فى هذا العمل ما يضر. وكانت العجوز تعتبر السنة التى لا تجمع فيها ثلاثمائة أو أربعمائة رطل من اللوبيا سنة سيئة.

عندما تكون لديك فى البيت أربعمائة رطل من اللوبيا، فإنك لا تكون مضطرا إلى الخوف من الموت جوعا. على أنه كانت هناك أشياء أخرى لذيذة مثل السكر أو الطماطم، أو الفلفل، أو البن، أو السمك أو اللحم، تصل إلى البيت بمعجزة فى بعض الأحيان، عن طريق شفاعة العذراء، وفى أحيان أخرى بطريق الجهد أو الذكاء، ولكن طالما كانت اللوبيا هناك، فأنت فى أمان، إن اللوبيا سقف يحمى معدتك. اللوبيا معطف دافىء ضد البرد الاقتصادى.

شىء واحد فقط هو الذى يستطيع أن يهدد حياة عائلة السنيورة تريزينا كورتث وسعادتها، ذلك هو فساد محصول اللوبيا.

عندما تنضج اللوبيا، تنتزع الشجيرات الصغيرة من الأرض وتجمع فى أكوام، لتجفف تمهيدا لدرسها. ذلك هو الوقت الذى يصلون فيه حتى لا تسقط الأمطار. عندما تجمع الأكوام الصغيرة من اللوبيا فى صفوف، صفراء فوق الغيطان السوداء، ترى الفلاحين يرقبون السماء، يتجهمون فى رعب لدى مرور أى سحابة فوقهم، لأنه لو نزل المطر، لابد من أن تقلب أكوام اللوبيا لتجفيفها مرة أخرى. وإذا تساقط المزيد من المطر قبل أن تجف هذه الأكوام، فلابد من أن تقلب مرة أخرى. فإذا تساقطت الأمطار

للمرة الثانية، فإن التعفن والعطن يسريان فيها، ويكون بوار المحصول.

كان من عادة العجوز عندما تجف اللوبيا، أن تشعل شمعة للعذراء. وفى العام الذى أتحدث عنه، تكومت اللوبيا وأشعلت الشمعة وأعدت الزكائب فى بيت تريزينا لاستقبال اللوبيا. ووضع الزيت فى آلات الدرس ونظفت.

وسقط المطر.

اندفعت إلى الغيطان مزيد من الأيدى وقلبت أعواد اللوبيا المبتلة. وأشعلت العجوز شمعة أخرى.

وسقط المزيد من المطر.

وعندئذ أشترت العجوز شمعتين بقطعة ذهبية صغيرة كانت تحتفظ بها منذ سنوات طويلة. وقلبت الأيدى التى تعمل فى الغيطان اللوبيا لتعرضها للشمس مرة أخرى، وعندئذ انهمرت الأمطار غزيرة باردة. لم تحصد حبة لوبيا واحدة فى كل أراضى مونترى. وشقت المحاريث الأرض فانغرست الأعواد المبتلة تحت التراب.

هكذا نزلت المحنة على بيت السنيورة كورتث. ضاعت مادة الحياة، وانهار السقف الصغير.

ضاعت تلك الحقيقة الخالدة: اللوبيا. وفى الليل بكى الأطفال فى ذعر خوفا من الموت جوعا. لم يخبرهم أحد، لكنهم كانوا يعرفون. جلست العجوز فى الكنيسة، كما تفعل دائما، ولكن شفتيها انسحبتا فى زمجرة عندما نظرت إلى العذراء. وفكرت: لقد أخذت شمعاتى. أوه، كم أنت شرهة للشمع أوه، أيتها الحمقاء. وحولت فى كآبة ولاءها إلى سانتا كلارا، وأخبرت سانتا كلارا بالظلم الذى وقع عليها. وسمحت لنفسها بشىء من التفكير السيىء حول ولادة العذراء. وقالت لسانتا كلارا فى خبث: تعلمين أن تريزينا أيضا لا تستطيع فى بعض الأحيان أن تذكر أيهم الفاعل.

يقال إن يسوع ماريا كوركوران رجل ذو قلب كبير. وكانت لديه أيضا تلك الموهبة التى يمتاز بها بعض الناس الأخيار وهى الانجذاب الحتمى نحو تلك المناطق التى تستدعى عاطفته الخيرة وكم هى قليلة تلك المرات التى لم يهبط فيها على سيدات شابات كن فى حاجة إلى مَنْ يسرى عنهن. كان يجد نفسه منجذبا بلا مقاومة نحو أى ألم أو حزن. لم يكن قد ذهب إلى بيت تريزينا شهورا طويلة إذ لم يكن هناك انجذاب خفى بين الألم وبين روح الخير، كيف إذن حدث أنه ذهب إلى هناك فى نفس اليوم الذى قامت فيه بوضع آخر حبة لوبيا من خزين العام الماضى فى الوعاء. ؟

جلس فى مطبخ تريزينا، يدفع الأطفال فى رقة بعيدا عن ساقيه. ونظر إلى تريزينا فى أدب وبعينين بدا فيهما الألم بينما كانت تشرح له المحنة وراقبها، فى افتتان، عندما قلبت زكيبة اللوبيا الأخيرة من الداخل لتريه أنه لم يتبق حبة لوبيا واحدة وأومأ برأسه فى تعاطف معها عندما أشارت إلى الأطفال، الذين سرعان ما سيتحولون إلى هياكل عظمية، وسرعان ما سيموتون من الجوع.

ثم ذكرت له العجوز فى مرارة كيف خدعتها العذراء ولكن يسوع ماريا لم يتجاوب معها عند هذه النقطة.

قال بجفاف: ماذا تعلمين، أيتها العجوز ؟ ربما كان لدى العذراء المباركة عمل فى مكان آخر.

وأصرت العجوز بصوت حاد: ولكنى أشعلت لها أربع شمعات.

نظر إليها يسوع ماريا فى برود وقال: ما قيمة أربع شمعات بالنسبة إليها ؟ لقد رأيت كنيسة واحدة وقد أشعلت بها مئات الشمعات من أجلها. إنها ليست فى حاجة إلى شمع.

لكن ذهنه احترق بمشكلة تريزينا. فى ذلك المساء تحدث فى حماسة وشفقة إلى الأصدقاء فى بيت دانى. وانتزع من قلبه الكبير خطبة بليغة مؤثرة، وناشد قلوبهم من أجل هؤلاء الأطفال الصغار الذين ليس لديهم

لوبيا. وبلغت خطبته من التأثير أن اندلعت النار من قلبه إلى قلوب أصدقائه. وقفزوا واقفين. وقد لمعت عيونهم.

صاحوا: لن يموت الأطفال من الجوع. هذه مسئوليتنا !!

قال بيلون: نحن نعيش فى رفاهية.

وأيده دانى قائلا: سوف نعطيهم من غذائنا، وإذا احتاجوا إلى منزل، فى مقدورهم أن يقيموا هنا.

شعر يسوع ماريا بغبطة الزعيم الذى له أتباع.

لم يكن تفاخرهم أجوف. فقد التقطوا السمك. واغاروا على منطقة الخضر فى أوتيل ديل مونتى. كان لعبة مجيدة. كانت سرقة. نزع عنها طابع السرقة، جريمة ارتكبت فى سبيل الخير - فأى شىء أكثر متعة من هذا ؟

رفع القرصان سعر الحطب إلى ثلاثين سنتاً. وكان يذهب كل صباح إلى ثلاثة مطاعم جديدة. وقام بيج جو بسرقة عنزة السيدة بالوتشيكو المرة تلو المرة، وفى كل مرة كانت تعود إلى بيتها.

وأخذت مواد الغذاء تتجمع فى منزل تريزينا. ووضعت صناديق الخس فى الفناء، وطارت رائحة السردين الفاسد إلى خياشيم الجيران. ومع ذلك ظل لهيب الإحسان مشتعلاً فى قلوب الأصدقاء.

وإذا أتيح لك قراءة دفتر الشكاوى بمركز شرطة مونترى، ستلاحظ انتشار موجة جرائم خفيفة فى هذه الفترة. كانت سيارة الشرطة تسرع من مكان إلى آخر. فقد سرقت دجاجة من هنا، وسرقت عبوة كاملة من القرع من هناك. وأخطرت شركة بلادينى عن ضياع صندوقين من شرائح الحلزون البحرى زنة كل منهما مائة رطل.

أخذ منزل تريزينا يزدحم بالأطعمة. وامتلأ المطبخ بالمواد المخزونة وفاض الفناء الخلفى بالخضراوات. وانتشرت فى تورتيلا فلات روائح تشبه تلك

التى تنتشر فى أماكن التعبئة. وكان الأصدقاء يمضون فى سرقاتهم بأنفاس مقطوعة، ويتحدثون طويلاً ويرسمون الخطط مع تريزينا.

فى بداية الأمر جنت تريزينا من الفرحة بكل هذه الأطعمة، ودارت رأسها من المديح. لكنها بعد مضى أسبوع، لم تكن بهذه الثقة. فقد أصيب الطفل بالمغص، كما مرض أرنى بنوع من اضطراب المعدة، واحمر وجه الفريدو. وبكى الزاحفون والمتسلقون ليل نهار. خجلت تريزينا من أن تخبر الأصدقاء بما ينبغى أن تخبرهم به. استغرقت عدة أيام كى تجمع شجاعتها، وأثناء هذه الفترة تلقت خمسين رطلاً من الكرفس وقفصاً من البطيخ الأصفر. وفى النهاية اضطرت إلى إخبارهم. كان الجيران قد بدأوا ينظرون إليها فى دهشة وريبة.

دعت جميع أصدقاء دانى إلى مطبخها، وأخبرتهم بالمشكلة، بطريقة لبقة متواضعة، حتى لا تؤذى مشاعرهم.

قالت موضحة لهم: الفاكهة والأشياء الخضراء ليست مفيدة للأطفال. فاللبن يصيب الطفل بالإمساك عقب الفطام. وأشارت إلى الأطفال القلقين المحمومين وقالت: انظروا إنهم جميعاً مرضى. إنهم لا يتناولون الطعام المناسب.

سأل بيلون: وما هو الطعام المناسب ؟

قالت: اللوبيا. فى اللوبيا تجد شيئاً تطمئن إليه، شيئاً لا ينفذ مباشرة خلالك.

وخرج الأصدقاء فى صمت. تظاهروا لأنفسهم أن أملهم قد خاب، لكنهم كانوا يعلمون أن شعلة الحماس الأولى قد خمدت منذ عدة أيام.

وعقدوا اجتماعاً فى بيت دانى.

لا ينبغى ذكر ذلك فى بعض الدوائر، لأن التهمة الموجهة إليهم قد تكون خطيرة.

بعد منتصف الليل بوقت طويل، تسلل فى البلدة أربعة أشخاص كالاشباح لا يعرف أحد أسماءهم. زحفت أربعة هياكل غير واضحة نحو رصيف شركة المخازن الغربية. وقد قال الحارس، فيما بعد، إنه سمع أصواتاً، وفتش حوله فلم يجد أحداً. لم يستطع أن يقول كيف حدث الأمر، كيف كسر القفل وفتح الباب بالقوة. أربعة رجال فقط هم الذين يعرفون أن الحارس كان يغط فى نوم عميق، وأنهم لن يبلغوا عنه أبداً.

بعد قليل غادر الأشباح الأربعة المخزن، وقد انحنت ظهورهم تحت أحمال هائلة. كانت الأشباح تلهث وتنهج.

واستيقظت تريزينا الساعة الثالثة صباحاً على صوت بابها الخلفى يفتح. صاحت: من هناك.

لم تتلق جواباً، ولكنها سمعت أربع خبطات تهز البيت. أشعلت شمعة وذهبت إلى المطبخ حافية القدمين. وهناك، بجانب الحائط، وجدت أربع زكائب من اللوبيا القرنفلية زنة الزكيبة مائة رطل.

اندفعت تريزينا إلى داخل البيت وأيقظت العجوز صائحة: معجزة! تعالى انظرى فى المطبخ.

نظرت العجوز فى خجل إلى الزكائب المنتفخة المليئة. وقالت فى أنين: أوه، كم أنا مخطئة بائسة قذرة. أوه. أيتها الأم المباركة أنظرى بعين الشفقة إلى حمقاء عجوز. سوف تكون لك شمعة كل شهر، طالما حييت.

وفى بيت دانى، رقد أربعة أصدقاء تحت البطاطين فى سعادة أى وسادة يملكها المرء أفضل من الضمير الحى؟ ظلوا يغطون فى نومهم إلى ما بعد الظهيرة، فلقد انجزوا مهمتهم.

واكتشفت تريزينا، بطريقة مجربة لا تخيب، أنها حامل. وتساءلت فى لا مبالاة وهى تضع بعض اللوبيا الجديدة فى الغلاية عمن يكون المسئول عن ذلك من أصدقاء دانى.

١٤ حول الحياة الجميلة فى بيت دانى، وحول خنزير هدية، وحول عذاب تول بوب، وحول العجوز رافانو وحبه الفاشل

لم يكن فلاحو تورتيلا فلات «البيازانوس» يستخدمون ساعات الحائط ولا ساعات اليد. من وقت لآخر كان أحد الأصدقاء يحصل على ساعة ببعض الطرق غير العادية، ولكنه كان يحتفظ بها فقط إلى حين يقايض بها أى شىء يحتاجه حقاً. كان للساعات شهرة ذائعة الصيت فى بيت دانى، ولكن باعتبارها فقط وسيلة للتبادل. أما بالنسبة للأغراض العملية، فكانت هناك تلك الساعة الذهبية العظيمة: الشمس. كانت أفضل من ساعة اليد، وأكثر أماناً، إذ لم يكن هناك سبيل إلى انتقالها إلى توريللى.

فى الصيف، عندما تشير عقارب الساعة إلى السابعة، يكون هذا الوقت جميلاً للاستيقاظ، ولكن فى الشتاء لا يكون لنفس هذا الموعد أية قيمة. ما أروع الشمس ! فهى عندما تعلو قمم أشجار الصنوبر وتفترش الفضاء الأمامى، فهو أنسب الأوقات للاستيقاظ، سواء كانوا فى الصيف أم الشتاء. ذلك هو الوقت الذى لا ترتجف فيه اليد ولا تهتز المعدة لفراغها من الطعام.

كان القرصان وكلابه ينامون فى ركن حجرة المعيشة فى أمن ودفء. وكان بيلون وبابلو ويسوع ماريا ودانى وبيج جو بورتاجى ينامون فى حجرة النوم. ورغم كل طيبة دانى وكرمه، لم يسمح أبداً لأى شخص

غيره بأن يشغل سريره. ولقد حاول بيج جو أن يفعل ذلك مرتين، فكان جزاؤه الضرب بالعصا على كعبيه كى يعرف هو أيضاً ما يتمتع به سرير دانى من حصانة.

كان الأصدقاء ينامون على أرضية الغرفة، ولم يكن فراشهم عادياً. كان لدى بابلو ثلاث قطع من جلود الأغنام متصلة معاً بخيط سميك. واستقر يسوع ماريا بوضع ذراعيه فى أكمام جاكتة قديمة، وساقيه فى أكمام جاكتة أخرى. ولف بيلون نفسه فى شريحة كبيرة من السجاد. وكان بيج جو فى أغلب الأحيان يتكور على نفسه ببساطة كالكلب، وينام بملابسه. كان بيج جو يفتقر إلى القدرة على الاحتفاظ بأى شىء مدة طويلة. فى حين كان يتمتع بعبقرية أجاد تنميتها فى مقايضة أى شىء يقع بين يديه مقابل أى قدر بسيط من النبيذ. هكذا كانوا ينامون، فى جلبة أحياناً، ولكن فى ارتياح دائماً. وفى ليلة باردة، حاول بيج جو أن يستعير كلباً يدفىء به قدميه، فكان جزاؤه العض الشديد، لأن كلاب القرصان ليست قابلة للإعارة.

لم تكن هناك ستائر تغطى النوافذ، ولكن الطبيعة السخية غبشت الزجاج بخيوط العنكبوت، والغبار، وعلامات قطرات المطر النقية.

قال دانى ذات يوم: ربما يكون من الجميل تنظيف تلك النافذة بالماء والصابون.

وقفز ذهن بيلون المتوقد إلى المشكلة فى حيوية، لكن الأمر كان يسيراً جداً بالنسبة له. لم يكن يتطلب إلا جزءاً بسيطاً جداً من قدراته الذهنية. قال: سوف ينفذ مزيد من الضوء. ولن نقضى وقتاً طويلاً بالخارج فى الهواء إذا نفذ الضوء إلى هنا. وفى الليل عندما يتسم الهواء، لا نكون فى حاجة إلى ضوء.

وانسحب دانى من الميدان، لأنه إذا كان هذا الكلام البسيط الذى ذكره بيلون أدى إلى مثل هذا التنفيذ السريع الواضح لمشروعه، فما الذى يمكن أن تؤدى إليه اللجاجة من حجج مدمرة بعد ذلك؟ وهكذا بقيت

النافذة على ما كانت عليه، وكلما مر الوقت، وتغذى العنكبوت بدماء ذبابة تلو ذبابة، ولفظ هيكلها على نسيجه الملاصق للزجاج، وكلما تكاثف الغبار فوق الغبار، اكتسبت حجرة النوم غبشة مريحة تجعل من السهل النوم فى الضوء المعتم حتى فى وسط النهار.

نام الأصدقاء فى هدوء، ولكن عندما أطلت الشمس على النافذة فى الصباح، دون أن تفلح فى اختراقها، وأحالت الغبار فضة، ولمعت فوق ألوان الذباب العنبرية الزاهية، عندئذ استيقظ الأصدقاء وتمطعوا، وبحثوا حولهم عن أحذيتهم. كانوا يعرفون أن الفناء الأمامى يشع بالدفء عندما ترتقى الشمس النافذة.

لم يستيقظوا بسرعة، ولم يتفرقوا أو يخرجوا عن نظامهم المألوف بأية حركة مفاجئة. لا، نهضوا من نعاسهم فى رقة كما تطفو فقاقيع الصابون من مصدرها. وأخذوا يدبون نحو المصرف، وهم ما زالوا نصف متيقظين فقط. وشيئاً فشيئاً تنبهت إرادتهم، اشعلوا ناراً وغلوا بعض الشاى وشربوه من أوانى الفاكهة واستقروا أخيراً فى الشمس فى الفناء الأمامى. وكان الذباب المضىء فى الشمس يرسم هالات حول رءوسهم. لقد اتخذت الحياة شكلها بالنسبة لهم، شكل الأمس وشكل الغد.

بدأت المناقشة بطيئة، لأن كلاً منهم آثر الاحتفاظ ببقايا النوم الذى مازال عالقاً بجفنيه. ومن هذا الوقت حتى فترة ما بعد الظهيرة بقليل، انبثقت الزمالة الفكرية بينهم. رفعت السقوف، وكشفت خفايا البيوت، وفحصت الدوافع، وسردت المغامرات. كانت أفكارهم فى العادة تتجه أولاً إلى كورنيليا رويث، إذ من النادر أن يمضى يوم أو ليلة دون أن تقوم كورنيليا ببعض المغامرات العجيبة المثيرة، وتكون المغامرة من الغرابة بحيث لا يتمكنوا من أن يستخلصوا منها درساً أخلاقياً.

والتمعت الشمس فى أعواد الصنوبر. وبدت رائحة الأرض جافة ذكية. وانتشرت رائحة زهور الكاستيل فى الكون. كان هذا من أجمل الأوقات لدى أصدقاء دانى، حيث يجتمعون بعيداً عن الصراع من أجل

البقاء، فيجلسون لإصدار أحكامهم على زملائهم، لا بقصد الأخلاق، وإنما لمجرد المتعة. كان أى شخص يود أن يقول أشياء جميلة يحتفظ بها حتى يقصها عليهم فى هذا الوقت. وكانت الفراشات الكبيرة البنية اللون تأتى وتجلس فوق الزهور وتحرك أجنحتها فى بطء وكأنها تمتص العسل بقوة أجنحتها.

قال دانى: شاهدت البرت رازموسين. كان قادماً من بيت كورنيليا. كم من المشاكل لدى كورنيليا. كل يوم فى مشكلة ما.

رد بابلو: هذه طريقتها فى الحياة. أنا لست واحداً ممن يلقون بالحجارة، ولكنى أعتقد أحياناً أن كورنيليا تنبض بالحيوية أكثر من اللازم. أمران فقط يحدثان لكورنيليا، الحب والعراك.

قال بيلون: جميل، فما الذى تريده؟

قال يسوع ماريا فى حزن: لم تعش أبداً فى سلام.

رد بيلون: إنها لا تريد أى سلام. إذا وفرت لها السلام، ماتت. الحب والعراك. جميل ما قلت، يا بابلو. الحب والعراك، وقليل من النبيذ، عندئذ تكون شاباً دائماً، سعيداً دائماً. ما الذى حدث لكورنيليا أمس؟

نظر دانى إلى بيلون فى انتظار. كان غريباً ألا يعرف بيلون كل ما حدث، الآن فى مقدور دانى أن يستدل من النظرة الكسيرة الحزينة التى على وجه بيلون أنه لم يعرف هذه الواقعة.

وقال دانى: تعرفون جميعاً كورنيليا. فى بعض الأحيان يأخذ الرجال الهدايا إلى كورنيليا، دجاجة أو أرنباً أو قرنبيطاً. مجرد أشياء بسيطة، وكورنيليا تحب تلك الأشياء. جميل، أخذ اميليو مورييتا أمس إلى كورنيليا خنزيراً صغيراً جميلاً قرنفلى اللون. وجد اميليو ذلك الخنزير فى المصرف. ولقد طاردته أم الخنزير عندما رفعه، ولكنه جرى بسرعة، وجاء إلى بيت كورنيليا بذلك الخنزير.

واميليو هذا متحدث عظيم. قال لكورنيليا: لا شىء أدعى إلى السرور من أن يكون لك خنزير. فهو يأكل أى شىء. إنه حيوان أليف ظريف.

سوف تحبين ذلك الخنزير الصغير. ولكنه سيكبر وتتغير طباعه، ويمسى دنيئاً، سيىء الخلق، بحيث لن تحبيه بعد ذلك. وسيعضك فى أحد الأيام، وتغضبين، فتذبحين ذلك الخنزير وتأكلينه.

وأومأ الأصدقاء برءوسهم موافقين بجدية. وقال بيلون: اميليو ليس غبياً فى بعض الأحيان. أرأيتم كم قدم من متع بخنزيره - ود، حب، انتقام، طعام. لابد أن أذهب يوماً ما للتحدث مع اميليو. ولكن الأصدقاء كان فى مقدورهم أن يدركوا أن بيلون قد شعر بالغيرة من منافسه المنطقى.

قال بابلو: استمر فى قصة الخنزير.

رد دانى: جميل، أخذت كورنيليا ذلك الخنزير الصغير، وكانت لطيفة مع اميليو. قالت عندما يحين الوقت، وتغضب من ذلك الخنزير، يستطيع اميليو أن يأخذ شيئاً منه لغذائه، جميل، بعدئذ خرج اميليو. وصنعت كورنيليا صندوقاً صغيراً لينام فيه ذلك الخنزير بجوار الموقد.

وقد حضرت بعض السيدات لزيارتها حينئذ، وكانت تدعهن يمسكن الخنزير ويربتن عليه. وبعد قليل داست سويتس «الحلوة» راميريث على ذيل ذلك الخنزير. أوه ! فقد صرخ مثل صفارة بالبخار وفتح الباب الخارجى. واندفعت إلى الداخل أم الخنزير من أجل إنقاذ وليدها الصغير مرة أخرى. وتحطمت كل المناضد والأطباق. وكسرت كل الكراسى. وعضت تلك الخنزيرة الكبيرة الحلوة راميريث، وخلعت جونلة كورنيليا، وبينما كانت السيدات فى المطبخ وقد أغلقن الباب، خرجت الخنزيرة الكبيرة، وذهب أيضاً ذلك الخنزير الصغير. والآن كورنيليا ثائرة، وتقول أنها سوف تضرب اميليو.

قال بابلو: أرأيتم، تلك هى الطريقة التى تسير بها الحياة، ولا تسير أبداً بالطريقة التى يرسمها المرء لها. لقد سارت الحياة كذلك عندما أقدم تول بوب سموك على قتل نفسه.

والتفتت وجوه الأصدقاء نحو بابلو فى اهتمام. وبدأ يتكلم: سوف

تعرفون بوب سموك. إنه يبدو بالشكل الذى ينبغى أن يبدو عليه راعى القطيع، سيقان طويلة، قوام نحيل، ولكنه لا يستطيع ركوب الخيل جيداً. فهو غالباً ما يقع فى التراب عند الركوب. وبوب هذا أحد الذين يريدون أن يكونوا موضع إعجاب. عندما يكون هناك موكب يحب أن يقوم بحمل العلم. عندما يكون هناك عراك ينصب نفسه حكماً. وفى السينما يكون دائماً أول مَنْ يقول «فليسقط !» نعم، كان يريد أن يكون رجلاً عظيماً، وأن يجذب أنظار الناس، وإعجابهم. وشىء آخر قد لا تعرفونه، هو أنه يريد من الناس أن يحبوه أيضاً.

ولكنه مسكين، سيىء الحظ، رجل ولد للسخرية منه. بعض الناس يرثون له، ولكن معظمهم يضحكون منه فقط. فيحز الضحك فى نفس تول بوب سموك هذا.

ربما تذكرون ذلك الوقت الذى حمل فيه العلم فى الاستعراض. كان جالساً فى اعتدال، على ظهر حصان أبيض كبير. وأمام المكان الذى جلس فيه القضاة بالضبط، سقط ذلك الحصان الكبير الغبى من شدة الحرارة. وطار بوب منزلقاً فوق رأس ذلك الحصان، واندفع العلم فى الهواء مثل الرمح وانشق فى الأرض، رأساً على عقب.

ذلك كان حاله. كلما حاول أن يكون رجلاً عظيماً، حدث شىء ما وضحك الناس جميعاً منه. ولعلكم تذكرون عندما كان يعمل فى الشفخانة كيف حاول طوال فترة بعد ظهر أحد الأيام أن يصطاد كلباً بالانشوطة. وحضر كل مَنْ فى البلدة لمشاهدته. كان يلقى بالحبل فيقعى الكلب إلى الأرض فينسلت الحبل منه ويجرى الكلب. وكان الناس يضحكون، هكذا شعر بوب بالخجل والعار حتى أنه فكر قائلاً: سوف أقتل نفسى، وعندئذ يحزن الناس علىّ. وسوف يندمون على ضحكهم ثم فكر: ولكنى سأكون ميتاً، ولن أعرف مدى حزنهم. وهكذا رسم الخطة التالية: سأنتظر حتى أسمع شخصاً ما آتياً إلى حجرتى. سوف أسدد فوهة المسدس إلى رأسى. وعندئذ سوف يتناقش ذلك الصديق معى

سوف يحملنى على الوعد بعدم إطلاق الرصاص على نفسى. وعندئذ سوف يأسف الناس على أنهم كانوا سيدفعوننى إلى قتل نفسى تلك هى الطريقة التى فكر بها.

وهكذا عاد إلى بيته الصغير، وكان كل مَنْ يقابله يقول له هل أمسكت الكلب، يا بوب؟ كان حزيناً جداً عندما وصل إلى المنزل. وأخرج المسدس ووضع فيه الرصاص، ثم جلس ينتظر حضور شخص ما.

لقد رسم الخطة، وتدرب عليها بالمسدس. سوف يقول الصديق: إيه، ما الذى تفعله؟ لا تطلق الرصاص على نفسك أيها الصديق المسكين. وعندئذ يذكر بوب كيف أنه لا يريد أن يحيا أكثر من ذلك لأن الناس جميعاً سفلة.

وقد فكر فى الأمر كثيراً، ولكن أحداً لم يحضر. وانتظر فى اليوم التالى، ولم يحضر أحد. ولكن فى الليلة التالية حضر تشارلى ميلر، سمعه بوب قادماً من الفناء. فوجه فوهة المسدس إلى رأسه. ورفع الزناد حتى يبدو الأمر أكثر واقعية. وقال لنفسه: سوف يتناقش معى الآن، وسوف أدعه يقنعنى.

فتح تشارلى ميلر الباب. شاهد بوب موجهاً ذلك المسدس إلى رأسه. ولكنه لم يصرخ، لا، وإنما قفز وجذب ذلك المسدس فانطلق وأطارت الرصاصة معها طرف أنف بوب. وهكذا أضحك الناس أكثر حتى من ذى قبل. ونشرت أخبار الحادث فى الصحف. وضحكت المدينة بأكملها.

ولعلكم جميعاً قد رأيتم أنف بوب، بعد أن طار طرفه. ولقد ضحك الناس، ولكنه كان نوعاً قاسياً من الضحك، فتألموا لضحكهم. ومنذ ذلك الحين، تركوا تول بوب يحمل العلم فى كل موكب. واشترت له المدينة شبكة ليمسك بها الكلاب.

ولكنه ليس سعيداً، بعد أن أصبحت أنفه بهذا الشكل وسكت بابلو والتقط عصا من الفناء وضرب ساقه بها ضرباً خفيفاً.

قال دانى: أنا أذكر أنفه، كيف كان. ليس سيئاً، بوب هذا. فى مقدور

القرصان أن يخبركم، عندما يعود. فى بعض الأحيان يضع القرصان كلابه كلها فى عربة بوب حتى يظن أن بوب هو الذى أمسكها، ويقولون: يا له من رجل بارع فى إمساك الكلاب إذ ليس من السهل إمساك الكلاب إذا كان عملك هو اصطيادها.

كان يسوع ماريا غارقاً فى التفكير، ورأسه مسند إلى الحائط خلفه. قال معلقاً: إن السخرية أسوأ من الضرب بالكرباج. لقد تعرض توماس العجوز للسخرية. إلى أن مات. وقد شعر الناس بعد ذلك بالأسف لأنهم ضحكوا منه.

واستطرد يسوع ماريا: هناك أيضاً نوع آخر من الضحك. إن قصة تول بوب هذه مضحكة، ولكن عندما تفتح فمك لتضحك، تجد شيئاً كاليد يعتصر قلبك. إننى أعرف قصة السيد رافانو العجوز الذى شنق نفسه فى العام الماضى. وهى قصة مضحكة أيضاً، ولكن ليس من اللائق الضحك منها.

قال بيلون: سمعت شيئاً ما عنها. ولكننى لا أعرف تلك القصة.

أجاب يسوع ماريا: طيب، سوف أحكى لكم تلك القصة، وسترون إذا كان فى مقدوركم أن تضحكوا. عندما كنت طفلاً صغيراً، كنت ألعب مع بيتى رافانو. وكان بيتى ذاك، ولداً صغيراً سريعاً طيباً، ولكنه كان يقع فى المتاعب دائماً. كان له شقيقان وأربع أخوات، وكان هناك والده العجوز بيتى. وقد ذهبت كل هذه العائلة الآن. أحد الشقيقين فى سان كوينتن، أما الشقيق الآخر فقد قتله بستانى يابانى لأنه سرق حمولة عربة من البطيخ. أما البنات، حسن أنتم تعرفون أحوال البنات، لقد ذهبن. تعيش سوزى الآن فى بيت جينى العجوز ساليناس.

وهكذا لم يعد هناك سوى بيتى والرجل العجوز. وكبر بيتى، وهو دائماً فى ورطة. ذهب إلى إصلاحية بعض الوقت وخرج منها. وكان يسكر كل يوم سبت، وفى كل مرة يدخل السجن حتى يوم الاثنين. وكان والده من النوع الودود. وكان يسكر كل أسبوع مع بيتى وكانا يحتجزان

معاً فى السجن دائماً تقريباً. كان الرجل العجوز رافانو يشعر بالوحدة عندما لا يجد بيتى معه هناك. كان يحب ذلك الصبى بيتى. ومهما فعل بيتى، كان ذلك العجوز يفعله، حتى وهو فى الستين من عمره.

وسأل يسوع ماريا: ربما تذكرون جراثى مونتث؟ لم تكن فتاة طيبة جداً. عندما كانت فى الثانية عشرة فقط من عمرها، جاء الأسطول إلى مونترى، وحملت جراثى طفلها الأول، وهى صغيرة هكذا. كانت جميلة، كما ترون، وسريعة وكان لسانها حاداً ، كانت تبدو دائماً هاربة من الرجال وكان الرجال يطاردونها وكانوا يمسكون بها فى بعض الأحيان. ولكن لم يكن فى مقدورك أن تقترب منها. كانت تبدو جراثى هذه دائماً وكأنها تملك شيئاً ما رائعاً لا تمنحه لك، شيئاً ما وراء عينيها يقول: إذا رغبت حقاً، فإنى سأختلف معك عن أية امرأة عرفتها من قبل.

واستطرد يسوع ماريا: أنا أعرف هذا الأمر لأننى جريت أنا أيضاً وراء جراثى. وكان بيتى يجرى وراءها. ولكن بيتى كان مختلفاً. ونظر يسوع ماريا بحدة فى عيون أصدقائه ليؤكد هذه النقطة.

ورغب بيتى فيما تملكه جراثى إلى أقصى حد حتى نحل جسمه، واتسعت عيناه وأرهقتا، وأصبحتا كعينى مدمن مخدرات. ولم يستطع بيتى أن يأكل، وسقط مريضاً. وذهب العجوز رافانو إلى جراثى وتحدث معها. قال: إذا لم تعاملى بيتى بلطف، سوف يموت. ولكنها ضحكت فقط. لم تكن طيبة جداً. وحينئذ دخلت الحجرة أختها الصغيرة تونيا. كانت تونيا فى الرابعة عشرة من عمرها. نظر العجوز إليها لاهث الأنفاس. كانت تونيا تشبه جراثى فى ذلك الشىء المرح الذى تخفيه عن الرجال. ولم يستطع العجوز رافانو أن يتمالك نفسه. قال: تعالى إلىّ أيتها الفتاة الصغيرة لكن تونيا لم تكن فتاة صغيرة. كانت تعرف هذا. لذا ضحكت وهربت من الغرفة.

وعاد العجوز رافانو إلى منزله. قال بيتى: هل حدث لك شىء يا أبى؟ أجابه العجوز: لا، يا بيتى. إننى فقط قلق لأنك لم تحصل على جراثى

هذه، حتى تستعيد صحتك.

عائلة رافانو هذه، كلها، حارة الدماء «واستطرد يسوع ماريا» وبعد إذ ماذا تظنون؟ ذهب بيتى للعمل فى تنظيف الأسماك لدى تشين كى، وقدم الهدايا إلى جراثى، زجاجات كبيرة من الخمر وشرائط وأربطة. ودفع النقود كى تلتقط لها صورة، وبالألوان أيضاً.

أخذت جراثى كل الهدايا وهربت منه، وضحكت. لقد فاتكم سماعها وهى تضحك. إن هذا يحملك على الرغبة فى تمزيقها والحصول على ذلك الشيء الذى بداخلها. وأنا أعرف كيف كان ذلك. فقد طاردتها، كما أن بيتى أخبرنى أيضاً. ولكنها دفعت بيتى إلى الجنون. لم يستطع النوم بعد ذلك. قال لى: إذا تزوجتنى جراثى هذه فى الكنيسة عندئذ لن تجرؤ على الهرب مرة أخرى، لأنها ستكون متزوجة، وسوف يكون فرارها خطيئة وهكذا طلب يدها. فضحكت تلك الضحكة العالية التى تحملك على الرغبة فى خنقها.

أوه، كان بيتى مجنوناً. عاد إلى بيته، وعلق حبلاً فى أحد العروق ووقف فوق صندوق، ووضع الحبل حول رقبته، ثم ضرب العروق الصندوق بقدمه بعيداً. وحضر والده فى هذه اللحظة. فقطع الحبل واستدعى الطبيب. لكنه لم يفتح عينيه إلا بعد ساعتين، ولم يستطع النطق إلا بعد أربعة أيام.

وسكت يسوع ماريا هنيهة. ورأى فى زهو أن أصدقاءه قد انجذبوا إلى القصة. وقال: هذا ما حدث.

صاح بيلون منفعلاً: ولكن جراثى مونتث تزوجت من بيتى رافانو هذا إننى أعرفها. إنها امرأة طيبة. لم تتخلف عن الصلاة أبداً، وتذهب للاعتراف مرة كل شهر.

وافق يسوع ماريا: هكذا الأمر الآن. كان العجوز غاضباً. ذهب إلى بيت جراثى وصاح: أرأيت كيف قتلت ولدى بحماقتك. لقد حاول أن يقتل نفسه من أجلك، أيتها الدجاجة يا كومة القذارة.

وخافت جراثى، لكنها كانت مسرورة أيضاً، فلم يكن ثمة نساء كثيرات يستطعن أن يدفعن رجلاً إلى هذا الحد. وذهبت لرؤية بيتى حيث كان راقداً على سريره برقبته الملتوية. وتزوجا بعد قليل.

وسارت الأمور بالطريقة التى رسمها بيتى. وعندما أوصتها الكنيسة بأن تكون زوجة وفية، صارت زوجة وفية. لم تعد تضحك للرجال. لم تعد تهرب حتى يطاردونها. واستمر بيتى فى تنظيف الأسماك، وسرعان ما كلفه تشين كى بتفريغ صناديق الأسماك. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أصبح رئيس عنبر الأسماك ثم أضاف يسوع ماريا: أرأيتم. إنها قصة جيدة. وكان من الممكن أن يسردها قسيس، لو كان الأمر قد وقف عند هذا الحد.

قال بيلون فى جدية: «أوه، نعم. هناك ما نتعلمه من هذه القصة».

وأومأ الأصدقاء برءوسهم موافقين فى تقدير، لأنهم كانوا يحبون القصة ذات المغزى.

قال دانى: «كنت أعرف فتاة مثلها فى تكساس. غير أنها لم تتغير. كانوا يدعونها زوجة الفصيلة الثانية. فيقولون: «مسز فصيلة ثانية».

رفع بابلو يده. وقال: هناك بقية لهذه القصة، دعوا يسوع ماريا يذكر بقيتها.

- نعم هناك بقية. لكن نهايتها ليست طيبة. كان هناك العجوز، وكان عمره يزيد على الستين. وذهب ببيتى مع جراثى للإقامة فى منزل آخر. وشعر العجوز رافانو بالوحدة لأنه عاش دائماً مع بيتى. ولم يكن يعرف كيف يقضى وقته. كان يجلس فقط ويبدو عليه الأسى، حتى رأى فى أحد الأيام تونيا مرة أخرى. وكانت تونيا فى الخامسة عشرة، وكانت أجمل حتى من أختها جراثى. وكان يطاردها نصف جنود البلدية فى كل مكان كالكلاب الصغيرة.

وكما كان الحال مع بيتى، صار الآن مع العجوز. وانتاب جسده كله الألم من جراء الرغبة. لم يستطع الأكل أو النوم. وتجوفت وجنتاه

وأصبحت عيناه كعينى مدمن مخدرات. وحمل الحلوى إلى تونيا، فجذبت الحلوى من يديه وضحكت منه. قال: تعالى إلىّ، أيتها العزيزة الصغيرة، لأنى صديقك فضحكت مرة أخرى.

ثم أخبر العجوز ابنه بهذا الأمر. فضحك بيتى أيضاً. وقال: أيها العجوز الأحمق. لقد حصلت فى حياتك على ما يكفى من النساء. لا تطارد الصغيرات. ولكن هذا لم يجد شيئاً. زاد مرض الرجل العجوز من شدة الشوق. إن دماءهم حارة أولئك الرافانو. اختفى العجوز فى العشب، وراقبها وهى تمر، وتعذب قلبه فى صدره.

واحتاج إلى النقود ليشترى بها هدايا، وهكذا التحق بالعمل فى محطة بنزين ستا ندرد سيرفيس. كان يقوم بجرف الحصى ورش الأزهار بالمياه فى تلك المحطة، وكان يضع الماء فى خزانات تبريد وينظف الزجاج. ويمضى يشترى لتونيا هدايا بكل سنت يكسبه، حلوى وشرائط وملابس. ودفع نقوداً لتلتقط لها صورة بالألوان. ولم يحملها ذلك إلا على المزيد من الضحك، وأوشك العجوز أن يجن. وفكر: «إذا كان الزواج فى الكنيسة قد جعل من جراتى زوجة طيبة، فإنه سوف يجعل من تونيا أيضاً زوجة طيبة» وطلب يدها. وعندئذ ضحكت أكثر من ذى قبل. ودارت رافعة جونلتها إلى أعلى أمامه حتى تزيده اشتغالاً. أوه لقد كانت شيطانية، تونيا هذه.

قال بيلون بطريقة متحذلقة: كان أحمق لا ينبغى أن يجرى المسنون خلف الصغيرات ينبغى عليهم أن يجلسوا فى الشمس.

ومضى يسوع ماريا فى حديثه منفعلاً: إن أولئك القوم من عائلة رافانو مختلفون. دماؤهم حارة جداً.

رد بيلون: «ليس هذا أمراً حسناً. إنه عار على بيتى».

التفت إليه بابلو: «دع يسوع ماريا يستمر. إنها حكايته يا بيلون وليست حكايتك. سنستمع إليك فى وقت ما».

نظر يسوع ماريا فى امتنان إلى بابلو: كنت أحكى.

«ولم يستطع العجوز أن يتحمل أكثر من ذلك. ولكنه لم يكن من النوع الذى يبتكر شيئاً، لم يكن مثل بيلون. لم يكن فى مقدوره أن يفكر فى شىء جديد. وفكر العجوز رافانو بهذه الطريقة: تزوجت جراثى من بيتى لأنه شنق نفسه. سأشنق نفسى. وربما تتزوجنى «تونيا». ثم قال لنفسه: إذا لم يسعفنى أحد بالسرعة اللازمة، سأموت. ينبغى أن يسعفنى أحد».

واستطرد يسوع ماريا قائلاً: ولا بد أنكم تعرفون أنه يوجد بمحطة البنزين تلك غرفة للأدوات. كان العجوز يذهب فى الصباح الباكر، ويفتح غرفة الأدوات ويجرف الحصى ويرش الأزهار بالمياه قبل موعد فتح المحطة. وكان الرجال الآخرون يحضرون إلى العمل فى الساعة الثامنة. وهكذا، فى صباح أحد الأيام، دخل العجوز إلى غرفة الأدوات وعلق حبلاً. ثم انتظر حتى حانت الساعة الثامنة ولما شاهد الرجال قادمين، وضع الحبل حول عنقه وتقدم من فوق ترابيزة الشغل. وفى هذه اللحظة تماماً، انغلق الباب بشدة.

وانبعثت ابتسامات عريضة على وجوه الأصدقاء. إن الحياة، فيما يرون، مضحكة جداً جداً.

ومضى يسوع ماريا قائلاً: لم يفتقده أولئك الرجال على الفور. وإنما قالوا: يحتمل أن يكون ثملاً، ذلك العجوز وكان قد مضت ساعة عندما فتحوا باب غرفة الأدوات تلك ونظر يسوع ماريا حوله.

كانت الابتسامات لا تزال على وجوه الأصدقاء، ولكنها ليست نفس الابتسامات. فقال يسوع ماريا: أرأيتم. إنها مضحكة. ولكنها تعتصر قلوبكم أيضاً.

سأل بيلون: ماذا قالت تونيا؟ هل تلقت درساً وغيرت من أسلوب حياتها؟

- لا. لم تفعل. عندما أخبرها بيتى ضحكت. فضحك هو أيضاً. ولكنه كان خجلاً. قالت تونيا: كم كان عجوزاً أحمق ونظرت تونيا إلى بيتى تلك النظرة الخاصة بها.

عندئذ قال بيتى: جميل أن يكون للمرء أخت صغيرة مثلك، فى ليلة ما سوف أسير معك إلى الغابة. فضحكت تونيا مرة أخرى، وجرت بعيداً بعض الشىء. وقالت: هل تعتقد أنى جميلة مثل جراثى؟ وهكذا تبعها إلى داخل البيت.

واستاء بيلون: هذه ليست قصة جيدة. هناك كثير من المعانى وكثير من الدروس فيها. بعض تلك الدروس متناقضة. ليس فيها المغزى الذى يستفيد به عقلك. إنها لا تدل على شىء.

قال بابلو: إننى أحببتها. أحببتها لأنها ليس فيها أى مغزى يمكنك أن تراه، ومع ذلك ما زال يبدو أنها تعنى شيئاً ما، وإن كنت لا أستطيع أن أحدد ما هو.

كانت الشمس قد تربعت وسط السماء، وكان الهواء حاراً.

قال دانى: «ترى ما الذى يحضره القرصان للأكل».

علق بابلو: «هناك سمك ماكريل فى الخليج».

لمعت عينا بيلون وقال: «لدى خطة فكرت فيها. عندما كنت صبياً صغيراً، كنا نقيم بالقرب من السكة الحديد. وفى كل يوم عندما يمر القطار، نقوم أنا وأخى بإلقاء الطوب على القاطرة. فكان العطشجى يقذفنا بالفحم. كنا نجمع فى بعض الأحيان ملء دلو من الفحم، ونأخذه إلى والدتنا. والآن فكرت أنه ربما يكون فى مقدورنا أن نأخذ بعض الحجارة إلى رصيف الميناء. وعندما تقترب القوارب، نقوم بسب مَنْ فيها وقدفهم بالحجارة. كيف يتمكن هؤلاء الصيادون من الرد علينا؟ هل فى مقدورهم أن يقذفونا بالمجاديف، أو بالشباك؟ إنهم لا يستطيعون سوى أن يقذفوننا بسمك الماكريل.

هب دانى فى فرح. وصاح: والآن هناك خطة للعمل! يا له من صديق لنا ذلك الصغير بيلون! ماذا نستطيع أن نعمل بدون بيلون صديقنا؟ تعالوا، أنا أعرف أين توجد كومة كبيرة من الحجارة.

قال بابلو: أنا أحب سمك الماكريل، أكثر من أى نوع آخر.

١٥ كيف ساورت الهموم دانى وأصبح مجنوناً كيف هاجم الشيطان منزل دانى فى شخص توريللى

يغلب على مونترى طابع الثبات. فى صباح كل يوم تقريباً تسطع الشمس على النوافذ فى الجانب الغربى من الشوارع، وبعد الظهر تسطع على الجانب الشرقى من هذه الشوارع. وفى كل يوم يقعقع الأوتوبيس الأحمر جيئة وذهاباً ما بين مونترى وباسيفيك جروف وكل يوم تنبعث من مصانع تعليب الأسماك روائح بقايا السمك الكريهة فى الهواء. وبعد ظهر كل يوم تهب الريح من الخليج فتتمايل أشجار الصنوبر على التلال. ويجلس الصيادون على الصخور وفى أيديهم الصنارات، وقد اكتست وجوههم بعلامات الصبر والسخرية.

كذلك كان نمط الحياة ثابتاً فى تورتيلا فلات، التى تعلو مونترى فلم يكن هناك سوى عدد محدود من المغامرات تستطيع كورنيليا رويث أن تقوم بها من خلال عملية تغيير الأحباب البطيئة. وقد عرفت بأنها تعيد إليها الرجل الذى تكون قد طردته منذ مدة طويلة.

وكان التغيير فى منزل دانى أقل حتى من ذلك. فقد غرق الأصدقاء فى نمط ثابت من الحياة قد يكون مملاً بالنسبة لأى شخص غير البيازانو (الفلاح المخلط) فهم يستيقظون مع الصباح، ويجلسون فى الشمس متسائلين عما قد يجلبه القرصان. وما زال القرصان يقطع الحطب ويبيعه فى شوارع مونترى، ولكنه الآن يشترى طعاماً بربع

الدولار الذى يكتسبه كل يوم. وكان الأصدقاء يحصلون على بعض النبيذ من حين لآخر، وعندئذ يكون الغناء والعراك.

والزمن بالقـرب من البحـر أكثـر تعقيداً منه فى أى مكان آخر، لأنه بالإضافة إلى دورة الشمس وتغيير الفصول، فإن الأمواج بضرباتها على الصخور تسجل مرور الوقت ويتحرك المد والجذر مثل الساعة المائية العظيمة.

بدأ دانى يشعر بضربات الزمن. نظر إلى أصدقائه، ورأى كيف أنه يعيش بينهم كل يوم مثل الآخر. عندما نهض من فراشه فى الليل وخطا فوق البيازانوس النائمين، شعر بالسخط عليهم لوجودهم بالبيت. وبدأ دانى شيئاً فشيئاً يحلم بأيام حريته وهو جالس فى الشمس بالفناء الأمامى. كان ينام فى الغابة فى الصيف، وينام فى البرسيم الجاف بالأجران عندما يشتد برد الشتاء. لم يكن يحمل عبء الملكية. وتذكر أن اسم دانى يعنى عاصفة. أوه، المعارك! والهروب فى الغابة وتحت ذراعه دجاجة تصيح! أماكن الاختباء فى المصرف عندما يخرج زوج ثائر طلباً للانتقام! عاصفة وعنف، عنف عذب! عندما يفكر دانى فى الأيام الخوالى التى ضاعت، يجد نفسه يتذوق ثانية لذة الطعام المسروق، ويتوق إلى ذلك الزمن الغابر مرة أخرى. لم يتعارك كثيراً منذ أن رفعه الأرث. إنه يثمل، لكن بطريقة غير مغامرة. كان يحمل على عاتقه عبء البيت دائماً، ومسئولية أصدقائه دائماً.

وبدأ دانى يكتئب وهو جالس فى الفناء الأمامى، حتى ظن أصدقاؤه أنه مريض. وقال بيلون مقترحاً: «يستحسن أن تشرب الشاى المصنوع من أوراق اليربابوينا. إذا ذهبت إلى فراشك يا دانى سوف نضع صخوراً ساخنة حول قدميك.

لم يكن التدليل هو ما يحتاجه دانى، وإنما الحرية. ومضى شهر وهو يمعن فى التفكير، ويحملق إلى الأرض وينظر بعينين عابستين إلى

أصدقائه الذين لا مفر منهم، ويبعد بقدمه الكلاب الأنيسة عن طريقه.

وفى النهاية استسلم لرغبته. انطلق هارباً ذات ليلة. ذهب إلى غابة الصنوبر واختفى.

وعندما استيقظ أصدقاؤه فى الصباح ولم يجدوه قال بيلون: إنها سيدة ما. وقع فى حبها.

وتركوا الأمر عند هذا الحد، لأن من حق كل رجل أن يحب. ومضى الأصدقاء يعيشون بنفس الطريقة. ولكن عندما مر أسبوع دون ظهور أى أثر لدانى، بدأوا يقلقون. وذهبوا عصبة واحدة للبحث عنه فى الغابة.

قال بيلون: «الحب جميل. نحن لا نستطيع أن نلوم أى رجل على جريه وراء فتاة، ولكن الأسبوع أسبوع. لابد أنها فتاة تتمتع بالحيوية تلك التى استطاعت أن تحتفظ بدانى بعيداً عن بيته أسبوعاً».

رد بابلو: القليل من الحب مثل القليل من الخمر. الإسراف فى أى منهما يضر بالإنسان. ربما يكون دانى قد مرض. قد تكون هذه الفتاة تتمتع بالحيوية أكثر من اللازم.

شعر يسوع ماريا بالقلق أيضاً: ليس دانى الذى نعرفه هو الذى يذهب هكذا بعيداً. لابد أن مكروهاً قد حدث له.

وأخذ القرصان كلابه إلى الغابة. وطلب الأصدقاء من الكلاب: ابحثى عن دانى. ربما يكون مريضاً. ربما يكون ميتاً فى مكان ما، ذلك الطيب دانى الذى يسمح لك بالنوم فى بيته.

وهمس القرصان لهم: أوه، أيتها الكلاب الشريرة، الناكرة للجميل، ابحثى عن صديقنا لكن الكلاب هزت أذيالها فى سعادة وبحثت عن أرنب وراحت تتعقبه.

طاف الأصدقاء بالبيازانوس فى أنحاء الغابة طوال النهار، ينادون على دانى، ويبحثون فى الأماكن التى كان من المحتمل أن يختاروها هم أنفسهم للنوم، الفجوات المريحة بين جذوع الأشجار، الأماكن المليئة

بأعواد الصنوبر، المحاطة بالشجيرات. كانوا يعرفون أين يمكن أن ينام الشخص، ولكنهم لم يعثروا على أثر لدانى.

قال بيلون على سبيل التخمين: ربما جن. ربما ذهب بعقله شىء من الهم الخفى.

وعادوا فى المساء إلى بيت دانى وفتحوا الباب ودخلوا. وفى الحال شعروا بتوتر. ثمة سارق كان مشغولاً هنا. ضاعت بطاطين دانى. وسرق الطعام كله. واختفت آنيتان من أوانى الطهى ونظر بيلون بسرعة إلى بيج جو بورتاجى، وعندئذ هز رأسه: لا، فقد كنت معنا. أنت لم تفعلها.

قال بابلو بانفعال: فعلها دانى. إنه مجنون حقيقة. إنه يجرى خلال الغابة مثل الحيوان .

ودهم بيت دانى هم وقلق بالغان. وأكد الأصدقاء أحدهما للآخر: ينبغى أن نعثر عليه. سوف يصيب صديقنا ضرر ما فى جنونه. ينبغى أن نبحث عنه فى العالم بأكمله حتى نعثر عليه.

ونفضوا عنهم الكسل. وراحوا يبحثون عنه كل يوم، وبدأوا يسمعون إشعاعات غريبة. نعم، كان دانى هنا الليلة الماضية. أوه، ذلك السكير! أوه، ذلك اللص! لأنه كما ترى، أوقع العجوز على الأرض بضربه بقطعة حديد من السور وسرق زجاجة خمر. أى نوع من الأصدقاء أولئك الذين يتركون صديقهم يفعل مثل هذه الأمور؟

نعم، شاهدنا دانى. كانت عيناه مغلقتين، وكان يغنى: «تعالين إلى الغابة وسوف نرقص، أيتها الفتيات الصغيرات، ولكننا لم نذهب كنا خائفات. لم يكن دانى هذا يبدو طبيعياً».

وعند مرفأ السفن وجدوا مزيداً من الشواهد على صديقهم. قال الصيادون: كان هنا. كان يريد أن يتشاجر مع كل شخص. وقد حطم بنيتو مجدافاً على رأس دانى. وحينئذ حطم دانى بعض النوافذ، فاقتاده الشرطى إلى السجن.

ومضوا بحرارة يقتفون أثر صديقهم الشارد. قال الجاويش: أحضره ماك نير هنا الليلة الماضية، لكنه أفلت بطريقة ما قبل الصباح عندما نقبض عليه سوف نسجنه ستة أشهر.

كان الأصدقاء قد تعبوا من المطاردة، عادوا إلى البيت، فانتابهم الفزع إذ وجدوا أن زكيبة البطاطس الجديدة التى وجدها بيلون ذلك الصباح فقط قد اختفت.

صاح بيلون: ذلك كثير، كثير جداً. دانى مجنون، وهو فى خطر. سوف يحدث له شىء ما فظيع إذا لم ننقذه.

قال يسوع ماريا: سوف نبحث عنه.

وأكد بابلو: سوف نبحث عنه خلف كل شجرة وكل عشة.

وقال بيج جو: وتحت القوارب على الشاطىء.

وأضاف القرصان: وسوف تساعدنا الكلاب.

وهز بيلون رأسه: ليست هذه هى الطريقة. فى كل مرة نذهب فيها إلى مكان نجد أن دانى قد غادره. ينبغى أن ننتظر فى مكان ما يأتى هو إليه. ينبغى أن نتصرف كرجال عقلاء، لا كحمقى.

- ولكن ما هو المكان الذى سيذهب إليه؟

وخطر لهم جميعاً المكان فى نفس الوقت. توريللى! سيذهب دانى عاجلاً أو آجلاً إلى بيت توريللى. ينبغى أن نذهب إلى هناك للإمساك به، ولنحفظه من الجنون الذى ابتلى به.

وقالوا موافقين: نعم، ينبغى أن ننقذ دانى.

وذهبوا عصبة واحدة لزيارة توريللى، ولم يسمح توريللى لهم بالدخول. وصاح من خلال الباب: تسألوننى هل رأيت دانى؟ لقد أحضر دانى ثلاث بطاطين وقدرين للطهى. وأعطيته جالون نبيذ. ما الذى فعله حينئذ ذلك الشيطان؟ أهان زوجتى وأطلق علىّ أنا صفات بذيئة. وصفع

ابنى، وضرب كلبى بقدمه! وسرق السرير القماش المعلق بالفناء. وجذب توريللى أنفاسه منفعلاً: وقد طاردته لاستعادة سريرى، وعندما عدت ألفيته مع زوجتى! فاسق، لص، سكير! ذلك هو صديقكم دانى! وسأعمل بنفسى على إدخاله السجن.

ولمعت عيون الأصدقاء. وقال بيلون بحدة: «أيها الخنزير الكورسيكى. أنت تتحدث عن صديقنا. ليس صديقنا على ما يرام».

أغلق توريللى الباب بالمفتاح. كان فى مقدورهم أن يسمعوا ذلك، ومع هذا استمر بيلون يتحدث من خلف الباب. قال: «أوه، أيها اليهودى. لو كنت أكثر سخاء بعض الشىء بالنسبة للخمر، لما حدثت هذه الأمور. ألا ترى أنه كان ينبغى أن تحفظ تلك الضفدعة البارزة التى هى لسانك عن تدنيس صديقنا. كان ينبغى أن تعامله بلطف، لأن أصدقاءه كثيرون. سوف نمزق معدتك إذا لم تكن لطيفاً معه».

لم يصدر توريللى أى صوت داخل المنزل المغلق، ولكنه ارتعش من الغضب والخوف من حدة هذه الألسنة. وارتاح عندما سمع خطوات الأصدقاء تبتعد فى آخر الممر.

فى تلك الليلة، وبعد أن ذهب الأصدقاء إلى فراشهم، سمعوا وقع أقدام متسللة فى المطبخ. وعرفوا أنها لدانى، ولكنه أفلت قبل أن يتمكنوا من الإمساك به. وأخذوا يطوفون المكان الذى حولهم، منادين فى حزن: «تعال، يا دانى، يا صديقنا الصغير السكرة، نحن نحتاجك معنا».

لم يتلقوا جواباً، ولكن حجرا طار وأصاب بيج جو فى معدته وجعله يتكور على الأرض. أوه، كم شعر الأصدقاء باليأس، وكم كانت قلوبهم مثقلة!

قالوا فى حزن: «إن دانى يندفع نحو موته. إن صديقنا الصغير فى حاجة إلى مساعدة، ونحن عاجزون عن مساعدته».

أصبح من الصعب إدارة شئون البيت الآن، فقد سرق دانى كل شىء منه تقريباً. لقد ظهر الكرسى عند بيت مهرب الخمور، واختفى الطعام

كله، وذات مرة، أثناء بحث الأصدقاء عن دانى فى الغابة، سرق الموقد، لكنه كان ثقيلاً، فتركه فى المصرف. لم تكن هناك نقود، لأن دانى كان قد سرق عربة القرصان الصغيرة وباعها إلى جو أورتث مقابل زجاجة ويسكى. لقد اختفى الآن السلام من بيت دانى، ولم يعد هناك سوى القلق والهم.

وناح بابلو: «أين ذهبت سعادتنا. لابد أننا ارتكبنا خطيئة فى مكان ما. إنه عقاب. ينبغى أن نذهب للاعتراف.»

لم يعودوا يناقشون مظاهرة كورنيليا رويت الزوجة. لقد ذهبت الأخلاقيات، وضاعت الإنسانيات. الحق أن الحياة الهنيئة قد صارت حطاماً. وترامت الإشاعات من وسط الدمار.

- «ارتكب دانى اغتصاباً جزئياً ليلة أمس».

- «كان دانى يحلب عنزات السيدة بالوتشيكو».

- «كان دانى مشتبكاً فى معركة مع بعض الجنود فى الليلة قبل الماضية».

ورغم حزن الأصدقاء لانحدار دانى الخلقى، شعروا بشىء غير قليل من الغيرة من الوقت المثير الذى يقضيه.

قال بيلون: «إذا لم يكن مجنوناً، سوف يعاقب. كونوا على يقين من ذلك. لقد فاق دانى فى ارتكابه الخطايا بالطريقة التى يرتكبها بها، الخطيئة من أجل الخطيئة، كل الأرقام القياسية التى سمعت عنها. أوه، أى كفارة يقوم بها لو أراد أن يكون فاضلاً مرة أخرى! لقد ارتكب دانى من الخطايا فى أسابيع قليلة، أكثر مما ارتكبه رويث العجوز طوال حياته».

فى تلك الليلة زحف دانى إلى داخل البيت دون أن تعوقه الكلاب اللطيفة ودون أن يحدث صوتاً وكأنه ظل ذراع يتحرك تحت ضوء الشارع، وسرق فى طيش حذاء بيلون. وفى الصباح لم يلبث بيلون طويلاً حتى فهم ما حدث. ذهب فى حزم إلى الفناء وجلس فى الشمس ونظر

إلى قدميه.

قال: «والآن لقد تمادى أكثر من اللازم. حركات المزاح، احتملناها. ولكنه يتحول الآن إلى الجريمة. ليس دانى الذى نعرفه. هذا رجل آخر، رجل سيىء. ينبغى أن نقبض على هذا الرجل السيىء».

ونظر بابلو فى ارتياح إلى حذائه. وقال مبرراً: «ربما لا تكون هذه سوى حركة مزاح».

رد بيلون فى حدة: «لا. هذه جريمة. لم يكن حذاء جيداً جداً، ولكن الاستيلاء عليه جريمة ضد الصداقة. وتلك هى أسوأ أنواع الجريمة. إذا كان دانى يسرق الأحذية من أصدقائه، فلن يتورع عن ارتكاب أية جريمة».

وأومأ الأصدقاء برءوسهم موافقين. قال يسوع ماريا، الرجل الخير: «نعم، ينبغى أن نقبض عليه. نحن نعلم أنه مريض. سوف نربطه إلى سريره ونحاول أن نشفيه من مرضه. ينبغى أن نحاول محو الظلمة من عقله».

قال بابلو: «ولكن الآن قبل أن نمسكه، ينبغى أن نتذكر وضع أحذيتنا تحت وسائدنا عندما ننام».

كان البيت فى حالة حصار. انتزع دانى كل شىء منه، وراح يستمتع بوقت طيب.

قلما كان وجه تورييلى يشى بأى انفعالات سوى الشك والغضب. وبحكم وضعه كمهرب خمور، وفى معاملاته مع أهالى تورتيلا فلات، كان قلبه غالباً ما ينطق بهذين الانفعالين، وكانا محفورين على وجهه. أضف إلى ذلك، أن توريللى لم يكن قد زار أحداً أبداً. كان فقط يمكث فى البيت حيث يزوره كل شخص. ولذلك، عندما صعد توريللى الطريق المتجه إلى بيت دانى فى الصباح، كان وجهه يفيض بابتسامة شرسة من السعادة والتوقع. وجرى الأطفال إلى أفنية بيوتهم وتطلعوا إليه من خلال

القضبان، وربتت الكلاب على بطونها بأذيالها وهربت بنظرات خائفة مذعورة، وابتعد الرجال الذين التقوا به عن طريقه، وقد تقلصت قبضاتهم لمقاومة رجل مجنون.

فى ذلك الصباح كان الضباب يغطى السماء. واستسلمت الشمس بعد مناوشات فاشلة للبزوغ وانسحبت خلف طبقات رمادية. واسقطت أشجار الصنوبر قطرات مترية على الأرض وعلى وجوه الناس القليلين الذين كانوا هناك. وعكس النهار النظرات المتجهمة والجلود الرمادية. لم تكن هناك تحيات حارة. لم يكن هناك شىء من تلك المثالية الإنسانية التى تود فى رقة أن يكون هذا اليوم أفضل من كل الأيام الأخرى.

عندما شاهد روكا العجوز ابتسامة توريللى ذهب إلى البيت وأخبر زوجته: «ذلك الشخص قد قتل تواً أولاده جميعاً وأكلهم. وسوف ترين!».

كان توريللى سعيداً، فقد كان فى جيبه ورقة ثمينة مطوية. وبحثت أصابعه فى داخل معطفه مراراً وضغطت إلى أن أكد له صوت خشخشة بسيط أن الورقة ما زالت معه وبينما كان يمشى فى الصباح الرمادى، تمتم لنفسه.

قال: «عش الأفاعى. سوف أزيل وباء أصدقاء دانى. لن أبيع بعد ذلك نبيذاً مقابل بضائع، ثم تسرق البضائع منى ثانية. إن كل فرد منهم ليس سيئاً جداً، ولكن عشهم! أيتها العذراء، انظرى كيف سأقوم بطردهم إلى الشارع!.. الضفادع البرية، القمل، الذباب القارص! عندما ينامون فى الغابات مرة أخرى لن يرفعوا رءوسهم هكذا».

«سوف أعرفهم أن توريللى قد انتصر. لقد فكروا فى خداعى، وتجريد بيتى من الأساس وزوجتى من الفضيلة! سوف يرون أن توريللى، المعذب الكبير، يستطيع أن يرد الضربة. أجل، سوف يرون!».

هكذا كان يتمتم أثناء سيره، وأصابعه تخشخش الورقة التى فى جيبه. وأسقطت الاشجار قطرات حزينة فى التراب. وحلقت النوارس

فى الجو، تصرخ بطريقة فاجعة. وكان توريللى يتحرك نحو بيت دانى كالقضاء الأخير.

كانت الكآبة تخيم على بيت دانى. لم يكن فى مقدور الأصدقاء أن يجلسوا فى الفناء تحت أشعة الشمس، لأنه لم تكن هناك شمس. ولا يستطيع أحد أن يقدم سبباً أفضل من هذا لتفسير هذه الكآبة. وكانوا قد احضروا الموقد المسروق من المصرف وأعدوه للعمل. وتجمعوا حوله الآن وكان جونى بوم - بوم، الذى حضر لزيارتهم، يفضى إليهم بما لديه من أخبار.

قال: «لم يعد تيتو رالف حارس سجن المدينة. لا، فقد طرده قاضى الشرطة هذا الصباح».

قال بيلون: «لقد أحببت تيتو رالف. كان يحضر شيئاً من الخمر للإنسان، عندما يكون فى السجن - وكان يعرف قصصاً أكثر مما يعرف مائة رجل آخرين. لماذا فقد وظيفته، يا جونى بوم - بوم؟».

- «ذلك هو ما جئت لأقوله لكم. كان تيتو رالف. كما تعلمون، يقضى معظم أيامه فى السجن، وكان سجاناً ممتازاً. وكان يعلم كيف يدار السجن. وبعد فترة كان يعرف عن السجن أكثر مما يعرف أى شخص آخر. ثم مات دادى ماركز، السجان القديم، واحتل تيتو رالف مكانه. لم يحدث أن كان هناك سجان ممتاز مثل تيتو رالف. قام بكل شىء على أكمل وجه. ولكنه كان يخطىء خطأ واحداً بسيطاً. عندما يشرب النبيذ، ينسى أنه السجان. فيهرب، ويضطرون إلى الإمساك به».

وأومأ الأصدقاء برءوسهم مؤيدين. وقال بابلو: «أنا أعرف. وقد سمعت أن من الصعب القبض عليه أيضاً. فهو يجيد الاختباء».

واستأنف جونى بوم - بوم كلامه: «نعم. وفيما عدا ذلك، فإنه أفضل سجان استخدموه. حسن. وإليكم الأمر الذى جئت لأخبركم به.. فى الليلة الماضية حصل دانى على مقدار من النبيذ يكفى عشرة رجال،

وشربه. وبعدئذ أخذ يرسم صوراً على النوافذ. كان غنياً جداً، اشترى بيضاً ليقذف به رجلاً صينياً. وأخطأت إحدى هذه البيضات الرجل الصينى وأصابت شرطياً. وهكذا، دخل دانى السجن.

«ولكنه كان غنياً. أرسل تيتو رالف للحصول على بعض النبيذ، ثم أرسله بعدئذ من أجل الحصول على المزيد من النبيذ. وكان هناك أربعة رجال آخرون فى السجن. شربوا جميعاً من النبيذ. وفى النهاية وقعت تلك الغلطة التى يرتكبها تيتو رالف. وهكذا هرب، وهرب معه الآخرون. وقد قبضوا على تيتو رالف هذا الصباح وأخطروه أنه لن يكون فى مقدوره أن يعمل سجاناً بعد اليوم. وكان حزيناً جداً حتى أنه حطم نافذة، والآن دخل السجن مرة أخرى».

صاح بيلون: «ولكن دانى ماذا عن دانى؟».

أجاب جونى بوم - بوم: «أوه، دانى. لقد هرب هو أيضاً. لم يقبض عليه».

وتنهد الأصدقاء فى يأس.

قال بيلون باهتمام: «إن حالة دانى تزداد سوءاً. لن تكون نهايته طيبة. إننى لأتساءل من أين جلب النقود؟».

فى هذه اللحظة فتح توريللى المنتصر البوابة وصعد الممر. ونهضت كلاب القرصان فى عصبية من ركنها واتجهت نحو الباب وهى تعوى. رفع الأصدقاء رءوسهم ونظر أحدهم إلى الآخر فى تساؤل. التقط بيج جو يد المعول التى استخدمت فى ضربه أخيراً. ودقت خطوات توريللى الواثقة الثقيلة على أرض الفناء. وانفتح الباب على مصراعيه، ووقف توريللى مبتسماً عند فتحته. لم يهددهم. لا، وإنما اقترب منهم فى رقة مثل قط أليف. ربت عليهم بحنان، مثلما تربت قطة البيت على صرصور.

قال فى رقة، مجيباً على نظرات الانزعاج: «يا أصدقائى. وزبائنى الأعزاء الطيبين، إن قلبى ليتمزق إذا أضطر إلى حمل أنباء سيئة إلى أولئك الذين أحبهم».

قفز إليه بيلون: إنه دانى. أهو مريض. هل تعرض للأذى. تكلم.

هز توريللى رأسه بالنفى بطريقة لطيفة: لا، يا صغارى، إنه ليس دانى. إن قلبى يدمى، ولكنى مضطر أن أخبركم أنه ليس فى إمكانكم أن تقيموا هنا بعد اليوم. واستمتعت عيناه بالذهول الذى أحدثه فيهم بكلماته. سقط كل منهم مفغوراً، وصارت كل عين باهتة من فرط الدهشة.

صاح بابلو: هذا هراء. لماذا لا نستطيع أن نقيم هنا بعد اليوم؟

واندست يدا توريللى فى لطف إلى جيب الصدر، وجذبت أصابعه الورقة الثمينة وحركها فى الهواء. واستطرد: تصوروا عنائى، لم يعد دانى يملك هذا البيت الآن.

صاحوا: ماذا! ماذا تقصد؟ كيف لم يعد دانى يملك هذا البيت بعد الآن؟ تكلم، أيها الخنزير الكورسيكى.

ضحك توريللى فى سخرية ضحكة فظيعة حتى أن البيزانوس قد ارتدوا إلى الخلف. وقال: لأن البيت أصبح ملكى. حضر دانى إلىّ وباعنى منزله الليلة الماضية مقابل خمسة وعشرين دولاراً. ولاحظ فى خبث الأفكار التى تتزاحم فى وجوههم. كانت وجوههم تقول: هذا كذب. دانى لا يفعل مثل هذا الأمر ثم تقول: ولكن دانى فعل أموراً سيئة كثيرة فى الأيام الأخيرة. كان يسرق منا. ربما باع المنزل الذى يظل رءوسنا.

صاح بيلون بصوت مرتفع: إنها كذبة. إنها كذبة قذرة من مهاجر.

وابتسم توريللى ولوح بالورقة وقال ها هو ذا الدليل، ها هى ذى الورقة التى وقعها دانى، إنها عبارة عما نطلق عليه نحن رجال الأعمال وثيقة بيع.

وانفجر بابلو فى وجهه: لقد أسكرته. لم يكن يعرف ما فعله.

فض توريللى الورقة قليلاً. وقال: القانون لا يهتم بذلك. وهكذا، أيها الأصدقاء الأعزاء الصغار، تجدون أن مهمتى شاقة إذا أخبركم بضرورة مغادرة منزلى. فأنا لدى بعض المشروعات التى أريد تنفيذها بشأنه

وزايلت وجهه الابتسامة، ثم قال وقد استجمع كل قسوته إذا لم تخرجوا حتى الظهر سأبعث لكم شرطياً.

وتقدم بيلون بلطف نحوه. أوه، كن حذراً يا توريللى، عندما يتحرك بيلون نحوك مبتسماً! اجر، أخف نفسك فى حجرة حديدية والحم الباب. قال بيلون برقة: أنا لا أفهم هذه الأمور. طبعاً أنا حزين إذا كان دانى قد فعل أمراً كهذا.

وضحك توريللى مرة أخرى مستهزئاً.

واستطرد بيلون: لم يكن لى بيت أبيعه أبداً. وقع دانى هذه الورقة. أهى تلك؟

أجاب توريللى مقلداً: نعم. وقع دانى هذه الورقة. تلك هى.

وظل بيلون يتعثر بغباء: أذلك هو الشىء الذى يثبت أنك تملك هذا المنزل؟

- نعم، أيها الغبى الصغير. هذه هى الورقة التى تثبت ملكيتى.

وبدا بيلون متحيراً: أعتقد أنه ينبغى أن تذهب بها للتسجيل.

ضحك توريللى فى ازدراء. أوه احذر، يا توريللى! ألا ترى مدى الهدوء الذى تتحرك به هذه الأفاعى؟ هناك يسوع ماريا أمام الباب، وهناك بابلو عند باب المطبخ. وانظر مفاصل أصابع بيج جو التى ابيضت على يد المعول.

قال توريللى: أنتم لا تعرفون شيئاً عن الأعمال، أيها المتشردون الصعاليك الصغار. عندما أغادر هذا المكان سوف أذهب بهذه الورقة إلى... ».

وقد حدث الأمر بغاية السرعة حتى أن الكلمة الأخيرة قد انطلقت من فمه كالقذيفة. وطارت قدماه فى الهواء. واستقر على الأرضية فى ارتطامة مرتفعة الصوت وتشبث بالهواء بيديه الممتلئتين. وسمع رنة

غطاء الموقد.

صرخ: «لصوص» واندفعت الدماء فى رقبته وفى وجهه: لصوص، فيران وكلاب، هاتوا ورقتى.

وبدت الدهشة على وجه بيلون وهو واقف أمامه.

وسأل فى أدب ورقة؟ ما هى هذه الورقة التى تتحدث عنها بهذا الانفعال؟.

- وثيقة البيع، ملكيتى. أوه، سوف تعرف الشرطة هذا!

قال بيلون: لا أذكر أن هناك ورقة. بابلو، هل تعرف ما هى هذه الورقة التى يتحدث عنها:

أجاب بابلو: ورقة؟ هل هو يعنى ورقة جريدة أو ورقة سيجارة؟

واستمر بيلون يسألهم بالدور: وأنت يا جونى بوم - بوم؟

أجاب جونى بوم - بوم: يجوز أنه يحلم. ذلك الشخص.

يسوع ماريا؟ هل تعرف شيئاً عن ورقة؟

قال يسوع ماريا فى صوت مستنكر: أعتقد أنه سكران. إن الوقت ما زال مبكراً جداً على السكر.

- وأنت يا جو بورتاجى؟

قال جو فى إصرار: لم أكن هنا. لقد حضرت هنا تواً.

- والقرصان؟

- لم يكن معه أى أوراق ثم التفت إلى كلابه: هل كان معه؟

واستدار بيلون إلى توريللى الذى أصيب بالسكتة: أنت مخطىء يا صديقى. من الممكن أن أكون أنا مخطئاً بالنسبة لهذه الورقة، ولكنك تستطيع أن ترى بنفسك أنه لا يوجد أحد غيرك قد شاهد هذه الورقة. فهل تلومنى إذا اعتقدت أنه ربما لا تكون هناك ورقة؟ ربما ينبغى عليك أن تذهب إلى فراشك وتستريح قليلاً.

كان توريللى مذهولاً حتى أنه لم يستطع أن ينطق كلمة بعد ذلك. فعدلوه ناحية الباب وساعدوه على الخروج ودفعوا به إلى الطريق، غارقاً فى بشاعة فشله.

بعدئذ نظروا إلى السماء، فشعروا بسعادة، لأن الشمس قد كافحت من جديد، واستطاعت فى هذه المرة أن تشق لها ممراً خلال الضباب. لم يعد الأصدقاء إلى داخل البيت. جلسوا فى سعادة فى الفناء الأمامى.

قال بيلون: خمسة وعشرون دولاراً. ترى ماذا فعل بالنقود؟

وراحت الشمس، وقد تمكن شعاعها من النفاذ مرة، تدفع الضباب بعيداً عن السماء، وتشبعت عوارض الفناء الخشبية بالدفء، وغنى الذباب فى الضوء. وحل الإرهاق بالأصدقاء.

قال بابلو فى فتور: لقد كان أمراً كئيباً. لم يكن ينبغى لدانى أن يفعل أمثال هذه الأمور.

قال يسوع ماريا: سوف نحصل على كل نبيذنا من توريللى لنعوضه.

وقفز عصفور بين شجيرات الورد وهز ذيله وانشدت دواجن السيدة موراليس الجديدة أنشودة للشمس. وراحت الكلاب فى الفناء الأمامى تخمش كل شىء فى تفكير وتقرض أذيالها.

وعند سماع صوت وقع أقدام فى الطريق، رفع الأصدقاء رءوسهم، ثم وقفوا وعلى وجوههم ابتسامات ترحيب. فقد دخل دانى وتيتو رالف من البوابة، وكل منهما يحمل زكيبتين ثقيلتين. واندفع يسوع ماريا إلى داخل البيت وأحضر الأقداح. ولاحظ الأصدقاء أن دانى قد بدا متعباً بعض الشىء عندما وضع قنينة الخمر فى الفناء.

قال دانى: من المرهق تسلق ذلك التل.

صاح جونى بوم - بوم: تيتو رالف. لقد سمعت أنهم وضعوك فى السجن.

أجاب تيتو رالف بفتور: هربت ثانية. ما زالت المفاتيح معى.

وصبت الأقداح حتى حافتها. وانبعثت تنهيدة كبيرة من صدور الرجال، تنهيدة ارتياح لأن كل شىء قد انتهى.

وتناول بيلون جرعة كبيرة. قال. دانى، لقد حضر إلى هنا، صباح اليوم، ذلك الخنزير توريللى بالأكاذيب. كان معه ورقة قال إنك وقعت عليها.

بدا دانى منزعجاً وسأل: أين هى تلك الورقة؟

استطرد بيلون: حسن. كنا نعلم أنها كذبة. لذا أحرقنا هذه الورقة. أنت لم توقعها، هل وقعتها؟

أجاب دانى: لا وأفرغ كأسه.

وقال يسوع ماريا: قد يكون من الجميل أن نجد شيئاً نأكله.

ابتسم دانى فى عذوبة: لقد نسيت. يوجد فى أحد هذه الزكائب ثلاث دجاجات وبعض الخبز.

كان بيلون من السعادة والارتياح حتى أنه وقف وارتجل خطبة قصيرة مؤثرة: أين لنا أن نلقى صديقاً كصديقنا؟ إنه يأوينا فى منزله لحمايتنا من البرد. ويشركنا فى طعامه الجيد، وخمره. واها للرجل الطيب، الصديق العزيز.

شعر دانى بالخجل، نظر إلى الأرضية وتمتم: لا شىء. العفو.

ولكن فرحة بيلون كانت من العظمة حتى أنه احتضن العالم وحتى الأشياء الشريرة فى العالم. وقال ينبغى أن نؤدى الجميل يوماً ما لتوريللى.

١٦ عن أحزان دانى

كيف ضحى أصدقاء دانى فى سبيل إقامة حفل له وكيف فسروا حالته

عندما عاد دانى إلى بيته وإلى أصدقائه بعد فعلته، لم يكن معذب الضمير، ولكنه كان جد مرهقاً. كانت الأصابع الخشنة للتجربة العنيفة قد عزفت على قيثارة روحه. وراح يعيش بلا مبالاة، ينهض من سريره فقط ليجلس فى الفناء، تحت شجرة الكاستيل، وينهض من الفناء فقط ليتناول طعامه، وينهض من المائدة فقط ليذهب إلى فراشه. ويتدفق الحديث من حوله وهو يستمع، لكنه لا يبالى. وقامت كورنيليا رويث بسلسلة من عمليات الزواج السريعة المدهشة، ولم يترك ذلك أى انفعال فى نفس دانى. وعندما نام بيج جو فى سرير دانى ذات مساء، كان من بلادة الشعور حتى أن بيلون وبابلو اضطرا إلى ضرب بيج جو من أجله. وعندما احتفل سامى راسبر بالسنة الجديدة بإطلاق الرصاص وبجالون من الويسكى، وقتل بقرة ودخل السجن، لم يكن فى مقدور دانى حتى أن يشترك فى الحديث عن أخلاقيات القضية، رغم أن النقاش والجدل كانا محتدين من حوله، ورغم أن الأصدقاء يتوقون إلى معرفة رأيه.

وبعد فترة بدأ الأصدقاء يشعرون بالقلق على حالة دانى. قال بيلون: لقد تغير. كبر فى السن وقال يسوع ماريا مفسراً: إن دانى هذا قد جمع كل متع الحياة فى ثلاثة أسابيع قصار. لقد سئم اللهو.

وعبثاً حاول الأصدقاء إخراجه من كهف اللامبالاة. فى الصباح كانوا يحكون أطرف القصص أثناء جلوسهم بالفناء. كانوا يسردون تفاصيل الحياة الغرامية فى تورتيلا فلات بطريقة نافذة حتى أنهم يصلحون للعمل فى فصل للتشريح. وكان بيلون يذرع منطقة الفلات من أجل الأخبار، ويأتى إلى البيت بكل ما عساه أن يهم دانى منها، ولكن الزمن والإرهاق كانا يثقلان عينى دانى.

وأصر يسوع ماريا بلا جدوى: أنت على غير ما يرام. هناك سر مرير فى قلبك.

أجاب دانى: لا.

كان من الملاحظ أنه يدع الذباب يزحف على قدميه وقتاً طويلاً، وعندما كان يطرده بيده لم يكن فى ضربته أية براعة. وشيئاً فشيئاً بدأ يختفى المرح والضحكة التلقائية من بيت دانى ويغرق كل شىء فى بحيرة صمته المظلمة.

أوه، كان من المحزن رؤيته، دانى ذلك الذى كان يحارب من أجل قضايا خاسرة، أو أى نوع آخر منها، دانى ذلك الذى كان فى مقدوره تبادل الأنخاب مع أى رجل فى العالم، دانى ذلك الذى كان يستجيب لنظرة الحب كالنمر المستثار. إنه يجلس الآن فى فنائه تحت الشمس، ركبتاه داخل البنطلون الأزرق منجذبتان إلى صدره، ذراعاه معقودتان فوقهما، ويداه متدليتان من رسغيه المتخشبين، ورأسه مائل إلى الأمام وكأنما تثقله أفكار سود. وليس هناك فى عينيه بريق رغبة ولا ضيق ولا فرح ولا ألم.

مسكين دانى، كيف خلفتك الحياة! أنت تجلس هنا كالرجل الأول قبل بدء العالم حوله، كالرجل الأخير، بعد اندثار العالم. ولكن انظر، يا دانى! أنت لست وحيداً. لقد انجذب الأصدقاء إلى حالتك. إنهم ينظرون إليك من أركان عيونهم. إنهم ينتظرون كالكلاب الصغيرة المترقبة أول حركة

تيقظ من سيدهم. كلمة واحدة هناك، يا دانى، نظرة واحدة مرحة، وسوف يهللون ويطاردون ذيولهم. ليست حياتك ملكك وحدك لتتحكم فيها، يا دانى، فثمة حيوات أخرى مرتبطة بها. انظر كيف يعانى أصدقاؤك! اقفز إلى الحياة، يا دانى، حتى يحيا أصدقاؤك مرة أخرى!

كان ذلك فى الواقع ما قاله بيلون، وإن لم يتبلور فى مثل هذه الكلمات الجميلة. وقدم بيلون قدحاً من النبيذ إلى دانى، قائلاً تعال، اخرج من قوقعتك.

تناول دانى القدح وأفرغه. ثم استلقى على ظهره وحاول أن يستغرق مرة أخرى فى حالة النيرفانا الوجدانية.

سأله بيلون: هل أصابك شىء ما؟

أجاب دانى: لا.

صب له بيلون قدحاً آخر من النبيذ وراقب وجهه وهى يخفى النبيذ. زايل العينين نورهما الخابى. وفى مكان ما بالأعماق، تحرك نبض الحياة فى دانى القديم لحظة. قتل ذبابة بضربة معلم.

وفى بطء انتشرت ابتسامة على وجه بيلون. بعد ذلك جمع كل الأصدقاء، بابلو ويسوع ماريا وبيج جو والقرصان وجونى بوم بوم وتيتو رالف.

وقاد بيلون الجميع إلى المصرف خلف المنزل وقال: لقد أعطيت دانى آخر قطرة من النبيذ، وقد أفاده ذلك. أن ما يحتاجه دانى هو الكثير من النبيذ، وربما حفلة. من أين يمكننا الحصول على نبيذ؟

راحت أذهانهم تبحث إمكانات مونترى مثل كلاب صيد الفيران فى جرن، ولكن لم تكن هناك فيران. كان هؤلاء الأصدقاء مدفوعين بالغيرة بطريقة أكثر إخلاصاً مما قد يستطيع أن يتصوره معظم الناس. فقد أحبوا دانى.

وأخيراً قال يسوع ماريا: تشين كى يعبىء الأسماك.

والتحمت عقولهم، وتحولت تبحث الأمر فى فضول. وتزحف متسللة إلى الخلف وتقلبه. مضت عدة لحظات حتى استطاع خيالهم المصدوم استساغة الفكرة. وأخذوا يتناقشون فى صمت ولكن بعد كل شىء، لم لا؟ يوم واحد لا يضر - يوم واحد فقط.

وكانت وجوههم تنم عن تقدم المعركة، وكيف هزموا مخاوفهم فى سبيل رفاهية دانى.

قال بيلون: سوف نقيمها. سنذهب جميعاً للعمل فى تنظيف الأسماك، وفى مساء الغد نقيم حفلاً لدانى.

عندما استيقظ دانى فى الصباح التالى، لم يكن أحد بالمنزل. نهض من فراشه ونظر خلال الحجرات الصامتة. ولكن دانى لم يكن بالرجل الذى يمعن التفكير طويلاً فى مثل هذا الأمر. طرحه جانباً كمشكلة، ثم كخاطرة. وذهب إلى الفناء الأمامى وجلس بلا مبالاة.

أهو نذير، يا دانى؟ هل تخشى المصير الذى يطبق عليك؟ ألم تعد هناك مسرات؟ لا. غرق دانى فى نفسه كما هو حاله منذ أسبوع.

ولم يكن الأمر كذلك فى تورتيلا فلات. فقد انتشرت الإشاعة مبكراً: أصدقاء دانى يعملون فى تنظيف الأسماك لدى تشين كى إنه انقلاب كانقلاب الحكومة، أو انقلاب الدورة الشمسية. كان الأمر موضوع الحديث فى الشارع، وبين السيدات اللاتى أسرعن فى هذه اللحظة لأخبار بعضهن من فوق أسوار بيوتهن الخلفية. جميع أصدقاء دانى نزلوا المدينة لتنظيف الأسماك.

كان الصباح مشحوناً بالأخبار. لابد من وجود سبب ما. سر ما. أخبرت الأمهات أطفالهن وأرسلنهم بسرعة إلى ساحة تشين كى. ووقفت العرائس الصغيرات فى قلق خلف ستائرهن منتظرات المزيد من الأخبار.

وجاءت الأخبار.

قطع بابلو يده بسكين تنظيف الأسماك.

طرد تشين كى كلاب القرصان.

شغب.

عادت الكلاب.

بيلون يبدو عابساً.

ووضعت مراهنات قليلة بسيطة. مضت شهور قبل ذلك لم يحدث فيها شىء مثير كهذا. وجاء صباح بأكمله لم يتكلم فيه فرد واحد عن كورنيليا رويث. ولم يكن قد تسرب شىء من الأخبار الحقيقية حتى ساعة الظهيرة، ولكنها انطلقت بعدئذ بسرعة.

سوف يقيمون حفلاً كبيراً لدانى.

سيذهب الجميع إلى الحفل.

وأخذت التعليمات تخرج من ساحة السمك. قامت السيدة موراليس بتلميع الفونوغراف وأخرجت أعلى اسطواناتها صوتاً. وسطعت بعض الصواريخ وتوهجت تورتيلا فلات. سبعة أصدقاء سوف يقيمون حفلة لدانى حقاً! كما لو أن دانى ليس له سوى سبعة أصدقاء! ونزلت السيدة سوتو إلى حظيرة الدواجن بسكينها. وصبت السيدة بالوتشيكو حقيبة سكر فى أكبر إناء طهى لديها لتصنع حلوى. وذهب وفد من الفتيات إلى مخزن وولويرث فى مونترى واشترين كل الكمية المخزونة من الورق الكريب الملون. وترامى صوت الجيتارات والأكوردیونات التى تعد فى بيوت منطقة فلات.

أخبار! مزيد من الأخبار من ساحة الأسماك. سوف يقيمون الحفل. إنهم مصممون. سوف يكون لديهم على الأقل أربعة عشر دولاراً. سوف يكون هناك أربعة عشر جالوناً من النبيذ.

كان توريللى مثقلاً بالعمل. إذ كان كل شخص يريد شراء جالون من النبيذ ليأخذه معه إلى بيت دانى، بل توريللى نفسه، وقد انخرط فى طوفان الحركة، قال لزوجته: ربما نذهب إلى بيت دانى. سوف آخذ بضعة جالونات إلى أصدقائى.

وعندما مضت فترة ما بعد الظهيرة، اجتاحت تورتيلا فلات موجات من الانفعالات المثيرة. وأخرجت الملابس التى لم تلبس طوال الحياة، وعلقت فى الهواء. كما علق فى الهواء بالأفنية كل شال تاقت إليه العتة خلال مائتى عام. وقد انبعثت منه رائحة أقراص النفتالين.

وماذا عن دانى؟ كان يجلس كرجل ذاب إلى النصف. تحرك فقط عندما تحركت الشمس، لو اتضح له أن كل إنسان من سكان تورتيلا فلات مر ببوابته فى ذلك الأصيل، فلم يكن ليعيره أى التفات. مسكين دانى! كان هناك على الأقل أربعة وعشرون زوجاً من العيون تراقب بوابته الأمامية. وفى الساعة الرابعة تقريباً نهض، وتمطع وخرج من الفناء، متجهاً نحو مونترى.

وانتظروا بالكاد حتى اختفى عن البصر. أوه، أى أوراق كريب خضراء وحمراء وصفراء ملتفة ومتصلة ببعضها! وأزيلت طبقة من الشموع ونثرت على الأرضية! وراح الأطفال الشياطين ينزلقون على الشمع دون أن يقعوا.

وظهر الطعام، صوانى أرز، قدور من الدواجن التى يتصاعد منها الدخان، لقمة قاضى. وأعد الشراب، جالونات وجالونات من النبيذ. كما أحضر مارتيت برميلاً من ويسكى البطاطس إلى بيت دانى.

وفى الخامسة والنصف مشى الأصدقاء صاعدين التل، مرهقين منزوفى الدم، ولكنهم منتصرون. ومن المؤكد أنهم كانوا يشبهون الحرس القديم لدى عودته إلى باريس بعد معركة أوسترليتز. ورأوا المنزل، متلألئاً بالألوان. ضحكوا وزايلهم التعب. كان من السعادة حتى أن الدموع

طفرت إلى عيونهم.

ودخلت ماما تشيو الفناء يتبعها ولداها يحملان بينهما إناء غسيل ملىء « بصلصة بيورا» أما بوليتو، ذلك الغنى المحتال، فقد أشعل النار تحت إناء كبير من البسلة والفلفل. وتفجرت الصيحات والاغانى، ورنين أصوات النساء، والجلبة العامة التى أحدثها الأطفال المبتهجون. وجاءت من مونترى عربة مملوءة برجال الشرطة الذين كانوا يخشون حدوث شىء ما. أوه. إنها مجرد حفلة. مؤكد، سوف نحصل على كأس من النبيذ. لا تقتل أى شخص.

أين دانى؟ راح يجوس خلال شوارع مونترى فى المساء، وحيداً كالدخان فى ليلة باردة صافية. ذهب إلى مكتب البريد، وإلى المحطة، وإلى صالات القمار بشارع الفارادو، وإلى الميناء حيث تنوح المياه السوداء بين ركائز الخشب. ماذا حدث يا دانى ما الذى يجعل مشاعرك هكذا؟ لم يكن دانى يعرف. كان ثمة ألم فى قلبه كمن يودع سيدة عزيزة، كان يسيطر عليه حزن خفى أشبه بيأس الخريف. ومر أثناء سيره بالمطاعم التى اعتاد أن يشم رائحتها بلذة، لكنها لم تثر فى نفسه أية شهية للأكل. ومشى بجوار معهد مدام ذوكا الكبير، ولم يتبادل أية إشارات قبيحة مع الفتيات فى النوافذ. وذهب إلى الميناء مرة أخرى. واستند إلى الحاجز، ونظر إلى أعماق، أعماق المياه. هل تعلم يا دانى كيف يصب نبيذ حياتك فى أقداح الآلهة؟ هل ترى جريان أيامك فى الماء المختلط بالزيت بين الركائز الخشبية. وظل يحدق إلى أسفل بلا حراك.

وعندما حل المساء فى بيت دانى شعروا بالقلق عليه.. غادر الأصدقاء الحفل، وأسرعوا يهبطون التل نحو مونترى. سألوا: هل رأيتم دانى؟

نعم، مشى دانى من هنا ساعة. كان يمشى فى بطء.

وأسرع بيلون وبابلو معاً. تعقبا صديقيهما فى الطريق الذى سار فيه، وفى النهاية شاهداه، عند طرف الرصيف المظلم. كان واقفاً تحت ضوء

الميناء الكهربى الشاحب. فاندفعا نحوه.

لم يذكر بابلو شيئاً عندئذ، ولكن أصبح من عادته فيما بعد، عندما يرد ذكر دانى أن يصف ما شاهده عندما اندفع هو وبيلون نحو دانى. فكان يقول دائماً: كان واقفاً هناك. استطعت أن أراه تواً، مستنداً إلى الحاجز. نظرت إليه، وعندئذ شاهدت شيئاً آخر. كان فى البداية أشبه بسحابة سوداء فى الهواء فوق رأس دانى.. بعدئذ وجدت أنه طائر أسود كبير، كان كبيراً فى حجم رجل. وحلق فى الهواء مثل الصقر عندما يحلق فوق جحر أرنب. فرسمت إشارة الصليب ودعوت للعذراء مرتين. وعندما اقتربنا من دانى اختفى الطائر.

لم يشهد بيلون شيئاً. أضف إلى ذلك أنه لم يتذكر أن بابلو رسم إشارة الصليب أو دعا للعذراء. ولكنه لم يتدخل فى هذه القصة أبداً، لأنها قصة بابلو.

أسرعا نحو دانى، وأصدرت العوارض الخشبية تحت أقدامهما أصواتاً جوفاء. لم يلتفت دانى. أخذاه من ذراعيه واستدارا به.

- دانى، ماذا حدث؟

- لا شىء. إننى بخير.

- هل أنت مريض، يا دانى؟

- لا.

- إذن، ما الذى يجعلك هكذا حزيناً؟

أجاب دانى: لا أدرى. فقط أشعر بذلك. لا أريد أن أفعل أى شىء.

- ربما يستطيع طبيب أن يفعل شيئاً من أجلك يا دانى؟

- قلت لك أننى غير مريض.

صاح بيلون: إذن، اسمع. لقد أقمنا لك حفلاً بمنزلك. جميع سكان

تورتيلا فلات هناك، موسيقى ونبيذ ودجاج! هناك حوالى عشرين أو ثلاثين جالوناً من النبيذ. وأوراق معلقة فوق الرءوس. ألا ترغب فى الحضور؟ تنفس دانى بعمق. واستدار لحظة إلى المياه السوداء العميقة. ربما كان يهمس إلى الآلهة رفضاً أو تحدياً.

ثم التفت ثانية إلى صديقيه. كانت عيناه محموتين: أنتما على حق، أريد أن أذهب. إننى ظمآن. هل هناك بنات؟

- كثير من البنات. كل البنات.

- إذن هيا. أسرعا.

وقادهما، مصعدا التل فى سرعة. وقبل أن يصلوا بمدة طويلة استطاعوا أن يسمعوا عذوبة الموسيقى من خلال أشجار الصنوبر، والأصوات الحادة السعيدة المبتهجة. ووصل الثلاثة المتأخرون مسرعين بأقصى جهدهم. رفع دانى رأسه وعوى مثل الذئب. وقدمت له أقداح النبيذ. فتناول جرعة من كل منها.

كانت حفلة من أجلك! وفيما بعد عندما كان يتحدث شخص عن حفلة بحماس، من المؤكد أنه سوف يقول مشيراً: هل ذهبت إلى تلك الحفلة التى كانت بمنزل دانى؟ وما لم يكن الشخص الآخر من القادمين الجدد، يكون بالتأكيد قد حضرها. كانت حفلة من أجلك! لم يحاول أحد من قبل أن يقيم أروع منها. كان هذا الأمر أبعد من التصور، لأن حفلة دانى ظلت مدة يومين فوق مستوى المقارنة الممكنة مع كل الحفلات التى أقيمت من قبل. أى رجل خرج من هذه الحفلة بدون بعض الكدمات والجروح المجيدة؟ لم يحدث أبداً مثل هذا العدد الكبير من المعارك، لم تكن معارك بين رجلين، ولكنها كانت معارك عاصفة تثور فى دماء الرجال.

أوه، يا لضحكات النساء! رفيعة عالية لامعة مثل أزيز الزجاج صرخات الاحتجاج شبه النسائية من المصرف. ولقد شعر الأب رامون

بالذهول والشك عندما سمع الاعترافات فى الأسبوع التالى. كانت روح السعادة بأكملها فى تورتيلا فلات قد انطلقت من عقالها وتفجرت فى الهواء، فى وحدة واحدة من الوجد. ورقصوا طويلاً فى حرارة حتى أن الأرضية سقطت فى أحد الأركان. ولعبت آلات الأكورديون بصوت عال جداً، لدرجة أنها تمزقت بعد ذلك مثل جياد منهارة.

ودانى - لما كانت هذه الحفلة لم تعرف مثيلاً لها، فقد تحدى دانى بشهرته أية منافسة. وفى المستقبل دع أى حقير يقول بحماس: هل شاهدتنى؟ هل شاهدتنى وأنا أطلب تلك الفتيات الزنجيات للرقص؟ هل رأيتنا ونحن ندور وندور مثل القطط؟ ولسوف تلتفت إليه تلك العيون الشاحبة الحكيمة. وسوف يتساءل فى هدوء صوت ما عرف الفقر ويتساءل: هل رأيت دانى ليلة الحفل؟

ربما قام أحد المؤرخين يوماً ما بكتابة تاريخ بارد، جاف لهذه الحفلة كالزوائد الفطرية. ويحتمل أن يشير إلى اللحظة التى قام فيها دانى بالتحدى والهجوم على الحفلة بأكملها، على الرجال والنساء، والأطفال. مستخدماً رجل منضدة. ويحتمل أن يستخلص هذه النتيجة: يلاحظ غالباً أن الكائن الذى على وشك الفناء، تكون لديه قدرة غير عادية من القوة والتحمل وحين يشير ذلك المؤرخ إلى نشاط دانى الغرامى الخارق فى تلك الليلة، يمكن أن يكتب العبارة الآتية، دون أن ترتجف يده: يبدو أن وظيفة أى كائن عضوى حى، تتجه بأكملها عندما يهاجم، نحو التناسل.

ولكنى أقول، ولا بد لأهالى تورتيلا فلات أن يقولوا: فليذهب ذاك التفسير إلى الجحيم. كان دانى رجلاً! ليس هناك من يعرف القصة الحقيقية، وفيما بعد، كان من الطبيعى ألا توجد سيدة تعرف عن طيب خاطر بأنها أهملت، مما زاد المبالغة فى تقدير جراءة دانى الشهيرة بعض الشىء. وربما كان عشرها مبالغاً فيه بالنسبة لأى شخص فى العالم.

أين ذهب دانى، لقـد طارده جنون غـريب. ومن المؤكـد فى تورتيـلا فـلات أن دانـى شـرب وحـده ثلاثة جـالـونات من النبـيذ. ومـهمـا يكن من شىء، ينبـغى أن نتذكـر أن دانى قد أصبـح إلهاً الآن. وربما يـصبـح عـدد الجالونات بعد بضع سنوات ثلاثين جالوناً. وربما يقـال بعد عـشرين سنة أن السـحب ليلة الحفلة أصدرت لهباً باسم (د ا ن ى) بحـروف هائلة، وأن القـمـر كـان يقطر دمـاً، وأن النجـم القطبى عـوى مـتنبـئـاً من جـبـال الكواكب.

وشيـئاً فشـيئاً بدأ أولئك الذين كـانوا أقل حدة من دانـى يتـهـافـتون ويتهـادون. أما أولئك الذين تخلفوا، فإنهم عندمـا شعـروا بالنقص، فـقـد هللوا بأصوات أعلى، وتعاركوا بطريقة أكثر حدة، ورقـصـوا بانفعال أكثر. وظلت مـوتورات سـيـارات الإطـفـاء فـى مـونـتيـرى تعمل وقـد جلس رجـال الإطفاء بقـبعاتهم الحمـراء المعدنية ومعاطفهم الواقـية من المطر ينتظرون فى أماكنهم صامتين.

ومضـى الليل سـريعاً، ومـا زال دانـى يزأر خـلال الحـفلة. والذى حـدث أقره شـهود عيان كثيرون، من كـلا الجنسين. ورغم أن قيمتهم باعتبارهم شـهـود عـيـان مـوضـع طعن فـى بعض الأحـيـان علـى أسـاس أنهم شـربوا ثلاثين جـالـوناً من النبـيـذ وبرمـيـلاً صـغـيـراً من الويسكـى، إلا أن أولئك النـاس على يقين من الخطوط العـامة. ولقـد اسـتغـرق الأمـر بضعـة أسـابيع حتـى تبلورت القـصـة، كان أحـدهم يقـول شيـئاً، والآخـر يقـول شيئاً مـختلفـاً. ولكن القصـة تبلورت شيئاً فشيئاً فـى الصورة المعقولة التـى هـى عليها الآن والتـى سـوف تكون عليها دائماً.

يقـول أهـالى تورتيـلا فـلات إن دانـى قـد تحـولت صـورته بسـرعـة. وإذا به يصبـح هـائلاً ومـخيفـاً. واتقـدت عينـاه مثل كشـافات السـيـارة كان هناك شـىء مـا مـخيـف فيه. كـان واقفاً هناك، فـى حـجـرته الخـاصـة بمنزله، وقـد أمسـك بيـده اليمنـى رجل المنضـدة المصنوعـة من خشب الصنوبر. وحـتى

رجل المنضدة قد تضخمت وراح دانى يتحدى العالم.

صاح: مَنْ يتعارك؟ ألم يبق أحد فى العالم بلا خوف؟ كان الناس خائفين، فقد صارت رجل المنضدة الرهيبة جداً والنابضة بالحياة مصدر رعب لهم جميعاً. وأخذ دانى يطوح بها إلى الأمام وإلى الخلف. وسقط الأكورديون فى الصمت. وتوقف الرقص. وتجمدت الحجرة. وبدا أن الصمت يزأر فى الهواء مثل المحيط.

صاح دانى مرة أخرى: لا أحد؟ هل أنا وحدى فى العالم؟ ألن يتعارك معى أحد؟ وارتجف الرجال أمام عينيه المخيفتين، وراقبوا فى ذهول حركة رجل المنضدة فى الهواء. ولم يستجب أحد للتحدى.

ومد دانى نفسه إلى أعلى. ويقال إن رأسه قد لامس السقف إذن سوف أخرج إلى « الواحد» الذى يستطيع العراك. سأجد الأزلية الجديرة بدانى. وخطا نحو الباب، مترنحاً قليلاً فى سيره أفسح له الناس المرعوبون طريقاً عريضاً. ومال رأسه ليخرج من الباب. وظل الناس واقفين ينصتون.

سمعوا تحديه المدوى خارج البيت. وسمعوا رجل المنضدة تصفر مثل الشهاب الساقط من الفضاء. وسمعوا وقع أقدامه تدب فى الفناء. ثم سمعوا من خلف المنزل حيث المصرف استجابة رهيبة للتحدى، حتى أن أعمدتهم الفقرية قد تجمدت كما يتجمد النبات تحت الصقيع. وحتى الآن، عندما يتحدث الناس عن منافس دانى، يخفضون أصواتهم ويختلسون النظر من حولهم، لقد سمعوا دانى يتقدم نحو المعركة. وسمعوا صيحته الأخيرة المرتفعة المتحدية، وبعدئذ ارتطامه، أعقبها صمت.

انتظر الناس فترة طويلة، حابسين أنفاسهم خشية أن يغطى اندفاع الهواء الغليظ من رئاتهم على بعض الأصوات. ولكنهم انصتوا دون جوى. كان الليل قد صمت، وكان الفجر الرمادى ينبثق.

قطع بيلون الصمت. قال: هناك شيء ما فى الأمر كان بيلون أول مَنْ اندفع خارجاً من الباب. رجل شجاع، لا يستطيع الخوف أن يلجمه، وتبعه الناس. ذهبوا إلى خلف البيت، حيث كانت تدب أقدام دانى، لكن لم يكن هناك دانى. وبلغوا حافة المصرف، حيث يوجد طريق متعرج حاد يؤدى إلى قاع ذلك المجرى القديم، وحيث لم تعد تجرى فيه المياه منذ أجيال عديدة. وشاهد الناس بيلون وهو يسرع إلى أسفل الطريق المتعرج. ومضوا خلفه فى بطء. وجدوا بيلون فى قاع المصرف، منحنياً على جسم دانى المحطم الملتوى لقد سقط أربعين قدماً. أشعل بيلون عود ثقاب وصرخ: أعتقد أنه حى. أسرعوا بإحضار طبيب. أسرعوا بإحضار الأب رامون؟

وتناثر الناس وفى ظرف خمس عشرة دقيقة كان البيازانوس المنفعلون قد أيقظوا أربعة أطباء، وجذبوهم من سررهم. ولم يسمحوا لهم بذلك البطء الذى يعمد إليه الأطباء ليثبتوا أنهم ليسوا عبيداً للعاطفة. لا! وإنما أسرعوا بهم، انطلقوا بهم، دفعوهم ودفعوا حقائب آلالتهم إلى أيديهم، قام بذلك رجال كانوا عاجزين عن قول ما يريدونه. وجذب الأب رامون من سريره، وراح يدب صاعداً التل وهو يشهق فى حيرة لما استدعى من أجله. هل هناك شيطان عليه أن يطرده، أو طفل جديد عليه أن يعمده قبل موته، أو محاكمة عرفية عليه حضورها. وفى نفس الوقت كان بيلون وبابلو ويسوع ماريا يحملون دانى إلى أعلى التل ويضعونه على سريره. ووضعوا حوله الشموع من كل جانب. كان دانى يتنفس بصعوبة.

ووصل الأطباء أولاً. ونظر أحدهما إلى الآخر فى ارتياب واضعين فى اعتبارهم حساب الأسبقية، ولكن لحظة التأخير بعثت نظرات التهديد فى عيون الناس. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لفحص دانى. كانوا قد فحصوه جميعاً عندما حضر الأب رامون.

لن أذهب إلى حجرة النوم مع الأب رامون، لأن بيلون وبابلو ويسوع ماريا وبيج جو وجونى بوم - بوم وتيتو رالف والقرصان وكلابه كانوا جميعاً هناك، وكانوا هم عائلة دانى. وكان الباب ولا يزال - مغلقاً. لأن هناك كبرياء فى الرجال قبل كل شىء، وهناك يعرض الأمور التى لا ينبغى اقتحامها.

ولكن الحجرة الكبيرة كانت مزدحمة إلى حد الاختناق بأهالى توتيلا فلات، كانت هناك حدة وصمت مترقب. واصطنع القسس والأطباء لغة ماهرة للتفاهم. وعندما خرج الأب رامون من حجرة النوم لم يكن وجهه مكفهراً. ولكن عندما رأته النساء انفجرن باكيات فى عويل عال فظيع. وحرك الرجال أقدامهم مثل الخيول فى الحظائر، ثم ذهبوا إلى الخارج مع الفجر. وظل باب حجرة النوم مغلقاً.



كيف تحدى أصدقاء دانى الحزانى التقاليد كيف احترقت التميمة كيف مضى كل صديق فى طريق وحده

الموت أمر شخصى، يثير الحزن، أو اليأس، أو الحماس أو الفلسفة الجافة. أما الجنازات فهى بالعكس مهمة اجتماعية. تخيل الذهاب إلى جنازة دون أن تلمع سيارتك أولاً. وتخيل الوقوف بجوار القبر دون أن تكون مرتدياً أفضل بذلة سوداء لديك وأفضل حذاء أسود جميل اللمعان. تصور أنك ترسل زهوراً إلى جنازة دون أن ترفق بها كارتاً لتثبت أنك قمت بالواجب على الوجه الصحيح. ليس هناك تقاليد سلوك اجتماعية أكثر رسوخاً فى أمة من مراسم الجنازات. تصور السخط إذا غير القسيس عظته أو تلاعب بتعبيرات وجهه. تصور الصدمة إذا استخدمت فى سرادق الجنازة كراسى غير تلك الكراسى الصفراء الصغيرة ذات القاعدة الخشبية الخشنة غير المريحة. لا، فاحتضار الإنسان قد يعنى حبه، أو كراهيته، أو الحزن عليه، أو الشعور بفقده، ولكن إذا مات أصبح المحور الرئيسى لاحتفال اجتماعى رسمى معقد.

مات دانى، ظل ميتاً يومين، لم يعد هو دانى. ورغم أن وجوه الناس كانت تعلوها غلالة من الكآبة، كانت قلوبهم تنبض بالإثارة فقد وعدت الحكومة بإقامة جنازة عسكرية لكل من جنودها السابقين الذين يرغبون فى ذلك. وكان دانى أول مَنْ يموت فى تورتيلا فلات، وكانت تورتيلا فلات متأهبة فى تحفز لاختبار وعود الحكومة. وسرعان ما أرسلت

الأنباء إلى الرياسة وتم تحنيط جسد دانى على حساب الحكومة. وسرعان ما أعدت العربة فى مخزن سلاح المدفعية وقد تجدد طلاؤها ووضع علم جديد نظيف مطوى فوقها. وصدرت تعليمات اليوم، الخاصة بيوم الجمعة.

(جنازة من الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة صباحاً. حرس كتيبة أ، فرقة ١١ فرسان، فرقة الموسيقى وسرية إطلاق النار بالفرقة ١١ فرسان).

أليست هذه أمور تدفع كل امرأة فى تورتيلا فلات إلى شراء ما يلزمها من محلات الدولار القومى بمونترى؟ ومشى الأطفال السود بالنهار فى شوارع مونترى يتسولون الأزهار من الحدائق من أجل جنازة دانى. وفى الليل ذهب نفس الأطفال إلى نفس الحدائق ليزيدوا من حجم باقاتهم.

فى الحفلة، ارتديت أجمل الملابس. وأثناء اليومين اللذين أعقباها، كان لا بد من تنظيف تلك الملابس، وغسلها وإصلاحها وكيها وتنشيتها. كان النشاط محموماً. وكانت الحركة حادة بعض الشىء.

وفى مساء اليوم التالى، تجمع أصدقاء دانى فى بيت دانى. لقد ذهب أثر النبيذ والمفاجأة، واستبد بهم الرعب الآن، لأنهم، وهم أكثر من أحب دانى وأكثر من تلقى خيراته، كانوا، وهم البيازانوس، الوحيدين فى كل أنحاء تورتيلا فلات الذين لا يستطيعون حضور جنازة دانى. وكانوا على وعى بهذه الفاجعة المريعة خلال ظلمة الصداع، ولكن الموقف أصبح ملموساً فى هذه الليلة فقط بحيث وجب عليهم أن يواجهوه. كانت ملابسهم العادية لا تستحق الذكر وقد أبلت الحفلة بنطلوناتهم وقمصانهم الزرقاء. أين هى ركبة البنطلون التى لم تتمزق وأين القميص الذى لم يقطع؟ لو كان الذى مات أى شخص آخر لاستطاعوا أن يستعيروا الملابس. ولكن لم يكن هناك شخص فى تورتيلا فلات إلا وسيرتدى أجمل ملابسه من أجل الجنازة. كان كوكى ريوردان هو الوحيد

الذى لن يذهب، ولكنه كان فى الحجر الصحى بسبب الجدرى، وكذلك كانت ملابسه. وقد يكون من الممكن شحاذة النقود أو سرقتها لشراء حلة جيدة، ولكن الحصول على نقود من أجل ست حلل كان ببساطة أمراً مستحيلاً.

وقد تقول: ألم يكونوا يحبون دانى الحب الذى يبرر ذهابهم إلى جنازته فى ملابسهم المهترئة؟ ولكن هل تذهب فى أسمال فى حين يذهب جيرانك فى أفخر الثياب؟ ألن يكون فى ذهابهم بملابسهم الرثة من عدم الاحترام لدانى أكثر مما لو لم يذهبوا على الإطلاق؟

كان اليأس الذى انتاب قلوبهم لا حد له. ولعنوا حظهم. واستطاعوا أن يشاهدوا جالفث من خلال الباب الخارجى يستعرض نفسه فى الطريق. كان جالفث قد اشترى حلة جديدة من أجل الجنازة، ولقد حصل عليها قبل الموعد بأربع وعشرين ساعة. وجلس الأصدقاء، ذقونهم فى أيديهم، يسحقهم سوء الحظ. وراحوا يبحثون كل الإمكانات.

ولأول مرة فى حياة بيلون يتهاوى إلى حد العبث. قال مقترحاً: نخرج الليلة ويسرق كل منا حلة. كان يعلم أنه اقتراح سخيف، لأن كل حلة ستكون موضوعة فى تلك الليلة على كرسى بجوار سرير. وقد يعنى الاستيلاء عليها الموت.

قال يسوع ماريا: جيش الخلاص يمنح حللاً فى بعض الآحايين.

رد عليه بابلو: كنت هناك. كان لديهم أربعة عشر فستاناً هذه المرة، ولكن لم يكن هناك حلة واحدة.

كان القدر يقف ضدهم فى كل ناحية. وحضر تيتو رالف وقد برز منديله الأخضر الجديد من جيب صدره، ولكن العداوة التى أثارها جعلته يرتد معتذراً خارجاً من الغرفة.

قال بيلون بطريقة بطولية: لو كان أمامنا أسبوع، لكان فى مقدورنا أن نعمل فى تنظيف الأسماك. لكن الجنازة غداً. ينبغى أن نواجه الأمر. وبالطبع فى مقدورنا أن نذهب فعلاً إلى الجنازة.

وتساءل الأصدقاء: كيف؟

- فى مقدورنا أن نسير على جانب الطريق، أثناء سير فرقة الموسيقى والناس فى الشارع. إن الأعشاب الكثيفة تحيط بسور المدافن. يمكننا أن نختفى وسط الأعشاب ونشهد من هناك كل شىء.

ونظر الأصدقاء إلى بيلون فى امتنان. كانوا يعلمون كيف أعمل ذهنه الحاد فى إمكانات الحيل. ولكن مشاهدة الجنازة كان نصف المشكلة فقط، أقل من نصفها. وكان النصف الأكثر أهمية هو أن يشاهدهم الناس فى الجنازة. لكن هذا الحل هو أفضل ما فى مقدورهم أن يصلوا إليه.

قال بيلون: لقد تعلمنا درساً. يجب أن نذكر عن ظهر قلب أنه ينبغى أن يكون لدينا دائماً حلة جيدة محفوظة جانباً للظروف، لأننا لا نستطيع أن نتنبأ بما قد يحدث.

وعند هذا الحد توقفوا عن مناقشة المشكلة، ولكنهم كانوا يشعرون بالفشل. وراحوا طوال الليل يجوبون البلدة. أية ساحة بعدئذ لم تخل من أجمل أزهارها؟ أية شجرة زهور ظلت كما هى؟ وفى الصباح كانت الحجرة التى سيودع فيها جثمان دانى بالمقبرة مغطاة تقريباً بكومة كبيرة من أجمل الأزهار من أفضل حدائق مونترى.

إن الطبيعة لا تنظم باستمرار تأثيراتها بذوق سليم. صحيح أنها أمطرت قبل ووترلو. ولكن يوم الجمعة جاء يوماً جميلاً. بزغت الشمس كما لو كان يوم نزهة. وطارت النوارس عبر خليج مبتسم متجهة إلى مصانع تعليب السمك. واتخذ الصيادون أماكنهم فوق الصخور فى انتظار جذر البحر. وأنزلت شركة بالاس دراج خيماتها لتحمى زجاجاتها الحمراء السريعة التأثر فى واجهاتها من تأثير الشمس الكيماوى عليها. ووضع السيد ماتشادو، الترزى، لافتة على واجهة محله، راجع فى ظرف عشر دقائق، وذهب إلى البيت ليرتدى ثياب الجنازة. جاء ثلاثة من حاملى الشباك المتلئة بالسردين، ودهن لوى ديوارت قاربه، وغير اسمه

من لوليتا إلى « أولاد العم الثلاثة » وأمسك الشرطى جاك ليك حصاناً من ديل مونتى وأطلق سراحه واشترى سيجاراً.

إنه لأمر محير. كيف تستطيع الحياة أن تمضى فى مجراها البليد فى مثل هذا اليوم؟ كيف تستطيع مامى جاكسون أن ترش جانب الطريق أمام منزلها؟ كيف يستطيع جورج و. ميرك أن يكتب رابع خطاباته وأكثرها حدة إلى شركة المياه؟ كيف أمكن لتشارلى مارش أن يشرب برداءه كما يفعل دائماً. إنه تدنيس. إنه انتهاك حرمة.

استيقظ أصدقاء دانى فى حزن، ونهضوا من فوق الأرضية. كان سرير دانى خالياً. كان أشبه بحصان لا يمتطى وإنما راح يتبع صاحبه الضابط إلى قبره. وحتى بيج جو بورتاجى لم يلق نظرات نهمة إلى سرير دانى. وأشرقت الشمس فى حرارة على النافذة فألقت ظلال نسيج العنكبوت الرقيقة على الأرض.

قال بيلون: كان دانى يشعر بالسعادة فى صباح كهذا.

وبعد جولتهم إلى المصرف، جلس الأصدقاء لحظة فى الفناء وأحيوا ذكرى صديقهم. ذكروا مخلصين فضائل دانى. وتناسوا مخلصين أخطاءه.

قال بابلو: وكان قوياً. كان قوياً مثل بغل! كان فى مقدوره رفع بالة برسيم.

وسردوا قليلاً من قصص دانى. وطيبته، وشجاعته، وتقواه.

وسرعان ما حان موعد الذهاب إلى الكنيسية، والوقوف فى الشارع بملابسهم الرثة. وشعروا فى داخلهم بالخجل عندما ذهب الناس الأسعد حظاً إلى الكنيسة فى أجمل ثيابهم، تفوح منهم رائحة أجواء فلوريدا. وكان فى مقدور الأصدقاء أن يستمعوا إلى الموسيقى وإلى صدى الصلاة الحاد. وشاهدوا من مركزهم الاستراتيجى وصول الفرسان، وفرقة الموسيقى بدقات طبولها المكتومة، وفرقة إطلاق النار، والعربة ذات الأزواج الثلاثة من الخيول وفارس بجوار كل زوج من الخيول. وبعثت

طرقعة أرجل الخيول الحزينة على الأسفلت باليأس فى قلوب الأصدقاء. راقبوا عاجزين الصندوق عندما حمل ووضع على العربة، وقد التف حوله العلم. وأطلق الضابط صفارته، ورفع يده ومدها إلى الأمام. وتحركت الكتيبة، وأطلقت فرقة إطلاق النار بنادقها. ودقت الطبول إيقاعاتها البطيئة التى تنفطر لها القلوب. وعزفت الفرقة المارش الجنائزى. وتحركت العربة. ومشى الناس فى جلال خلفها، الرجال فى اعتدال وصرامة، والنساء رافعات أذيال أثوابهن فى رقة لتجنب أثر الخيالة. كان الجميع هناك، كورنيليا رويث، السيدة موراليس، جالفث، توريللى وزوجته الممتلئة، السيدة بالوتشكو، تسيتورالف الخائن، الحلوة راميريث، السيد ماتشادوا، كل شخص ممن وصلوا إلى شىء ما فى تورتيلا فلات أو ممن لم يصلوا، كان هناك.

فهل ثمة عجب إذا لم يستطع الأصدقاء تحمل عار هذا الموقف وتعاسته؟ وقد ظلوا فترة قصيرة يسيرون خفية على جانب الطريق فى بطولة.

وكان يسوع ماريا أول مَنْ انهار. وتشنج فى خجل، لأن والده كان غنياً وكان حائزاً على جائزة مصارع. وسقط رأس يسوع ماريا فى تخاذل، وتبعه الأصدقاء الخمسة الآخرون، وتجمعت الكلاب الخمسة حولهم.

وقبل أن يظهر الموكب، كان أصدقاء دانى يرقدون فى الحشائش الطويلة التى تحيط بالمقابر. كانت الصلاة قصيرة وعسكرية. وأنزلوا الصندوق، وطقطقت البنادق، وأنشد النفير بعض النغمات. عند سماع الصوت ألقى انريك فلاف وباجاريتو ودودلف وسنيور أليك تومبسون رءوسهم إلى الخلف وأعولوا. شعر القرصان حينئذ أنه فخور بهم!

سرعان ما انتهى كل شىء وابتعد الأصدقاء بسرعة حتى لا يراهم الناس.

وكان لابد من أن يمروا ببيت توريللى! الخالى على أى حال أثناء عودتهم. ودخل بيلون خلال النافذة وأحضر جالونين من النبيذ ثم عادوا

يمشون ببطء نحو بيت دانى الذى تخيم عليه السكينة وملأوا أقداحهم وشربوا وكأنهم فى احتفال رسمى.

قالوا: كان دانى يحب النبيذ. كان دانى يشعر بالسعادة عندما يحصل على بعض النبيذ.

مضى الأصيل، وأتى المساء. وراح كل رجل أثناء ارتشافه الخمر يفكر فى الماضى. وفى السابعة حضر تيتو رالف ومعه صندوق من السيجار فاز به فى لعبة قمار. أشعل الأصدقاء السيجار وبصقوا، وفتحوا الجالون الثانى. وحاول بابلو أن يغنى بضعة مقاطع من أغنية « تولى بان» ليرى ما إذا كان صوته قد ذهب نهائياً.

قال بيلون مفكراً: كانت كورنيليا رويث وحدها اليوم.

قال يسوع ماريا: ربما يكون من الأفضل أن نغنى بضع أغنيات حزينة.

واعترض بابلو: لكن دانى لم يكن يحب الأغانى الحزينة، كان يحب الأغنيات السريعة، التى تدور حول النساء المرحات.

وأومأ الجميع برءوسهم موافقين فى وقار: نعم، كان دانى عظيماً فى موضوع النساء.

وأخذ بابلو يغنى المقطع الثانى من « تولى بان » وساعده بيلون قليلاً، ثم انضم الآخرون إلى الغناء فى نهاية الأغنية.

عندما انتهت الأغنية، سحب بيلون الدخان من سيجاره لكنه انطفأ.

قال: تيتو رالف. لم لا تحضر جيتارك حتى تستطيع أن تغنى أفضل من هذا قليلاً؟ وأشعل سيجاره وألقى عود الثقاب بطرف أصابعه.

واستقر العود المشتعل على جريدة قديمة ملتصقة بالحائط. وهم كل منهم بالنهوض لإطفاء العود، ولكن خطرت لكل منهم فكرة علوية، فارتد جالساً. وتلاقت عيونهم وابتسموا ابتسامات المعمرين اليائسين الرذينة. وراقبوا اللهيب وهو يتصاعد ثم ينطفئ تقريباً ثم يرتفع مرة أخرى فى حيوية. وشاهدوه وهو يندلع على الورق هكذا تتحدث الآلهة بالعلل البسيطة. وظل الرجال يبتسمون وهم يشاهدون الورق يحترق والنار

تمسك فى الحائط الخشبى الجاف.

ذلك هو ما كان ينبغى، يا أصدقاء دانى الحكماء. لقد انقطع الرباط الذى كان يجمع بينكم. وفقد المغناطيس الذى كان يجذبكم فعاليته. سوف يمتلك المنزل أناس غرباء، بعض أقارب دانى من ذوى الوجوه العابسة. إذن من الأفضل أن ينتهى ذلك الرمز للصداقة المقدسة، هذا المنزل الجميل الذى كان ينبض بالحفلات والمعارك، بالحب والراحة، كما انتهى دانى فى هجوم يائس أخير على الآلهة.

جلسوا وابتسموا. وتصاعدت النار إلى السقف كالأفعى وشقت السقف وزأرت. وعندئذ فقط نهض الأصدقاء من كراسيهم كالحالمين إلى خارج المنزل.

أما بيلون، الذى كان يستفيد من كل درس، فقد أخذ معه ما تبقى من الخمر.

وانطلقت الصفارات من سونترى. وزأرت السيارات مصعدة التل بسرعة. وتراقصت الكشافات بين الأشجار. وعندما وصلت سيارة الإطفاء، كان المنزل عبارة عن سهم كبير بارد من اللهب. ورطبت الخراطيم الأشجار والأجمة حتى تمنع النيران من الانتشار.

وبين أهالى تورتيلا فلات المتزاحمين وقف أصدقاء دانى فى انبهار وراقبوا المنزل حتى صار فى النهاية كومة من الرماد الأسود المتبخر. وعندئذ استدارت سيارات الإطفاء وانطلقت تهبط التل.

ذاب أهالى منطقة فلات فى الظلام. وكان أصدقاء دانى مازالوا واقفين ينظرون إلى الحطام الذى يعلوه الدخان. ونظر كل منهم إلى الآخر فى دهشة، ثم نظروا إلى المنزل المحترق. وبعد لحظة استداروا وابتعدوا فى بطء « كل منهم فى طريق ».

رقم الإيداع : ١٥٩٨ / ٢٠٠٧ الترقيم الدولى : 977-08-1285-4



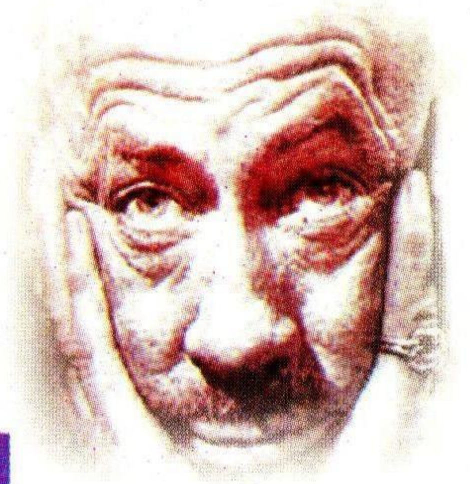


John Steinbeck

(تورتيلا فلات) واحدة من أشهر روايات الأديب الأمريكي جون شتاينبك الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٢ . هذه الرواية أثرت في جيل كامل من الأدباء العرب، استلهمها بعضهم أدبا وسينما حتى أنها خلقت تيارا جديدا يهتم بالهامش. ولد شتاينبك في ساليناس، كاليفورنيا وتلقى علومه في جامعة ستانفورد. وعمل في شبابه سائساً في حظيرة للدواب ثم قاطفاً للفواكه.

وقد كان لهذه الأعمال التي مارسها في بداية حياته تأثيراً واضحاً على أسلوبه في كتابة الروايات والقصص التي أنتجها في حياته، فمن يقرأ ما كتبه يجد أن معظمها تدور حول تشبث المزارعين بأرضهم وكفاح المعدمين من أجل تحصيل قوتهم بكرامة، كما ويلحظ أن شخصياته غالباً ما وقعت في شرك عالم القوى الاجتماعية والاقتصادية غير العادل، إلا أنهم بشر عاطفيون أبطال ولو واجهتهم الهزائم.

وتعد روايته "عناقيد الغضب" (١٩٣٩) من أكثر أعماله شهرة وعنها نال جائزة بوليتزر سنة ١٩٤٠، وفيها يصف حالة عائلة فقيرة من أوكلاهوما هاجرت إلى كاليفورنيا خلال الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات من القرن العشرين وقد لاقى هذا العمل رواجاً في الأوساط الأدبية في ذلك الحين.



تورتيلا فلات